

أوجست مولييراس  
Auguste MOULIERAS

# المغرب المجهول

الجزء الأول



اكتشاف الريف

HC840ΣΘ ΣX 85+L.Θ||8!  
+ΣHΣI.0ΣH

ترجمة وتقديم

د. عز الدين الخطابي

2007

منشورات **المطبعة** 2

أوجست مولييراس  
Auguste MOULIERAS

# المغرب المجهول

الجزء الأول



اكتشاف الريف

HC84040 8X 85+L.0081  
+8H81.008H

ترجمة وتقديم

د. عز الدين الخطابي

2007

الكتاب: المغرب المجهول، الجزء الأول، اكتشاف الريف.

المؤلف: أوغست مولييراس Auguste MOULIERAS

المترجم: عز الدين الشاذلي

رقم الإيداع القانوني: 0519 / 2007

منشورات: تاروق ن اه ريف

الطبعة: 2007

المطبعة: دار النجاح الجديدة

## الإهداء

إلى زوجتي الريفية الأصيلة.

وإلى أبنائنا.

إلى كل مدافع عن قيم التعدد والاختلاف.

إلى روح القاصين الشرقاء.

إلى الناشطين من أجل خير لهذا الوطن من الأحياء.

هو الدين العظيم



LE

# MAROC INCONNU

*Conserver la Coutume*

22 ans d'explorations dans cette contrée mystérieuse, de 1872 à 1893.

**IMPORTANTES RÉVÉLATIONS** de voyageurs musulmans sur le pays, les habitants, les mœurs, coutumes, usages ; industries commerciales, agricoles, manufacturières ; richesses minérales, forestières, pastorales ; population, forces militaires, administration, langues, races, etc.

7678

PAR

**Auguste MOULIÉRAS**

*Professeur à la Chaire de Langues et de Littérature arabes à Oran  
Ancien Interprète titulaire de l'Armée française et du Gouvernement Général de l'Algérie  
Ancien Professeur d'arabe aux Lycées de Constantinople et d'Oran  
Auteur de plusieurs Ouvrages relatifs aux Langues arabe et berbère*

« Le Maroc, pays africain incomparable,  
« qui sera un jour, espérons-le, le plus beau  
« dessein de la couronne coloniale de la France »

(V. p. 31).

PREMIÈRE PARTIE

## EXPLORATION DU RIF (Maroc Septentrional)

Avec Cartes inédites du Rif et de chaque Tribu (hors texte) — 1/100,000

Propriété de l'Auteur. — Tous droits réservés

En dépôt à Paris à la Librairie Coloniale et Africaine, JOSEPH ANDRÉ,  
rue Bonaparte, 27

— DÉCEMBRE 1895 —

03  
133

# مقدمة المترجم

## مفارقات الخطاب الإثنوغرافي

ولما ترجم هذا الكتاب الممتع والمتميز، تبادرت إلى ذهني أسئلة عديدة، مستحضر وتلخّص مع برغلي صحة المؤلف، في غايات ووديان وجبال وفخايل الريف، لتتلاور بشكل واضح مع نهاية آخر سطر من هذا الكتاب. ويمكن صياغة هذه الأسئلة كما يلي:

- ما هي الأهمية التي يكتسبها الآن، عمل إثنوغرافي أنجز حول منطقة الريف في لواخر القرن التاسع عشر؟ -

- ما هو الموقع الذي يحتله هذا العمل بين "الموضوعية العلمية" و"التبرير الإيديولوجي والسياسي" للاستعمار وتحديد الاستعمار الفرنسي؟

- أين تتجلى مفارقات الخطاب الإثنوغرافي لمولييراس حول الريف وأهله؟ وما هي الدروس المستخلصة من هذا الخطاب؟

### 1- مدى أهمية هذا العمل الإثنوغرافي

يترجم مؤلف أوجست مولييراس المصدر بوهران سنة 1895، والذي اختار له عنوانا رئيسيا هو "المغرب المجهول"، وعنوانا فرعيا هو "كتشاف الريف"، ضمن الاهتمام الذي أولته أوروبا للمغرب. وهو الاهتمام الذي يمكن أن نلوه عبر ثلاثة مستويات: سياسية واقتصادية وثقافية.

على المستوى السياسي: كان لولييراس المغرب في معركة إيملي ضد فرنسا سنة 1844 وفي تطوان ضد إسبانيا سنة 1860، أثرهما في تسريع وتيرة اهتمام الباحثين الأوروبيين بالمجتمع المغربي الذي كان يكتسب في مخيلتهم طابعا غريبا. هكذا تحدثت البعثات والرحلات إلى المغرب وظهرت في هذا الإطار أسماء وقرنة في مجال الإثنوغرافيا والجغرافيا والعلوم القانونية والسياسية، ساهمت عبر مراسلاتها وملاحظاتها الإدارية ومقالاتها وكتبها، في تقديم صورة عن بلدنا، ليس الهدف منها فقط هو إشباع فضول القارئ العادي، بل أيضا وأساسا، تقديم معلومات حيوية لأصحاب القرار السياسي والعسكري في أوروبا، في مرحلة لتوسع الاستعماري

لهذه الأخيرة. ومن بين هذه الأسماء نذكر: دو مكازي De Mackenzie ( إنجلترا، 1871 -  
 1872 )، لانز Lenz ( ألمانيا، 1879 - 1880 )، بنيتز benitez ( إسبانيا، 1872 -  
 1880 )، شارل دو فوكو Ch. De Foucauld ( فرنسا، 1883 - 1884 ).

على المستوى الاقتصادي: إن الاتفاقيات التجارية التي تمت بين المغرب وبعض  
 البلاد الأوروبية في القرن التاسع عشر - كما هو الشأن مع إنجلترا سنة 1856 مثلا - سمحت  
 بفتح الأسواق المغربية على التجارة الرأسمالية ومهدت لظاهرة العملية الفصلية. وبذلك اشككت  
 العلاقة بين الأوروبيين وتحدت بمصالحهم ورحلات اكتشافهم، لترسخ تولدهم بهذا البلد. هكذا  
 سيولد بهذا الأخير نوعان من الاستثمار:

- استثمار اقتصادي ذو خلفية سياسية، قوامه بالأساس، استغلال خيرات بلندا.
- استثمار على مستوى المخيلة، يقدم أحكاما وتصورات حول المجتمع المغربي،  
 مطبوعة بالفرجة الغريبة *exotisme* وبمركزيتها الغربية.<sup>1</sup>

على المستوى الثقافي: كان لتطور حقل الاستشراق والعلوم الاجتماعية أثره في  
 صياغة وبلورة صورة خاصة عن الآخر ( الشرق )، ظلت خاضعة لمجموعة من المراكز،  
 يمكن تلخيصها في ما يلي:

- تصورها المبتكر في ثقافات الأخر.
- ارتباطها فكري أو الجزئي بالسياسة الاستعمارية.
- تكبتها الشرقية.

وهذا ما أكد عليه المفكر الفلسطيني الراحل، إدوارد سعيد، حينما اعتبر بأن الشرق  
 « يعاين بوصفه شيئا وجوده معروف دائما للغرب، ويوصفه أيضا شيئا بقي ثابتا في الزمان  
 والمكان من أجل الغرب. لقد كتبت نجمات الاستشراق بوصفية والتسمية من الضلعة  
 والظلم، بحيث أن مرادف كلمة من تاريخ الشرق الثقافي والسياسي والاجتماعي، تعتبر الآن

<sup>1</sup> - M. Alaoui Belrhiti, *F ès lieu d'écriture*, Ed. Afrique Orient, casablanca, 1983, pp. 12 - 13.

مجرد استجابات للتأريب. فالتأريب هو الشاهد والحكم والمطلوب، لكل وجه من أوجه سلوك الشرق...<sup>2</sup>

ورغم الفحريات الطارئة على مناهج الغربيين واستفادتهم من مطبوعات العلوم الاجتماعية ( الجغرافيا، بتولوجيا، تاريخ التصدي، إلخ...)، فإن هذا القلق من المعرفي سيتم استتماره في إطار " المنظومة المرجعية الغربية " التي تتميز كمولد كوني للحكم، ويقتلي سيظل الآخر ( أي نحن )، فحينما لهذا النموذج الغربي الأمل الذي تشكل نزعة ذاتية عتقا لعل أي تصور موضوعي ثقافة الآخر.<sup>3</sup>

وفي هذا الإطار، تشكل الأبحاث والدراسات حول المغرب، مجالاً لمراكمة المعلومات حول عادات وتقاليد وسلوكات أهل، من أجل استثمارها السياسي والإيديولوجي فيما بعد. وسيتم ابتداء من سنة 1904، تأسيس ما يعرف بالهيئة العلمية بالمغرب، بتحفيز من الإثنوغرافي الفرنسي ميشو - بيير Michaux - Bellaire ، وهو ما سيؤثر نقطة انطلاق مؤسسية للأبحاث حول المغرب بدعم سياسيا من طرف سلطات الحماية، وتحتيدا من طرف ليوطني. وسيتبع عن ذلك إصدار " الأرشيفات المغربية " و " مجلة العلم الإسلامي ". وبتكاد من سنة 1920 سيظهر أول عدد من مجلة " هسبريس Hesperis " لثقافة أصيت، التي ستحل محل " الأرشيفات الأمازيغية " التي كانت تصدر عن المدرسة الفرنسية الأمازيغية التي أسست بقريلط سنة 1914.

ومما لا شك فيه، أن هذه " الحركة العلمية " قد سمحت بمراكمة معلومات وفيرة حول العادات والتقاليد المغربية، ليس بالمحاضر فقط ولكن أيضا وبخصوصا بالقبائلي والقرى والمناطق الجبلية التي ستنصف في كثير من الأحيان في علاقة " بلاد الصية "، التي لا تخضع للنظام المغربي. غير أن هذا التزامم المعرفي كان يخضع في مجمله لمقتضيات دينية استعمارية، مما جعل خطابه مثقبا ومفارقا. فما هي أوجه هذا الالتباس وهذه المفارقة؟

<sup>2</sup> - إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، التشاء، ترجمة كامل أبو حبيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت الطبعة 1، 1981، ص. 132.

<sup>3</sup> - عز الدين الطاهي، " تكسيم روتسون والاستشراق "، مجلة الثقافة الجديدة عدد 38، السنة السابعة، 1983، ص. 102.



## 2- مفارقات الخطاب الانتوخرافي:

يمكن تحديد هذه المفارقات عبر ثلاثة مستويات وهي:

- علاقة الطمي بالسياسي
- نظرة المثقفة للمجتمع المغربي
- أهمية هذه الدراسات بالنسبة لتأسيس سوسيولوجيا وإنتولوجيا للمغرب.

### 2-1: المستوى الأول:

إن أبرز ما يميز الخطاب الإنتوخرافي هو محاولته الجمع بين الصرامة العلمية التي تقتضيها منهجية العلوم الاجتماعية والمصلحة السياسية للوطن الأم ( فرنسا، إسبانيا، إنجلترا، ألمانيا، إلخ...)، وهذا التجاور، أو بالأحرى هذا التداخل بين العلم والسياسة، هو الذي يمكن المثقفين من خطاب الباحثين الاجتماعيين الغربيين وصحوبة التزامهم بـ "الموضوعية العلمية". وقد سبق للباحث المغربي فوزي مرورو أن أثنى عن هذا الالتباس بخصوص أعمال ميشو بينير والهدف من تأسيس "المبحث العلمي"، حيث تعامل لقلا: «إذا كان هدف "المبحث العلمي" هو القيام بدراسة موضوعية حول المغرب، فنوم معرفة الواقع من أجل السيطرة عليها، وإذا كانت هذه السيطرة تتضمن تبريرات مشروعة، فإن تسقط هذه المؤسسة بالنقلى في تناقض لا يمكن تجاوزه حتى ما يبدو، تناقض ياتعل في محاولة معرفة الواقع بغرض تشويهه، رغبة في استعصائه لأغراض خاصة»<sup>4</sup>.

### 2-2: المستوى الثاني: يعتبر ناتجا لالتباس الخطاب الانتوخرافي وتراجعته بين

"المطلب العلمي" و"المصلحة الخاصة"، حيث خضع تصور المجتمع المغربي للمثاقفة قلزمة على مجموعة من التقلبات مثل: بلاد المغازن / بلاد السبئية، العرق العربي / العرق الأمازيغي، الفروع / الفروع، المجتمع الحضري / المجتمع القروي، الإسلام الرسمي / الإسلام الشعبي، سلطة الجماعة/ سلطة الدولة إلخ... وبند استعمار هذه التقلبات باعتبارها المكاسا لثنى الواقع المغربي ولتعديته وتنوع أشكاله الاجتماعية والثقافية، فقد تم التعامل معها بشكل تجزئي

<sup>4</sup> - M.F. Hourou, *Sociologie politique coloniale au Maroc, cas de Michaux Bellatre*, Ed. Afrique Orient, Casablanca; 1988, pp 23- 24.

والخزافي، حيث تمت معالجة كل مكون من مكونات هذه التقلبات، بمعزل عن الآخر، ولم تحدد العلاقات الظاهرة أو الخفية بين أحكام الشرع وأحكام الحرف مثلا، أو بين تدبير الجماعة لشؤون القبيلة والتدبير المنزلي لشؤون البلاد، أو بين إسلام الزوايا والمعتقدات التي ترجع إلى عهود سحرقة، والإسلام المذهبي المقتن. وهذا ما دفع فلاحت السوسيولوجي الراحل بول باسكون P.Pascon إلى القول: « بأن أفضل الأصول اهتمت بالجوانب الجزئية للمجتمع المغربي (...) لذلك فإن هذا الأخير لم يدرس في كليته سوى بطريقة سطحية جدا وغير متكاملة ».<sup>5</sup>

## 2-3: أهمية هذه الدراسات بالنسبة لتأسيس سوسيولوجيا وإثنولوجيا

مغربية:

ومع ذلك، فإن هذه الأبحاث والدراسات الإثنوغرافية والتاريخية والسوسيولوجية والقانونية والجغرافية، تشكل ثروة وثقافة هامة لا غنى عنها لمعرفة الواقع المغربي في إحدى فتراته الأكثر غموضا، ونقصد بذلك لفترة ما قبل الاستعمارية. وتتجلى هذه الأهمية على ثلاثة مستويات على الأقل:

- فهي قد مكنت من استخدام مذاهب العلوم الاجتماعية لدراسة وفهم واقع المجتمع المغربي.

- كما أن الموضوعات الفاضلة للملاحظة والتحليل، كانت متنوعة بشكل كبير وأبانت عن تعدد الثقافات وخصوصيتها وتفاعلها مع البيئة المحيطة بها.

- ومن جهة ثالثة، ساهمت في التمهيد لقيام سوسيولوجيا وإثنولوجيا تهتمان بالواقع الاجتماعي بمغرب ما بعد الاستعمار، والتي حمل لواءها باحثون مثل أندري آدم A. Adam، صاحب العمل الضخم حول الدار البيضاء، وبول باسكون وعبد الكريم خطيبي وعبد الله حمودي، إلخ...

وهذا وجه آخر، لمعارف الأدبيات الإثنوغرافية. فهي وإن كانت " إرادة المعرفة " لديها ثروم خدمة " الإدارة الاستعمارية "، إلا أنها ساهمت، بشكل غير مباشر، في وضع أرضية للنقاش حول طبيعة المجتمع المغربي وأصناف العلاقات بين مكوناته، سواء على المستوى الأدنى ( بين السوسيولوجيين والإثنوبولوجيين)، أو على المستوى العمودي ( بين هؤلاء وبين المؤرخين وعلماء الاقتصاد والسياسة).

<sup>5</sup> - Paul Pascon, *Etudes rurales*, S.M.E.R., Rabat, 1980, p.197

فذلك، لا يمكن تجاهل التأثير الذي مارسه هذه الاثنوغرافيا على مسار الأبحاث الاجتماعية، أولاً بسبب غنى الأبحاث المستمدة من طرف باحثيها والمناهج والطرق التي ابتكروها لدراسة الوقائع (مؤنوغرافيات، تحقيقات...)، وثانياً، بفضل الرحلات التي سطرها على القطاعين (السياسيين والاقتصاديين) في مغرب ما بعد الاستقلال. وثالثاً، نظراً للتحديات التي منحتها لهم الباحثين المغاربة، لخصص مفاهمها وأطرها الممتلئة بالبيانات الاجتماعية والثقافية والسياسية لمغرب ما قبل الاستعمار.

ونتناول في هذا الإطار: بأي معنى تطبق هذه الأحكام على عمل مولييرس حول الريف؟ أو بصيغة أخرى، أين تكمن مفارقات خطاب هذا الاثنوغرافي والباحث المغربي؟

### 3 - التباس ومفارقة الخطاب الاثنوغرافي لمولييرس:

إن أول ما يثير انتباه قارئ هذا الكتاب، هو اعتراف مولييرس الصريح بأنه لم يذا أرض الريف أبداً، على عكس الرحلة الاثنوغرافية الآخرين الذين زاروا المغرب (ملكزي، دوفوكو مثلاً). وهذه أول مفارقة يمكن تلمسها: إذ كيف يمكن تقديم معلومات دقيقة عن عادات وتقاليده وسلوكيات شعب ما، دون الاحتكاك به ميدانياً؟ طبعاً، إن مولييرس سيجادل إننا نحن بأهلية ما قلنا به، انطلاقاً من ثلاث حجج يعتبرها دالة:

3 - 1: فهو قد اعتمد على مخبر كل نظيره، وهو القبائلي محمد بن الطيب (الملقب بالندويش) الذي سيتجول في ربوع الريف مدة تفوق العشرين سنة (ما بين 1872 و 1893)، حيث سينقل إلى مولييرس كل ما عاينه وعاشه من أحداث ووقائع. وطبعاً، فإن هذا القبائلي استطاع أن يوهبهم أعلى المنطقة بأنه ريفي مثلهم.

3 - 2: ولكي لا يتعرض عليه أحد، يكون ما أتى به هذا المخبر، قد يكون عبارة عن روايات لا أساس لها من الصحة، فإن مولييرس كان يفتكم فرصة تولد الريفيين بوهان - للعمل بالفلاحة - لتؤكد من صدق أقوال الندويش، عبر المقارنة بين مختلف الروايات التي يتلقاها.

3 - 3: لما الحجة التي يعتبرها مولييرس حاسمة، والتي هي بمثابة تحد لكل متشكك في الأخبار الواردة في مؤلفه، قد عبر عنها بقوله: « افحصوا هذا الكتاب، ولو افقوا أي ريفي فالتأني

به، متعذرا كان أو جاهلا، وقرروا عليه الجزء المتعلق بشيئته وبالمناطق التي يعرفها،  
وسكون رد قطه بمثابة إجابة لي أو إثبات لما قلته.<sup>6</sup>

وكذا قدم موليرسون نفسه بهذه التجربة، وكلفت النتيجة أن مغالطيه من الرافضين دخلوا من  
قوة المعلومات المتوفرة لديه، بل إنهم سيمدونه بمعلومات جديدة كان لها تأثير إيجابي على مسار  
تكوين الكتاب.

ومع ذلك، فإن الجانب الذاتي في عملية سرد الوقائع والأحداث، قد طغى كثيرا، بل إن  
مزاياها المميز كانت هي المحددة في بعض الأحيان لأحكامه وتصويراته. مثلا، يكفي أن يسلمه  
أحد من قبيلة ما لمتعه، ليصبح أهلي تلك القبيلة جميعهم نموذجها للخداخ والفتاق وقطع الطريق  
إلخ.. بالمقابل، فإن القبائل التي لكرمت ضيافة الدرويش، ستعبر نموذجها للضيافة والسفاهة  
والطوبى. أنتف إلى ذلك، أن هذا الجانب الذاتي قد غلب أيضا في نقل بعض المعاداة إلى درجة  
تصبح معها أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع. (نشير هنا إلى سرد وقائع ككرنفل بتسمان  
والحديث عن فروسية بني بويحيى وعن الاقتتال بين أفراد بني ورياهل في الأسوق إلخ...).

ونقصد بذلك أن هذه الوقائع وإن كانت حقيقية، إلا أن الصيغة التي رويت بها هي التي تجعلها  
مسطحة مسطحة.

هذا الاقتتال يتجلى أيضا في تصور العام المتعلق بأهالي الريف وبمنطقتهم. فمن جانب،  
هناك اعتراف بأصلية الرافضين وبشهامتهم وخصوصا - وهذا أمر بالغ الأهمية - بأصلية المرأة  
الريفية وبشخصيتها القوية وجمالها المتميز وسلطانها التي لا تقزع دلائل منزلها. ولأخيرا بارتباط  
الشخصية الريفية بالحرية وبالاستقلالية بشكل لا نظيره.

ومن جهة أخرى، هناك إقرار بجهل هؤلاء الأهالي وقسوتهم والظواهر على ذلهم  
وحزهم، ليس فقط من الأجانب، بل من بعضهم البعض، إلى درجة يصعب فيها على المرء في  
حالات الأخذ بالتأثر أن يغادر بيته نهرا، لأن مصيره سيكون هو القتل.

وهذا الأمر، وضعا أمام التقليل المثير للجدل بين مفهوم الجماعة وواقع "السيبة" الذي  
يسبب موليرسون، كغيره من الأكاديميين الدارسين المغرب، في وصفه. فترة يتحدث عن

<sup>6</sup> - نظر خاتمة الكتاب.

الجماعة كشكل من أشكال التماثلية الديمقراطية ما دامت كل إقليم القليلة ممثلة فيها.<sup>7</sup> وثمة أخرى، يتحدث عنها فقط كإلزامية مؤسسة بإقتن، هدفها الأساسي هو الوقوف في وجه سلطة المخزن. ومن هنا، فإن التنظيم الجماعي لم يمنع القبائل من العيش بحرية هي أقرب إلى القوضى و " السبية " وهو ما سيظهره مؤيبريس صراحة في الصفحات الأخيرة من الكتاب، حينما سيظهر بأن الزنوجيين يبدون سعداء جدا بحياتهم التي يقضونها في جهل وقوضى كاملين، وأن يقف به الأمر عند هذا الحد، بل سيطلق الطنان لرهيقه المكتونة والتي تلتصق عن الوجه الآخر لخطبه، حيث يقول: « إذا كان القدر للمكون سيحتم على بلد الحريف هذا بأن يخضع تحت سيطرة الأجنبي، فإن ما نقصناه هو أن يحكم من طرف فرنسا، لأن وطننا للظلم يوما مع رعيله المسلمين، قد دأب على مطقتهم بشكل جيد، بل لفضل بكل تلكه مما هو عليه حلقهم في المناطق التي تحبسها الأمم الأوروبية الأخرى.»<sup>8</sup>

طبعا، سند بين ثابا الكتاب تلمحات وأملى من هذا القبيل، خصوصا عند وصف الطبيعة الرائعة لمنطقة أريف والتمسح على عدم استغلال خيراتها الفلانية والمنجمية من طرف الأملي، ودعوة فرنسا إلى استخدام كل وسائلها لتمكين من هذه الخيرات، وعدم ترك المجال أمام الإسبانيين ليلطوا ما يشاؤون بالمنطقة، منكرًا بأن سذاجة الفرنسيين هي التي حرمتهم من السيطرة على الجزر الجعفرية، كنقطة انطلاق للتحكم في أراضي أريف.

من جانب آخر، سطر مؤيبريس بأن التعامل مع أي شعب يستلزم التعرف على عاداته وتقاليده وفهمها بشكل جيد. ولحسن وسيلة لتحقيق ذلك، هي تعلم اللغة. إذا، سيكون من الداهن إلى تعلم اللغتين الأمازيغية والعربية قبل الكتابة عن أي جزء من أجزاء المغرب الكبير أو العالم الإسلامي. وسوجه بذلك، نقدا لاذعا للمستشرقين والإثنوغرافيين والمؤرخين الأوروبيين الذين لم ينتهوا في غلبتهم سوى أصال جوفاء، سوطاها للسياح سريعا، وإن لم يعد لا الباحثين ولا أصحاب قرار سياسي والعسكري. وطبعا، سيحضر مؤيبريس بأن ما قام به هو النموذج الذي يجب أن يتخذ، فهو ملم بالعربية كاستاذ لها ومخبره ( فديوش ) يتكلم الأمازيغية، وهو ما سيسمح للمعرفة بأن تكون في خدمة السلطة.

<sup>7</sup> - نقلا مع الأستاذ محمد قوالي في ترجمة fraction ( بالإسبانية fraction / seccion ) يقسم بلد لفرقة، حتى يتم تقادي القيس بين فرقة وترافقت. انظر: نيد مونتيسوري حارت، القلقون العربي القوي، ترجمة د. محمد قوالي منشورات المعهد الملكي للغة الأمازيغية مطبعة المعارف الجديدة الرباط، 2004، ص. 11

<sup>8</sup> - انظر القسم المتعلق بيلي بثير.

ورغم هذه المفارقات والاختلافات التي ولقنا عليها، يظل هذا العمل في نظري، ذا أهمية كبيرة. لأنه سمح بالتعرف على نمط حياة الريفيين في مرحلة حرجية من تاريخ المغرب، أي أولقرن القرن التاسع عشر. وثالثها، لأنه مكن من إبراز خصوصية العلاقة التي تربط أهالي الريف الأحرار بالآخر: سواء كان هذا الآخر هو المغزن، أو الغرب المستعمر (إسبانيا، إنجلترا، فرنسا، ألمانيا)، أو الجار نفسه (قبل جيلة).

ولا بأس من الإشارة إلى أن سرد الوقائع قد اتخذ أشكالا متعددة، إذ تم فيه الانتقال من المستوى القريري الوصفي، إلى المستوى الملحمي الشعري، ومن جدية وصراحة التحليل، إلى الدعابة والسخرية. وهو ما انعكس على صياغة الجمل والفقرات، بحيث يتم في كثير من الأحيان الانتقال بنا بشكل مفاجئ، من موضوع إلى آخر ومن حدث إلى حدث مغاير له تماما ( مثلا الانتقال من موضوع المرأة، إلى الأولياء، إلى الحظف بين القبائل دون أية رابطة بين هذه القضايا). لكن ذلك، لم يزعج عن الكتاب طرافته وإثارته وأهميته.

ولا يسعني في الأخير إلا أن أتوجه بخالص الامتنان إلى زوجتي التي ساعدتني معرفتها النسبية بتميزها، على تنقيح معاني بعض الحوادث الواردة في الكتاب باللغة الأمازيغية. كما أن استحضار روايات المرحومة جدتها التي عاشت طفولتها بالريف ( قلعة )، في هذه المرحلة بلذات التي تحدث عنها مولييرس، شكلت مادة مفيدة للتصحيح والمقارنة بين الأحداث. وهذه دهرة للباحثين في المجال الأنثروبولوجي خصوصا، كي يولوا أهمية كبرى لما يعرف بسرد وقائع الحياة Récits de vie ، كغزان هلم من المطبوعات والأخبار يمكن أن يساهم في الكشف عن واقع وحقيق طواها النسول.

فاس، في 2006/02/02

د. عز الدين الخطابي

# المغرب المجهول

## استهلال

### الأرض طاووس والغرب كعائلته \*

مثل عربي

### لماذا وكيف أجهزت هذا الكتاب؟

ما بين إقليم وهران والمحيط الأطلسي، يمتد بلد شاسع وجميل أكبر من فرنسا، ساعدني هذا بلد، المغرب، وهو الاسم المقطوع من إحدى مدنه الرئيسية ( مراكش )، ونحن نعلم بأن المغرب لا زال إلى حدود اليوم، أرضاً مجهولة تقريباً. وعلى الرغم مما يذكره واضعو الخرائط والجغرافيون الجيّدون الذين ينقل بعضهم عن البعض الآخر دون نقد ولا انشغال بالحقيقة، فإننا نستطيع التأكيد بأننا لا نعرف ولو جزءاً واحداً من الألف، من هذه الإمبراطورية الشريفة. وطننا ألا نظل مدعشين من هذا الجهل العظيم، في قرن عرف العديد من الاكتشافات الجغرافية، ولتبحث بالأحرى عن الأسباب. ذلك أن هذا الجهل مرده سبب واحد ووحيد وهو عدم معرفة اللغة العربية.

ولاخفاق المغرب واكتشاف أحد زواياه وأركانه، يلزم على كل أوروبي راغب في المغامرة دلفل هذا البلد، التسليح بخطين يشكلان في الحقيقة طما واحداً: يجب عليه معرفة العربية الكلاسيكية بشكل لا يأس به ومعرفة العربية الدارجة بشكل جيد. وهذا الشرط الوحيد ليس هو الأسهل، وإليك بيان ذلك: ففضلاً عن الضرورة المطلقة للتكلم بالعربية، وهو ما يعتبر بالنسبة للأجنبي أمراً مستحيلاً، يجب أيضاً معرفة القرآن الكريم برمته تقريباً، وحفظه عن ظهر قلب

\* - ملحوظة المترجم: كتب هذا الفصل بهذه الصيغة في النص الأصلي.

ولمراسته وفق قواعد ثابتة، مع الالتزام بالثبوت العربية الفصحى. ويجب على المرء أن يكون على درجة بالغة القنوية والمهارة الصعبة وأن يلقى بالمسجد عروضاً دينية حول الألوهية والأنبياء وصلاح الإسلام الذين لا يحسم إحصاء ومعرفة عناصر من التشريع الإسلامي على الأهل وإقامة الناس في المسجد والمشورة في الجائز وقراءة بعض الآيات القرآنية بمعية الفقهاء الآخرين وأيضاً بعض الأسماح القنوية التي لها قيمتها بالحد. ويمكن لهذه الأمور أن تشمل أكثر الأوروبيين موهبة، مدة خمسة عشرة سنة تقريباً، دون أن يضعف ولو دقيقة واحدة.

إن معرفة العربية وحدها توزي معرفة أكثر من عشرين لغة وإليك المصحح على تلك. فدراسة الألب العربي تظهر من الأمور الصعبة، إلى درجة أن تشيوخ المتفكرين في اللغة، يعترفون صراحة بمجزهم عن مسابقة الحد الكبير من الألفاظ الجديدة التي يقولها في كل صفحة، ويضاف غياب الحركات وعلامات الوقف وغياب الكتابة بحروف كبيرة majuscules إلى قلبي المصحي لهذه اللغة، وهو القلبي الذي يتجاوز كل ما يمكن التمثيل الأكثر عطاء أن تعلم به. فحين نصاب بالذول أستم رقم 12 مليون و 305 ألف و 412 كلمة التي يشتملها القاموس العربي. كما أن المترجمات لا تعد ولا تحصى تقريباً. وقد صنف الباحث المجتهد دوجلر De Hammer ، 5744 كلمة ذات علاقة بالجميل Charneau. ووجد المعلم اللغوي فيروز أبادي ثمانين مرادفاً لكلمة صل وألف مرادف لكلمة سوف. كما أن كلمة مصيبة تشتمل على أكثر من 400 مرادف. ويمكن التلميح في اللغة Philologue أن يولف كتاباً حول أسماء الأسد التي يبلغ عددها 500. وقد كانت مرادفات كلمة ثمانين التي بلغ عددها 200، موضوع بحث أحد المؤلفين بالإحصائيات. ولا يلف الأمر عدد هذا الحد، إذ تصل صعوبة هذه الدراسة إلى ذروتها عبر تضمن كل كلمة اسماء جديدة ومتكافئة. وكأن عقوبة جهنمية وجدت ممتتها في جعل هذه اللغة عبارة عن لغز أبدي. ومعلوم أن محاولة تجميع كل لهجات شبه الجزيرة العربية، في قاموس واحد، قد تسببت في حدوث القوضى.

ولا تتوفر العربية الفارسية على القلي المسير للأدب، لكنها تقدم مع ذلك وفرة من المترادفات، ربما لا توجد بنفس الدرجة في أية لهجة أخرى. ومنذ حوالي ربع قرن من دراستي لها، استطعت أن أدرك بأن كل كلمة من كلمات العربية الفارسية تتضمن في المحل ثلاثة مرادفات. وإذا أضفنا إلى ذلك الجمع غير القياسي Pluriel irrégulier، الذي يشكل غياب شبه بينه وبين مفرده تقريباً، كلمات جديدة يتعين فهمها، فإننا منحصل على مت كلمات يجب معرفتها، بالنسبة لكل كلمة مقابلة في الفرنسية مثلاً. ونشير أيضاً إلى ضرورة تبيين الطفرة للتعود على النطق العثن الذي لا تعرف حقه لغتها الأوروبية شيئاً. لذلك كله، يمكننا تصور المجهود الذي



يجب بذله فتتكم بالعربية مثل العربي. وليس غريبا أن نرى القليل من الأوروبيين فقط من يستطيعون التحدث بأكثر اللهجات إثارة للإعجاب، وكتبتهم بشكل ملائم.

والأني مقتنع بأن القليل القليل سيتهي بنا إلى بلوغ مستوى العرب المتكلمين على الأقل، وهذا أمر جميل في حد ذاته، فلأني أسمح لنفسي بالإفصاح عن أمنية تتعلق بالدراسات العربية التي عرفت الإقبال بفرنسا وبالجزائر. فلتقدم الدولة من أجلها أكبر التسهيلات، لأننا سنكسب عن طريقها حب العرب والمسلمين في العالم أجمع، وستعرف على نمط تفكير المجتمع المصري وعلى رعايته، لأن مساعدة هذا المجتمع لنا، تعتبر بالغة الأهمية. وللتطبيق وصية رسول الإسلام إلى أتباعه والتي جاء فيها: « من علم ناسا قوم لمن من كفرهم ». ففي المغرب، تفكير المعرفة الجديدة بالعربية ككافة. وفي المناطق التي يسيطر عليها الأمازيغ، وهي مناطق عديدة يجب علينا أن نضيف إلى العربية لهجة أمازيغية مغربية أو جزائرية، ويمكننا أن نعلم بكل جرأة داخل كل جزء من المغرب، متكررين في زي طلاب مجتهدين، مستعدين مسبقا للتعب والحرمان، مع الاحتراس من أية توصية، كهنا كان مصدرها.

وانتم أيها الفرنسيون الشباب المقبولون على السفر إلى المغرب، عليكم أن تستحضروا دائما هذه الحقيقة التي تم تجاهلها لمدة طويلة: وهي أن كل المكتشفين الأوروبيين قد انطلقوا وسيفشلون في العالم الإسلامي، بسبب جهلهم بلغة العربية. ونحن لا نريد هذا القليل من شأن أولئك الذين نعرفنا بواسطتهم على جزء واحد من ألف، من أرض المغرب؛ ولكننا نؤكد بأن لا واحد منهم، بما فهمه صاحب الاسم المستعار: علي باي باديا لياش<sup>9</sup>، كان مستعدا للتحدث بطلاقة، بهذه اللغة المحبطة التي تهبث اليأس أو الفرح في نفس كل من يريد التعمق فيها. فلا واحد منهم اخترق جهودي، بعيدا عن الطرق المرسومة من طرف الحمار Hammar (وهي القفلة المحروسة من طرف الجنود الصغارية).

ولأنهم كانوا محبين ومختبرين وعشرين التشبهات وغير مستوحيين بالمعلومات التي كانوا يوصلون بها والتي كانت خاطئة في الغالب وأيضا ملزمين بالتباعد المسالك المفروضة عليهم، فإن هؤلاء الشجعان، كانوا مع ذلك، يفلحون كل هذه المحطات، وقد أدى بعضهم حياته ثما لهذه المجازفة المتطورة.

إن السفر إلى بلاد نجهل لغته معناه السفر مثل الأعمى - الأعمى. فما هي المعلومات والمعارف التي يمكن أن يجنيها مكتشف بجوب البلاد دون التمكن من التفاعل مع السكان؟ إنه إن

<sup>9</sup> - كان مجبرا على أن يقدم نفسه كزكريا التيرير وطائفة. وكان قد تلقى تدريبا لغويا إلى حد ما، لتأهيله بالتفاهة إلى أرض العرب.

يستطيع أبداً تسخير ما يراه ولا ضبط الكل مما يقل له. فبالى جانب بعض الفلاسفة التي  
مبتدئة. ستكون هناك مفاهيم خاطئة وأحكام مشوهة، ولدينا عينات منها في الوثائق العاقبة.

طبعاً، إن المغرب قد تقدم إلى حد الآن نظرات فضولية لأوروبيين. وذلك لأسباب  
التي عرفناها من قبل. ومنذ طفولتي، فإن فضول معرفة الجار الذي يشاركنا مئات الكلمات  
من الحدود، كان يذرفني بشكل لا يتصور. وأزّ من سقط رأسي بتلسن، على بعد خطوات من  
الحدود المغربية، فإني تربيت وترعرعت تحت تأثير فكرتين لم أكون عن استحضارهما إلى  
يومنا هذا وهما: معرفة جارنا الغريب وإبراجه داخل مجال التفكير الفرنسي.

وخلالاً من هذا الهدف المزيج، شرعت منذ سنوات في دراسة العربية والأمازيغية.  
وتشكل الأعمال التي نشرتها حول هاتين اللغتين مراحل تعليمي مكتمل كترجيها. ولأني أرحب  
في ضبط الأمور معكراً بله لا يوجد مكتشف لأوروبي مثلك، قبل دخوله إلى المغرب، مثابة  
فبحث تلك والطول قصير، فقد تلمعت بنون كثر، المهمة التي فرضتها علي المعرفة الحقيقية  
باللسان وأشباه الإمبراطورية الشريفة والتي سطرستها لاحقاً، على كل من يريد كشف الغز  
المحيط بهذا البلد الغريب.

ولم أتردد لحظة في ربط علاقة صداقة مع العديد من المغاربة، عرباً و أمازيغ، متعلمين  
وجاهلين، والذين لم يملأوا علي بما يعرفون عن بلادهم وما يفكرون فيه، معتقدين بأنني مسلم.  
ومن أعلى إلى أسفل درجات السلم الاجتماعي المغربي، اكتسبت أصدقاء حقيقيين، طلبوا علي في  
كثير من الأحيان لتخلي عن خدمة النصارى والهجرة إلى جنة الإسلام هناك، حيث العربية  
والحياة السهلة. فالتأثير الذي تمارسه المعرفة المصحقة إلى حد ما بالأدب وبلفظة العربية على  
المسلمين، يكون له بعداً وقع شعري لا يقلوم. والمسلم الأكثر معكراً ( وكل المسلمين كذلك)،  
سيروج بكل شيء، مثل الطفل، للطلاب الأوروبي الذي يستحق هذا الاسم حقاً والذي يدرى كيف  
يطرح عليه الأسئلة. ومع ذلك، فلما لم أبح بسري لأي أحد، فقد احتفظت به نفسي حتى اليوم  
الذي حصلت فيه على مهمتي، واعتبرت نفسي مستعداً بما فيه الكفاية لقول بهذا السر. آنذاك  
فتحت إلى القضاة الجسد الذي ارتكبه، بعدم التماس حسنة شخصية نقدت. وطلب مني عالم من  
باريس، وهو شخص فريد الذي أعرفه جيداً وأبوح له بأسراري، بالتخلي عن مهمتي، مبدئياً  
كيف أن العديد من المحققين أنفسهم لا يحصلون علي شيء، لأن هناك من حظي بقرينة عليهم.  
وبالتفصيل فقد أجهضت إرادتي في القيام بطلب رسمي بمهمة أو برعاية ما. هكذا، فإني كمشغل  
مضبور، يوجد بعيداً عن مدينة الأنوار ( باريس ) بمئات الكيلومترات وغير مستعد بطبعي  
للتخاطر في الممارسات المنفرة التي تقتضيها مهمة المداخ، لم أجد على الاضطرار بزمرة لوقت

الذين يترهبون بخضوع، في قاعات الانتظار، إشارات من متنفذي هذا الزمن. فهل يتوجب على  
التخلي مع ذلك عن حلم حياتي؟ وهل سيضيع مجهود السنوات القارطة إلى الأبد، ما دام قد أصبح  
بفضل ظروف غير متوقعة، بدون هدف ولا موضوع؟

إن نساء الغالين Gaulois القدامى التي تجري في عروقي لا تتوافق أبدا مع المنصب  
الجري العزيز على الكسالى. سيستحيل على الذهاب إلى المغرب؟ قلبي. غير أن هناك مسلمين  
قاموا بزيارته. ففي كل يوم، هناك حركة ذهاب وإياب إلى وعن المغرب. وهنا برز أملبي الحل  
شبه لتمام للمشاكل المطروح باستمرار والذي ألغىه كما يلي: إن معرفة المغرب وجعله معروفا  
من طرف الآخرين، بشكل ممتاز وربما أفضل مما لو قمت بزيارته بنفسه، قد يتم بفضل  
تصريحات المفارقة والرحالة المسلمين الآخرين. وعلى الفور، شرعت في العمل وحدها، دون  
معونة أي أحد ودون أي دعم كهنا كان نوعه، مستغلا كل وقتي بما في ذلك عطلاتي وكل أولئك  
الفراغ التي تسمح بها خدمتي المزدوجة والمضنية التي طالبت الإعطاء منها، بدون جدوى. هكذا،  
سينجز هذا العمل على مدى عدة سنوات، وهو العمل الذي فرضته على نفسي، من أجل بلدي  
ومن أجل العلم، والذي يشبه مجهود ثور الفلاح.

والآن، ولما أعلن المسار الذي قطعته والعمل الضخم الذي أصبح مجسدا على أوروحي،  
منتظرا الترتيبات النهائية، فإني أتناول عن الاستقبال الذي سيخصصه المعاصرون لي ( ولما  
أصد هنا المتشككين والمتهمكين )، لعمل سيكشف عن الحياة الحميمة وعن عادات والتقاليد شعب  
عظيم. وسيبرز لهم مواطن أرض مجهولة لديهم.

طبعاً، فلما لم أكتب من أجل هؤلاء، بل من أجل ذوي النفوس الأبية، الذين لا زلوا  
يؤمنون بالوطن والأخوة الممكنة بين البشر والتسامح والطيبة بشكل عام، وأخيراً من أجل خالق  
المغرب وخالق كل البلدان والكواكب.

وفي اللحظات العرجة من صلي، وخلال لحظات اليأس والقنوط من الألفية الفائرة  
والمستعصمة التي تميز عصرنا، هناك شخص واحد دعمني عبر إيمانه القوي بفائدة أعماله، وهو  
صداقته الثابتة وحسه السليم والعقيد، إنها المرأة التي تحمل اسمي، أم أطفالي المحبوبين والتي  
أحيى هنا وجودها كقنبول المكرس كلية لأزواجها ولتعليم وتربية أبنائها ولبيتها. وإن أكف عن شكر  
من يعلم بسرنا، وهو الذي جعلني ألقى في هذا العالم القديس بالرفقة التي حملت بها منذ  
الصفرة، ربة البيت الحقيقية كما لهما وكما يجب أن تكون في كل ربوع فرنسا العزيزة علينا  
وكما ينبغي بالتأكيد، حينما تزول أهواء الأشياء السطحية.

بني سائر بسرعة على الاتصال المتعلقة بهدفي وتطبيقاتي الفريدة مع أسسنا  
الغريبة، ولما دلتنا الطويلة والقطع الفريدة البيضاء المتتالية لمكافئهم، وواقعهم الذي خصصوه لي  
والمعلومات التي انجموا والتي تتواجد بين نظري هذا الكتاب، دون إشارة إلى اسم الرحالة، لأنني  
إن لم أكون ثقة هؤلاء الناس البواسل الذين توسلوا إلي بعدم ذكر أسمائهم.

وكيفما كان الحال، فلن تصرّحتهم بغير محتويات بالمقارنة مع العلاقة التي ربطتني  
برجل تعرفت عليه بفضل الطفلة الإيطالية، رجل سمح لي بعد تردد يفهمه من يعرف النظام  
المتعصبين، بكتابة اسمه بالأحرف البارزة، وهو ما أقوم به الآن، لأن محمد بن الطيب كان  
منطقي، فهدونه لم يكن باستطاعتي نشر ولو جزء واحد من الملة من هذه الوثائق، ولربما لم يكن  
بإمكانني كتابة أي شيء عن المغرب، بل إن المطومات المقدمة من طرف الرحالة المسلمين  
الأخرين، ستكون ضئيلة ونافسة وعديمة الأهمية، تستحق الإحراق بدل النشر.

إن محمد بن الطيب هو نموذج الرحالة الفادر. ولم تكن أوقع ظهور علي هذا الرجل  
المناسب من قبل، إلى أن أخبرت عنه بمحض الصدفة في الأيام الأخيرة من سنة 1893. في  
إحدى الأسبوعيات قال لي أحد الصغرى وهو جزائري مسلم أقام بالمغرب خمس سنوات وروى لي  
كل ما يعرفه عن هذا البلاد، وكنت قد كلفته بمهمة اكتشاف الرجل الفادر الذي أبحث عنه: "لقد  
وصل إلى وهران طالب رث الثياب، على هيئة درويش مختل الطفل شيئا ما ويدهي معرفة  
صيفة بالمغرب". ولم يكن هذا الصغرى يدري بأنه قد وضع يده على مكتشف رائع، سمح لنا  
أخيرا بكشف النقاب الذي يخفي قرون عدة، هذه الإمبراطورية المنسية. وكان من اللازم اكتمال  
الحيلة لاستخراج هذا الطالب الشديد الحذر، إلى مقر إقامتي، وبعد افتتاحه بأني أديب مسلم، تالة  
وسط الفسري، وهو ما كلفته له طيما، حزم على زيارتي مساء أحد الأيام، بعد انتهائي من إلقاء  
درسي، في إطار كرسي العربية الذي أشرته. وقد حماء ظلام قليل من أنظار أبناء ملته  
المتعصبين الذين كان يخشى شرهم. وكان الرجل الذي تعرفت عليه في مساء من أسبوعيات شهر  
يناير 1894، بلبس جلبابا طويلا من الصوف الأبيض بالكلام قصيرة؛ وكان مغطى الرأس، ذا  
لحية شقراء لامعة ووجه نحيل بعض الشيء بفعل المشي والحرمان، إلا أنه كان يشبه بشكل  
مثير، صور المسيح المكونة لثينا، بيمين زرقاوين لا يرفعهما إلا لماما، وكلاهما مثبتان على أفه  
ولحيته، وبمشية مائلة ومترنحة وكان نحيفا خيرا شين.

وبالفعل، لقد كان يبدو كدرويش مختل عبقيا إلى حد ما، لكنه مسلم. وسرى كيف أنه  
تظاهر بهذا الشكل كي يثير شفقة من يرونه، ويهر دون إثارة انتباه أحد، أينما حل وارتحل، وهو  
كثير احتياطي محتار خصوصا بالمغرب. وعند أولى الكلمات التي تطلقت بهاء انتبه إلى جودة

ورفع عليه بلعاهي، مظهرا قبحه بسماع حديثي عن الدين الإسلامي والرسول وكبر  
الشخصيات في الإسلام. وظل يسعني وهو واقف حينئذ عن دهشته، من فكرة لأخرى، ورأى  
يديه نحو السماء منتعما: "الله أكبر الذي هدى رجلا مثل هذا إلى الطريق المستقيم (أي  
الإسلام)".

وهكذا تولدت الألفة بيننا. لكن دهشة هذا الرجل ستعظم حينما سأقول له فجأة ولادة  
زولوية Zouanous - لأنني كنت أعلم عن طريق المعلم الجزائري المذكور بأنه يفتر  
بالأزليته: "Al asedh a rekkan sy ameddakoni ?" (هل ستكني غدا يا صديقي؟)  
وسصبح بالعربية: "لا. إنه لست نصرانيا.. أنت مسلم، عربي أو أمازيغي، لكنه لست روميا  
وقا لشهد بلذي لا إله إلا هو". وسيضيف بقبالية قحة: "azekkan ad asogh" (سأني  
هذا). وسكرر هذا القول وهو يضحك، مفتحا رأسه بالقلنسوة التي كان نصلها قد سقط على  
كتفيه، حينما رفع رأسه فجأة عند سماعه لحديثي بالأمازيغية مباشرة بعد حديثي بالعربية.

وفي ذلك، جاء الترويض في الموعد تماما. عندئذ بدأت سلسلة من الأسئلة والأجوبة  
وتحقيق طويل ونقي، سينتج عنه هذا الكتاب. ومن خلال الجلسات الطويلة، التي كانت في العادة  
تدوم ثمان ساعات في اليوم، تعرفت تدريجيا على هذا المعلم الجوال الذي اكتسب عادة السفر  
وحيدا، لحوالي من العشرة سفر جمعية طلبة آخرين، لزيارة مختلف الزوايا بتونس وبالعالم  
تسطنطينية. وبرجوعه إلى بجاية سقط رأسه، تابع دراسته الشرعية، دون أن يظن لأي أحد عن  
مشاريعه المستقبلية. ولما تلك المرحلة، بدأ يفكر في رحلة كبيرة إلى المغرب، بغرض تحقيق  
ثلاث رغبات شخصية وهي: رؤية البلد والابتعاد عن النصراني الممقوت وحضور دروس علماء  
فلس الذين كانت شهرتهم، السابغ فيها إلى حد ما، قائمة بعد الهيمنة السياسية والأدبية التي كانت  
لمغرب في ما مضى.

وفي صبيحة أحد الأيام من سنة 1872، سيخافر بجاية ومنزل الأسرة دون الإعلان عن  
ذلك، بل ودون توديع والديه الذين سيفقد أحدهما بعد ذلك. وقد كان عمره آنذاك ستة عشر أو  
سبعة عشر سنة تقريبا. هكذا، سيدير ظهره للشرق وسياخذ وجهة المغرب مشيا على الأقدام،  
خاليا لوفائس إلا من لوحة الدراسة، متلقيا من المحسنين، أينما حل، طعاما محدودا لكنه كاف،  
وسيقف بضمة أيام بمدينة الجزائر للتعرف عليها وللاسترخاء بها في نفس الوقت. لكن  
النصارى واليهود كانوا أكثر عددا في هذه المدينة منهم في بجاية، وسيتابع طريقه بمحاذاة البحر  
حتى لا يضل طريقه.

وبوهران وقع له حادث مزعج سيظهر بشكل تام من الجزائر التي كان فيها اليهود، حسب اعتقادهم، هم الأسود. فأحد هؤلاء الساميين Sémites المرفوق بثلاثة أو أربعة أشخاص من أبناء ملته، والذين كانوا جميعهم يرتدون الزي الأوروبي، سيترض طريق الطالب المتجول الذي كان متجهًا في مراقبة الحي الإسرائيلي. ويقول اليهودي الواقع للدرويش: "أنا صيد الشرطة، ناولتي أوراق تعريفك وإلا لكانت لك السمكة". وعلى الرغم من أن هذا الكلام قبل برطانية تملج فيها اليهودية بالفرنسية بالعربية وبالإسبانية والتي لا يعرف سرها إلا الإسرائيليون الأفارقة، فإن صيد الذي لم يكن يتوفر على رخصة الصيد القانونية، توجب ألحاح الحوالب وظن بأنه سيحسن لا محالة، معتقدا بأن ذلك المحتال صيد شرطة بالفعل. وكان في اليوم السابق قد جمع شيئًا من المال بفضل بعض المحسنين المسلمين، من أجل الإبحار إلى طنجة ولشراء بعض الزاد أثناء عبور البحر. ولتسوية لمشكل سيقتوح دفع اثنين دورو Dours، غير أن هذا الاقتراح سيرفض باعتقار.

وفي الأخير، سيغلب من قبضة صيد الشرطة المزيف، بالتخلي عن كل ما يملك من نقد أي ثلاث قطع من مئة فرن. وعندما طلب منه جواز السفر، معتقدا بأن ذلك من حقه، تلقى قطع الشكك من طرف ذلك اليهودي الصغير، الذي دفعه وصلحه وقتل الفرصة ليصيب وبها من الشكك على الرسول وعلى العرب بشكل عام.

وفي قرية الأهالي التي وصلها محمد في أسوأ حال، أخبره السكان بأنه كان ضحية نصب من طرف اليهود، وأن النصارى لا دخل لهم في القضية. ولم يكن بإمكانه الانتقال طبعًا، فلك كانت السفينة المتوجهة إلى طنجة تطلق صغرها. وكان السامية الممتقون للشركة المالكة للسفينة، يصرخون بأعلى صوته: "الهاور بلو وسط" (السفينة ستغرق)، ويدفون مجموعة من الريفيين الذين كان من المقرر أن يبحروا في نفس اليوم، باتجاه الساحل المغربي. وقد قدس محمد وسط الحشد ووجد نفسه وسط أمازيغيين، هم إخوان له في آخر المطاف، لأنه بهم تقريبا لهجتهم الخشنة. واستطاع أن يجلب صلف بعض النفوس المحسنة، من بين هؤلاء الجبلين الأشداء، الذين كانوا في طريق العودة إلى الريف، بعد رحلة شاقة إلى إقليم وهران، حيث حصنوا محاسيل مصرينا مقابل ثمن زهيد. هكذا سيهرع معهم، وستغادر السفينة التي كانت مملوءة من آخرها هؤلاء الريفيين الذين كانوا يرددون أمازيج بلدهم، ميناء وهران متجهة نحو الغرب. وعند مصب واد كيس Kis، ادعى قبطان السفينة حصوله على ميكافكي سيؤدي إلى التوقف لعدة أيام. وقد جزع المغاربة من فكرة بقائهم بدون طعام ولا شراب على ظهر السفينة التي لم تكن تتوفر على المؤونة الكافية. لذا، سيطلبون من القبطان إزفهم على الساحل

الجزائري، شريطة أن يحصلهم تكية حالما يصلح الطلب. وسيقبل القبطان هذا المقترح على الفور، لأنه كان يتخوف من قدلاع تمرد على ظهر سفناته. ولربما كان قد أعطى أوامر سرية للبحارة المكثفين باستعمال الزوارق، ليكولوا مستعدين لأي طارئ. وكيفما كان الحال، فإن 'أشبه' الفرقى ' هؤلاء سينزلون بالأرض المغربية، وهو الأمر الذي سيتركون منه عند رؤيتهم لجماع من الأهالي المسلحين الذين سيأمروهم بالعودة من حيث أتوا. ولقاء رجوعهم، تحركت السفينة التي أصلاح طلبها، ولأن مقدمها Proue كان موجها نحو الشرق، فقد أثارت أمواجها من الزبد الأبيض وفوران المياه. وانهضت صيحات الاستكثار والغضب من الشاطئ أمام هذا الهروب المتسدد، إذ فضلا عن ثمن المفر الذي تم خسارته، وجب التوجه إلى الريف مشيا على الأقدام، وسط قبائل إن لم تكن معادية، فهي على الأقل مستعدة لابتزاز الغرباء العاملين للتمل. وقد حصل تطلق جماعي على التوجه إلى وجدة مشيا بمحاذاة الحدود الفرنسية. وكانت المجموعة مكونة من ألف رجل، لذلك لم تشر بأي انزعاج وبلغت وجدة دون مشاكل.

هكذا، سبدا بالنسبة لمحمد بن الطيب، حياة الطالب المشرود الثالثة، عبر المساحة الخامسة المغرب والتي سيقطعها من كل الجهات، مدة اثنتي وعشرين سنة، حيث كان ينال وبائل بالمساجد، مع الطلبة الآخرين الذين كان إحسان السكان الدائم، يخدمهم ويكسبهم لمصروفات جديدة، دون التساؤل عن هوية الوافد الجديد ومن أين أتى وإلى أين هو ذاهب. لقد كان التدريس إن، من أكثر الرحالة المؤملين لاكتشاف هذا البلد. فهو من أصل قبائلي، والأمازيغية هي لغته الأم، بحيث ستكون له منفذا بشكل كبير، في هذا البلد الذي لم تكن فيه اللغة العربية هي المهيمنة. وبفضل معرفته الجيدة باللهجة القبايلية ليجالية، فإنه سيستقبل كأخ في الريف، هذا البلد المتوحش شبه المجهول والذي سيتمكن من اكتشافه خطوة خطوة، باطمئنان وإصطلاحا الوصف الوحيد المتوفر حاليا. وبفضل العربية والأمازيغية، سيتفطل في أعماق منطقة البرابر Braher، هناك حيث لم يسبق لأي أحد أن وضع أرجله. وسيكون مظهره ككرويش بنيس. أفضل ترخيص له، ولم يكن له شيء آخر غير ذلك.

لقد كان يجوب البلاد، مدفوعا بقوة القاهرة لا يتركها هو نفسه، حيث لم يكن يستقر بمكان محدد، لأنه كان يرغب في رؤية مناطق جديدة وأماكن جدد وعادات جديدة، ولم يكن يدون أية ملاحظة، بل كان يسجل ذلك في أروع مذكرة جغرافية يمكن أن يجدها المرء. وسيبدأ هذا الاكتشاف دون توقف أو راحة سنة 1872، لينتهي سنة 1893. وكما أشرت من قبل، فقد تلقينا ببعض الصنفه التي أرجعناها معا إلى الحنية الإلهية. ولسوء الحظ، فإن هذا التدريس لم يفر برحلات لكي يرويه، فبالأحرى لنيدولها ورغم إلحاحي الشديد، لم أتمكن من التظلم على الرعب

الذي يملكه من الكتابة، وكان يستعمل على نفسه إلى تكوين ولو حرف واحد بيده. مرة واحدة، رأته يخرش بسرعة على ورقة بيضاء بقلية. وبذل الحبر والمدواة، كان يستعمل بصفة نهية، بنفس فيها ريشته القصية، يرسم على الورق بعض الحروف اللامرئية. وكان الأمر يتعلق بشيعة ضد صنادع الرأس، يضعها على شعر رأسه الخفيف، الذي كان شكله القوضوي ورقته يشير إلى أن المشط والسطور لم يمتد منه أبدا. وهذا الاحتقار للنظافة الذي دفع به للدويش إلى قصي الحدود، كان أن يكون وبالا على حقيقته في القرب، حيث أدرك الأهالي بأنه يؤدي سلوكه المتطرفة دون اللجوء إلى قواعد الموضوع المحددة شرعا. وجب على إذن، أن استسلم لهذا العمل المزدوج والشاق، المتعب حققة إذا ما أتركنا بأن الأمر يتعلق بموضوع شاسع وجديد كل الجدة.

المطلوب هو الكتابة والاستعمال: الكتابة باستمرار والاستعمال بلا هوادة. ولم يكن الدويش يشك في القيمة التي ستكتسبها اكتشافاته، وهو الذي لا يعرف كلمة فرنسية واحدة ولم يسبق له أن قرأ رحلة مروية، كما أن معارفه الأدبية لم تخرج عن الإطار القرآني؛ لذلك سيدفعه حبه السليم إلى الخضوع للتوجيه. فقد يبدو له عنصر جزلي قليل الأهمية، لكنه يعتبر مهما بالنسبة لي. وقد يبدو له حدث آخر مثيرا للاهتمام، لكنه يبدو لنا نحن الأوروبيين سخيفا. غير أن هذا الرجل كان يتوافر على جغرافية المغرب في رأسه؛ وفي ذلك المكان بلذات كنت أبحث عنها، فهناك كنت ألقب لكي أخرج من هذه الذاكرة الرائعة مئات الأسماء للقرى والقبائل والوديان والجبال التي طعمنا بها العلم؛ هناك تطبعت في الذاكرة، كل من العادات والتصرفات والأعراف والتقاليد والسلالات واللغات والسكان والقوى العسكرية والثروات الخفية والزراعية والمعدنية. وفي سالفم عنها لمحة دقيقة ومتقنة، بحسب ما يسمح به قلبي المتواضع .

أكيد أنه لم يكن باستطاعتي رؤية المغرب في جميع تفصيله، بنفس رؤية رحالنا. وأعترف بدون مواربة، بأن طبيعتي لم تكن تسمح لي بتحمل دور القديس الجوال الذي لعبه هذا الدويش مدة اثنتي وعشرين سنة، دون كلل. فميزته الثلاثية، كمتسول وكطبيب وكدويش، سمحت له برؤية كل طبقات المجتمع تقريبا؛ إذ أن النوم في العراء وفي القصور أو داخل كوخ مليء بالزجاج لم يكن يهيمه بتاتا. كما أن مواجهة كل أشكال البؤس والأمراض والقتلح الجسدية والمعنوية، لم تكن تؤثر فيه ولم تكن تثير استمزازمه. ومواء كان الطعام الذي يتناوله جيدا أو رديئا، فاهرا أو غير كاف، أو غير موجود، مما قد يؤدي به إلى الصيام لفترة طويلة، فإن ذلك لم يكن يثني عزم هذا الشخص الذي خلق كي يتجول في بلد إسلامي. وكطبيب، فقد كان بإمكانه الانسجام داخل كل المجتمعات دون إثارة الشبهات؛ وكان يترك المتسولين ليوذهب إلى قصر،



وبفائدة هذا الأخير يعود ثانية إلى عالم الدرويش. وكثير من رحلاته، فقد كان بإمكانه التقرب من كبار قبائل الراعيين دوماً في سماع أخبار الرحلات واكتساب معلومات دقيقة إلى حد ما، حول بلد يصعب التعرف عليه. وكالدرويش، فإنه كان ينسل في كل مكان، في المساجد ودخل منازل المسلمين بل وحتى داخل الخيول، لأن ابن الطيب كان يضع نفسه فوق الأحكام المسبقة واقتصب الضيق لأبناء ملته. ولأنه كان مدفوعاً بفضول طبيعي، لم يجد العرب يمتلكونه في أيامنا هذه، لكن لا زال الأمازيغيون يتفرون عليه بدرجة كبيرة، فقد كان يدرس الناس والأشياء، ليس بدافع غرور أدبي، بل فقط من أجل تلبية رغبته الملحة في السفر، لأنه لم يكن يشك في أنه سيأتي يوم، سيروي فيه كل ما رآه فنصراني يعرف كيف يحل عقدة لسانه.

وهذا نسل إلى نقطة حرجية. فهل نصب على هذا الدرويش؟ إليكم جوابي: لقد كنت كل مرة لأراقب هؤلاء هذا الرجل كلما تيسر لي ذلك. وكان مذات المغاربة يؤكدون لي ما أقمه من معلومات، كاشفاً مطلقين. كما أنهم قدموا لي معلومات إضافية، علمت لي بما بعد، على إدراجها ضمن الحصة الوفرة التي أنجزها رحلتنا عن المغرب. ولم يسبق لي أن ضبطت هذا الرجل متلبساً بجريمة الكذب. وقد كنت في بعض الأحيان أتنسلى بمساعلاته فجأة حول بعض القرى النائية بالبرابر Hrabar، بالريف وبجبال الخ... وكان يجيبني مباشرة، ذاكرًا لي القبيلة وأصلها والمكان بالضبط الذي توجد فيه والذي سبق لي أن حددته بصعوبة، على الخرائط. ولم يكن هذا الدرويش الضعيف البصر مستعداً لمساعدتي بهذا الخصوص، فقد كان يرفض بتكاً رسم خط أو كلمة، لأنه لم يسبق له أن رأى خريطة في حياته. وكنت مضطراً، لكي أضبط خريطة، بأن أطره بالأسئلة حول الجهات الأربع ومجاري النديان والجبال والمسافات والمدن والقرى الصغيرة، وبإقتصار كان علي أن أعيد من جديد وبمشقة، العمل المتعلق بكل قبيلة على حدة. ولأنني متقل بخدمتي المزدوجة كأستاذ كرسي بالجامعة والثلثوي وكمهتم بهذا المشروع، فقد شعرت لحظة بأن قواي ستفونني وبأنني لن أتمكن أبداً من إتمام مهمتي. وفي لحظات الضعف هاته، قمت بالعمل بعماس أكثر، وقد أحسنت فعلاً، لأنني لاحظت بأن الدرويش نفسه بدأ يشعر بالوهن. لعدم تحركه لمدة سنة، رغم الامتيازات المالية التي حققها، أثر كثيراً على عرقته كرجال متعود على الضمانات الشاسعة. أضف إلى ذلك، أن معرفته بالأجزاء الجنوبية للمغرب، كانت تشوبها غفلة، مما استدعى القيام ببحث إضافي وبسفر جديد. وبتاريخ 30 يناير 1895 وضعت قلم أظفرا. فقد زودني هذا الرجل بكل ما يعرف ولم يبق لديه ما يضيفه. وقد منحه جواز سفر وساعده على العودة إلى المغرب على نفقتي، مع تعليمات خاصة أعطيتها له وأنا واثق من أنه سيجزها إذا ما تمكن من الخروج سالماً من الجحيم المغربي. ومنذ تلك الفترة، لم

لقد أخبره سوى مرة واحدة. فهل سأراه مرة أخرى؟ اعتقد ذلك، وأتمنى من الذي حفظه على مدى اثنين وعشرين سنة، ألا يتخلى عنه في هذه الرحلة الأخيرة.

وبينما يراكم الدرويش الذي عاد إلى حياة التجوال، الكلوامترات ويتمشى في الفضاء الواسع ويجد نفسه من جديد في بلد كل الحريات، أنزل من جهتي منطلقا في حجرة الرهبان التي اخترتها لنفسى، في مواجهة الوثائق الكثيرة التي أتوفر عليها، ساعيا إلى كتابة المجلد الأول من سلسلة من الكتب التي يعلم الله متى ستوقف. فلما تقدمت بخطه دخلت هذه الإمبراطورية الصعبة المنال. وكلما تقدمت، كلما أدركت حقيقة كلمات لفستون كوتل: « اعتقد بأن من الأفضل لي أن أقطع القارة الإفريقية من جديد، بدل نشر مجلد ثانٍ؛ إذ أنه من الأسهل القيام برحلة بدل كتابة تفاصيلها ».

وتوجد كل ملاحظاتي بالعربية، وبعضها موجود بالأمازيغية. ويتميز على تنظيمها وتلقيحها وحذف التلويل والتكرارات وتصحيح الأخطاء. ولغويا الكتابة بالفرنسية، أي القيام بتكوين جديد بلغتنا لما سبق أن غلطته في لغتين محليتين مخالفتين بجهلها للأسف أغلب الأوروبيين. وقد كان من الممكن، لو أن إمكانياتي سمحت بذلك، أن يقدم نشر مخطوطي بالعربية، خدمات كبيرة ولغوية لأولئك الذين يربحون في اكتشاف بلد إسلامي مثل المغرب. كما أن العربية الدارجة المتحدث عنها في هذه الربوع، كانت موضوع بحثي المستمر. وأظن بأنني أوردت في الجزء غير المنشور من عملي، كل العبارات المغربية المستعملة تقريبا، والتي تعتبر معرفتها ضرورية بالنسبة لكل من يريد السفر إلى هذا البلد دون إثارة الانتباه. ومع ذلك، فلما أن أنفدني عن الأمل في إصدار بعض المقاطع من هذا المخطوط، في مرحلة لاحقة ربما، وبالقلي عدم إحراق الجزء الذي يبدو لي أكثر إفادة بالنسبة لجنودنا وتجارنا ورحالتنا.

ولما أصبح النسخ المطبوعة من هذه الصفحات، وصلتني ثلاث رسائل من الدرويش تباعا، وهي رسائل مكتوبة بالعربية. وقد توصلت بالأولى، بفضل مسلم وهراني تسلمها من ريفيا وكانت الرسالة الثانية تحمل طابع بريد طنجة، أما الثالثة فقد أرسلت من بريد المراكش. وكل واحدة منها، مكتوبة بخط مختلف، وهو ما يؤكد بأن رحلاتنا لا زال مصرا على عدم حمل القلم، فضلا إتمام رسالته. وقد لاحظت ذلك من خلال الترددات والتلميحات التي لا يمكن لأحد إدراكها سواها. ولربما اعتقد الطلبة الذين كتبوا هذه الرسائل، بأن هذا الرجل الذي يملئ عليهم خطابا تهيبيا غير مفهوم، هو إنسان مختلف عقليا.

ولا زالت ألقى بعض الأفكار المتفرقة من محمد بن الطيب السريع الخطوات. ففي مارس المنصرم كتبني بالأمازيغية من كورارة، مشيرا إلى وجود وحدة استطلاع مكونة من ضباط

فرنسيين، في قلب الصحراء. والآن، ها هو موجود بالعراقش، حيث يستعد للنزول إلى منطقة  
سوس التي ينوي عبورها من الغرب إلى الشرق. وكانت أولى الرسائل الثلاث والمؤرخة بـ (الريف)  
(الريف) قد وصلتني متأخرة. إذ أن الريفي الذي حملها، كان قد أجل سفره إلى وهران ببضعة  
أيام.

فإنك أيها الرحلة الجريء الذي يحتبره الجميع مجنوناً، أقول أحسنت! أنت الذي خدمت  
فرنسا رغم عدم تفكك في قدرتك بعض الشيء، أقول أحسنت! ثلاث مرات أقولها! فلتفتح  
مشوارك داخل هذه الإمبراطورية الفاسضة، أنت أيها المحتاج العظيم.

أؤكد أن الوطن الكبير سيفكر فيك، وأنا الضامن لذلك، حينما يرغم السن والعمامات،  
صناعات الصبغة على الاستراحة، بعد أن أنهكها العمل لصالح هذا الوطن.. ولصالح قضية  
جميلة ونبيلة.

لوجست موليراس

## المغرب المجهول

- مقدمة
- تأملات عامة حول المغرب
- إقليم المغرب
- الاسم الحقيقي للمغرب
- الأعراق
- الأمازيغ
- العرب
- الزنوج واليهود
- ثروات وسكان المغرب
- الدور الموكول لفرنسا في الشمال الغربي لإفريقيا.

## مقدمة

### تأملات علمية حول المغرب

إن وصف المغرب الذي شرع فيه الآن عبر هذا المجلد الأول، قد تم انطلاقاً من الملاحظات المباشرة ودون اللجوء إلى الكتاب. ولأنني لم أتعلم على أي مؤلف، فإني إن استشهد بأي واحد، فكل المعلومات التي أكتبها تكون جديدة تماماً ولم يسبق نشرها. ولقد استقيتها، كما قلت سابقاً، من رحلة مسلمين لم يخفوا على أي شيء، معتقدين بأنني واحد منهم. وستكون لغير مكافأة بالنسبة لي هي أن تنفع فرنسا بهذا العمل، إذا ما كان مفيداً لها.

ولأن المغرب يظهر مجهولاً تقريباً، وذلك للأسباب التي عرضتها في المقدمة، فإني أعتد أن تبقى إلى ما لا نهاية، أسرى هذا الجهل الذي لا يشرف في شيء. قرن الاكتشافات العظيم هذا لا أعتقد. ولذلك، بالرغم من عظمة المهمة وصعوبتها، وبالرغم من الفترات والفاصل التي تتطلب هذا الكتاب بكل تأكيد، فإني إن أتردد في التعامل هذا البلد الذي لم يكتشف بعد.

لقد مد لنا الدرويش يد، فاعتمد له يدنا أيضاً دون خوف، ولتقضم معه هذه الإمبراطورية المرحبة. فمع هذا المرشد وبرفقة أصدقائنا الآخرين من الرحالة المغاربة، فإنا إن نتيه وإن يتجرأ أحد على القول بأننا غرباء عن البلد. لكن ونحن ندخل هذا الأخير، لنندع الله مثلاً يدعوا المسلمون الذين يخطرطون في مغامرة خطيرة ونقل: " اللهم احفظنا من الأناب للخيبة للحاسدين والمطافين في ندمهم ".

## أقاليم المغرب

ما هو هذا البلد الجديد علينا؟ صحيح أن شواطئه معروفة بما فيه الكفاية؛ لكن داخله يظل قريبا في ظلمة شبه تامة منذ أن وجد العلم. ومع ذلك، توجد به ساكنة نشيطة، أثبتت حيويتها باستهلاكها على إسبانيا والاحتفاظ بها عدة قرون. وقد عرفت فترات من المجد في تاريخها، حيث نافست على مستوى القوة والأبهة، إمبراطورية خلفاء الشرق العظيمة. فما هو هذا البلد الذي لا يمكننا معرفته بعمق إلا في حالتين:

- 1 - إذا ما قامت قوة مسيحية بغزوه.
- 2 - إذا قرر المكتشفون تعلم العربية بشكل ملائم.<sup>10</sup>

يتشكل المغرب الشمالي من ثلاثة أقاليم:

- 1 - الريف: ويمتد على شواطئ المتوسط من إقليم وهران إلى القبلة البحرية لخمارة، غير بعيد عن شطالون (تطوان).<sup>11</sup>
  - 2 - جبال: جنوب الريف وتشغل كل الساحل المتوسطي، انطلاقا من الحدود الغربية لهذا الإقليم، بالإضافة إلى شريط بالساحل الشمالي للمحيط الأطلسي.
  - 3 - دائرة فاس: جنوب جبال، وتمتد من غرب وجدة إلى المحيط الأطلسي.
- ويضمّن وسط المغرب ثلاثة أقاليم:
- 1 - حول مراكش الذي تعدّه البرابر Braber شرقا والمحيط الأطلسي غربا.
  - 2 - البرابر، وهو إقليم هام يشمل قلب المغرب.
  - 3 - الدهرة، وتشكل الحدود الشرقية للمغرب، حيث تمتد على طول حدودنا الوهرانية من وجدة إلى فهيج.

وهناك أربعة أقاليم تعدّ المغرب جنوبا:

- 1 - سوس.

<sup>10</sup> - إنني مقتنع بأن الفرضية الأولى ستحقق قبل القوة.

<sup>11</sup> - يشبه كتابنا الأوروبيون باستمرار الكلمات العربية والأمازيغية. لذلك فلنا لمفرد بصريّة في كتابي، على التكوين الطبقي والملي للأسماء المغربية. حتى ولو اقتضى الأمر وضع الاسم المتيور المعروف في أوروبا، بين قوسين، إذ يجب النطق بكل حروف الكلمات العربية والأمازيغية.

2 - درعة.

3 - السقاية الصحراء.

4 - قصص الصحراء.

وهذا التقسيم معروف لدى المغاربة المتطمين، لكنه مجهول بأوروبا، وهو يقدم صورة جديدة عن هذه الإمبراطورية التي تبدو حسب خرائطنا مقبلة على فوضى وعلى اضطراب، لا مثل لهما في أي بلد آخر.

## الاسم الحقيقي للمغرب

كل الكتاب الأوروبيين، يؤكدون بقوة على أن المغربية لم يعطوا أي اسم لبلدهم.. وهذا أيضا خطأ بحسب على جهلهم باللغة العربية. أما الحقيقة فهي كما يلي:

إن المغربية يفتخرون بلدهم في مجموعه باللفظة المألوفة: الغرب. ويمتحنون لأنفسهم اسم مغاربة ومفرده مغربي. أما تسمية Maroc و Marocain ، فهي مجهولة لديهم تماما، إلا أن لفظة "ملوك Maroc" ، هي كلمة مشوكة بشكل فظيخ، نتعرف من خلالها بالكاد، على التعبير العربي لمرلكش، المدينة الرئيسية للإقليم الذي يحمل نفس الاسم.

وفي العربية الفصحى، نجد المغرب الأقصى كمقابل للفظ Maroc ، ويستخدم الأهل المتعلمون وحدهم هذه الصيغة أثناء حديثهم، لكنهم ينطقونها: ElMag'rib أو ( El Mug'rib (avec un i ) ، حتى لا يتم خلطها مع لفظ مشترك وهو El Mag'reb أو El Mug'reb ( المغرب، الذي يفيد غروب الشمس). ولم يتمكن العديد من المستشرقين الأوروبيين من وضع هذا التمييز، لأنهم كانوا يجهلون النطق الحقيقي للكلمتين.

وكيفما كان الحال، فعلى اعتبار أن كلمة El Mag'rib أو El Mug'rib (المغرب) لم تكن مستعملة إلا في العربية الفصحى أو من طرف بعض المتحلقين القلائل، فإنه لا مجال لانتباهنا على حساب اللفظة المألوفة وهي الغرب، التي يشير من خلالها، كل من المغربية والجزائريين المتعلمين والأميين، العرب والأمازيغ إلى المغرب Maroc . ويجب أن نحل تسمية الغرب التي يدرها استعمال مختلف سكان إفريقيا الشمالية، بما فيهم المغربية أنفسهم، محل اللفظة فهمية والغربية "ملوك Maroc" ، المثبتة في خرائطنا وجغرافيتنا.

وتلقبنا لمزيد من التعهد، ودون اعتبار للجمع في اللغة العربية، يتعين أن تكون كلمة  
مغربي Mr'arbi أو بالأحرى غربي، هي النقطة المحيرة عن عرق سكان المغرب برمتهم. وأنا لا  
أشك مع ذلك، في الصعوبات التي سببها هذه التعديلات الصحفية، إذ من الذي يستطيع مقاومة  
قرويين قوي والمغس؟

## الاعراق

لقد كثفت الأراضي الممتدة من الصحراء إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن المحيط  
الأطلسي إلى الحدود الومالية، منذ العصور القديمة الأولى، مهد شعوب يحاول التاريخ دون  
جدوى التفت إلى أصولها. ولأنه يتشكل من هضاب جبلية ومن سهول شاسعة ويحتل أعلى قمم  
الأطلس ويحيط به بحران عظيمان وتضيقه أكبر مجاري الأنهار بإفريقيا الشمالية، باستثناء النيل،  
فإن المغرب أنتج أو جذب إليه مبكرا، أعراقا نشطة ومخربة بشكل كبير.

## الأمزيغ

يوجد حاليا بالمغرب شعبان رئيسيان وهما: الأمزيغ والعرب. ومن المحتمل أن يكون  
الشعب الأول هو ساكن البلاد الأصلي، في حين أتى الشعب الثاني كغزاة.  
ولا يعرف أصل الأمزيغ، وربما ظل الأمر كذلك إلى الأبد. وقد شغلوا منذ زمن سحيق،  
كل تلك الجزء من إفريقيا الشمالية الممتد من الصحاري الليبية إلى المحيط الأطلسي ومن  
المتوسط إلى السودان.

إن المزيغ المغاربة الذين رأيتهم (الريف، سوس، مراكش، درعة)، هم على العموم  
أقصر قاما من العرب. فطولهم قريب إلى حد ما، من طول الفرنسيين. وتجعلهم خصائصهم  
الجسدية، شبيهين بأعراق جنوب أوروبا، مع ملامح صلبة أكثر بروزا مما هو عليه الأمر لدى  
القرويين الفرنسيين. أما خصائصهم الأخلاقية فلا تتميز كثيرا عن خصائص العرب الذين أخذوا  
عندهم تعصبتهم الدينية. وربما كان الأمزيغي لا يكذب بسهولة مثل العربي، إلا أنه يكذب مع ذلك،  
في غالب الأحيان. وهو لا يأخذ من التعاليم القرآنية سوى ما يتعلق بصوم رمضان، لكن ذلك لا  
يمنعه من أن يكون متعصبا مثل لبناء عقته في المقام بأسره.



وكمزق لا يروض، فإن الأمازيغ شكلوا منذ فجر تاريخهم، كابوسا للفزاة الذين أرادوا إخضاعهم. فكل من قرطاجيين والرومان والوندال والبيزنطيين والعرب والإسبان والأتراف، لم يحطوا بفترة هدوء مع هؤلاء الأعداء المهنددين لوجودهم باستمرار. وإذا ما كتبت فترة العظيمة لفرنسا حاليًا، قد تمكنت من السيطرة عليهم في الجزائر، فإنه في حالة ضعفها سبغت التمرد سواء لدى الأمازيغ أو لدى العرب. لذلك، فإن شعار الأمم الأوروبية التي تخضع هؤلاء الأعداء غير المتسامحين مع المسيحية هو: الصرامة القصوى والمداقة القصوى.

ويعتبر التفكير في إصالحهم بمثابة يوتوبيا لا يكثرثون بها أبدًا، فالمسلم يعتقد، بفعل دينه وتاريخه وحضارته الواقعية جدا، بأنه مطالب بنشر الدعوة وسط الشعوب، فلهذه نفس المشاريع التي وضعتها بشأنه. وهو يريد هذبتنا وأسلمتنا ودمجنا بالإقناع أو بالقوة. وقد حذت بالدهاشن، لكن دون اضطراب، بأن لدينا بشأنه مشاريع مشبهة. ولهذا فهو يقبل الصراع ويمتدح في الاعتقاد بأن الكتلة الإسلامية لن تمس وأن النصر النهائي حليفه. ومنذ أن عرف مخططاتنا أصبح أكثر مقاومة لممارستنا التمييزية.

إن الأمازيغي الجزائري بالخصوص، والذي وضعنا فيه آمالنا، أصبح محربا أكثر فأكثر، فهو يشارك مضطهديه القدامى الذين كانوا أيضا معتميه، نفس القضية. ومجمل القول، لقد كان مسلما وسخطا كذلك. فالاختراق العربي مارس عليه تأثيرا مفسدا إلى الحد الذي فقد فيه، أينما تم تعريبه، ليس فقط حب الوطن. بل فكرة هذا الأخير ذاته، وهي فكرة مقدسة شكلت أساس قوته وكانت شعرا له على مدى أربعة وعشرين قرنا من الصراعات الضارية ضد الشعوب الفظية. وكل ما في الأمر، أن حب سقط فرنسا قد حوّل لديه بالتمصّب، وهذا حاجز لا يمكننا الانتكاف حوله ولا اجتيازه.

أما الأمازيغ المغاربة الذين يفرق العرب وسطهم، فقد ظلوا إلى حد الآن، أمازيغ حقا وحقيقة، أي مرتبطين كثيرا بالأرض وبالمنطقة التي ولدوا بها.

إلا أن نزعتهم الوطنية لا تشمل كل المغرب في الواقع، فهي إلهية بالأساس ولا تنحصر أبداً من الحدود التي رسمتها الطبيعة أو الانتصارات، لأنفسهم القروية. ويساهم البحري الذي باستطاعته جمع كل هذه القوى الأمازيغية تحت راية واحدة، وهي القوى التي يجهل بعضها بعض ويشل بعضها بعضا، في خلق إمبراطورية قوية على أبواب أوروبا، يكون وزن ميلها ثقولا في ميزان الأمم.

ولا تعرف المسائل السياسية للأمازيغ ولا ميولاتهم الفكرية ولا تطوراتهم الاجتماعية، إلا بشكل يسير، نظرا للمعلومات الضئيلة والقصيدة، وهي معلومات مدونة من طرف أعدائهم

بصورة نية وجهل مغرطين. وأنا إن أبحث في ماضي هذا الشعب، فذلك لا يهمني. أما اليوم، فإن الأمازيغ يشكلون عرقاً متميزاً، ذكياً، شجاعاً ويتصفون بعقيدة أكثر صلابة من عقيدة العرب. وعادة ما يتم إرجاع ما أنجز من الأثنياء العظيمة والجميلة في كل بلاد الأمازيغ إلى الأجانب الذين جاؤوا كغزاة، لكن لننسى بأنه منذ بداية الاحتلال القرطاجي، فإن بلدان المغرب الأمازيغي كانت متوفرة على مدن آهلة بالسكان وغنية بشكل كبير، وكان الأجانب يدخلها بسهولة. ومما لا شك فيه أن سكان صيدا القديم، قد علموا الأمازيغ الشرقيين الذين علموا بحولهم الغربيين، بعض الصناعات الكيميائية مثل: صناعة الزجاج ونسج الأقمشة البانغة والكتبة الأبدية.<sup>12</sup>

غير أن الأمازيغ كفوا بتوفرهم، قبل هذه الغزوة الأولى، على حضارة جعلتهم أندادا للتجار الفينيقيين. ولربما كانت المدن المهدمة التي حددت لي أطلالها الهامة في قلب إقليم البرابر، سابقة على المرحلة القرطاجية والرومانية، ويدعوها سكان المنطقة لطلال نامير Ruines de Nemrok. وهذه لفظة سميرة، تفيد بأن الأمازيغ كفوا معاصرين لأقدم الأكل في العلم.

## العرب

يشكل الأمازيغ ثلثي سكان المغرب تقريباً. ويتشكل الثلث الباقي في غالبيته من العرب، ويأتي بعدهم الفزواج واليهود. ولربما سمحت إبلالة سريعة على أسباب عظيمة وانحطاط العرب، بتصور الخلفية التي يصعب تحليلها، والتي تميز هذا الشعب الغريب والمعروف بالكاد. إن ديانة المسيح شقت طريقها ببطء، فقد كانت قبل كل شيء كياناً أخلاقياً أمر بعدم إشهار السيف. وعلى العكس من ذلك، فإن الدعوة الإسلامية التي جعلت كلوز الأرض ونعيم الآخرة، تتلأأ أمام أعين أتباع محمد (ص)، قد دفعت بالعرب إلى غزو العلم كشلال ماض. وقد نزل غزو هذا العرق الذي جاء متأخراً، كالصاعقة. ففي أقل من قرن، كانت المساحة الشاسعة الممتدة من نهر الغانج Gange إلى جبال البرانس Pyrénées، تخضع لحكم الخلفاء. وكان الشاطئ الشمالي لإفريقيا من أولى المناطق التي احتلها هذا الشعب الجريء الذي تغلف بعقيدته عن عقيدة الرومان. ففي حين كان الروماني يرجع كل شيء إلى الدولة ويتقبل المركزية المفرطة، فإن العربي الذي كان قد انتقل فجأة من الحياة الرعوية المتواضعة إلى واقع السلطة السيادية،

12 - قد كان الثوبين المزوج لغة ثرغما Thugga، يتم بالونانية وبالأمازيغية.

حافظ رغم كل شيء على العلاقات المستقلة لحياته الجوانب كزواج رجال ونهاب. لقد كان ملكا في صهرته ويريد أن يبقى كذلك وسط أعدائه المهزومين، حيث يفرض على الجميع طاعة رؤسائه وتختلف مع رفاق السلاح. وبعد انتهاء القتال، يعود العربي كما كان قبل الحرب المنكسرة، أي نحو كل سلطة وكل من ينفذ أمامه عواقبها، كإسكان أت من حضامات شائعة. وهذا تالفهم لريد من نوعه.. ففي حين تجعله طبيعة نصف المتوحشة على حب الحرية دون قيد ولا حد، فإن كبرياءه يكرهه بقول أوليفر شوب، يقوم بمعارفها حلقا لا يعود منتصيا إليها، حيث يلقى ويهجم بها، هذه الطوائف Colerics المشاكسة التي دمرت تدرجها تحت اسم المصف *scuff* الإمبراطورية العربية الشاسعة، وجعلت من الصعب في الجزائر المحلية مثلا، إدارة هؤلاء الرجال غير المنضبطين الذين علقوا فقط من أجل الحرب والفساد.

لقد قام الرومان عند بسط سلطتهم على العالم القديم، بدمج الأمم الفاضلة لهم، داخل إمبراطوريتهم الشاسعة، جعلها رومانية. أما الحرب الذين كان مهم الوحيد هو نشر ديانتهم مع أخذ الخنق، فلم يفكروا ولو لحظة واحدة بالاندماج داخل وطن. فهناك شبه جزيرة عربية، وهناك قبائل عربية متناحرة فيما بينها، لأن الأمة العربية لم تتشكل وربما لن تكون أبدا. فالعرب يحصلون شعورا صيقا إزاء ديانتهم، وليس لهم وعي بقوميتهم. فكيف كان بإمكانهم التفكير، وسط انصهاراتهم، في جمع هذه العناصر المتفرقة والمتناحرة المكونة لممتلكاتهم الحريضة، تحت راية واحدة؟

وفي إطار الانقسام العام الذي وجد فيه كل عرق وكل لغة وكل قبيلة، نفسه مستجزا وشبه معزول وسط الفوضى الإسلامية، فإن الشعوب الفاضلة، ومنها من اعتنقت الإسلام، ستعاقب على تقديس الوطن وسيميل كل واحد منها، حسب الظروف العامة أو المحلية، على طرد أو إخضاع هؤلاء الأسباط اللامبالين والمستعجزين، الذين لم يحسوا بمعلمتهم، من أجل تجميعهم بأكثر إمبراطورية عرفها التاريخ. إن العربي لم يكن فاعلا ولا مستمعرا بالمعنى المتداول لهذه الكلمات، بل كان ومزلق دامية،<sup>13</sup> ومبشرا متحمسا، فهو لا يمتص الشعوب بل يهضمهم ويلاصقهم *musulmanise*، وهي مهمة عظيمة، تكفي وحدها لتحقيق مجده. فالانشغال الأساسي لهؤلاء الغزاة، لو أنقل مهم الوحيد، كان هو جعل كل شعوب العالم مسلمين. وكان هؤلاء الدعاة الشرسون الصامدون لسيف يدهم والقرآن يدهم الأخرى، يكسبون نفوسا تطوع لها، دونما اهتمام بإنسانية هؤلاء إلى وطن أرضي غير موجود بالنسبة إليهم. وتترجم أقوال عقبة بن نافع بوضوح هذا الموقف ثابت لدى كل المقاتلين المسلمين إذ يحكي أنه بعد وصول هذا القائد إلى الشاطئ

13 - هنا كلمة دامية على كلمة كان كعقيل الكلمة الفرنسية *pretre* - (المترجم)

الأطلسي، متبوعا بألفئة المحدودة والشجاعة من الجنود الذين عبر معهم شمال إفريقيا كلهم، دفع بفرسه إلى موج البحر مغاطبا ربه، بأنه لولا الأمواج لقي وقت حاجزا لأمه، لاستمر في مسيرته من أجل نشر كلمة الله الطيبة والإعلان عن عظمة إسمه. وقد وقف الجيش كله وراء قائده وانحلى إجلالا للإرادة الإلهية، مرددا عبارة: الله أكبر. وسيسكر عقبه ذلك اليوم على الشاطئ، وفي اليوم الموالي سيتوغل مع مجموعة من الدعاة المسلمين داخل المناطق الجنوبية للمغرب، ليس من أجل الفزو، ولكن من أجل الهداية إلى الإسلام.

إن الهيمنة الدينية والفكرية للعرب، قد تطورت بشكل يلائم عقيدة هؤلاء الرجال الحالمين والمهوسين بالعerie والشغوفين بالحرب المتقدمة والذهب، علما بأن الهيمنة السياسية بالمعنى الحقيقي، لم تكن موجودة بالنسبة لهؤلاء المبشرين المحاربين الذين كانوا يجهلون الاسم الجميل للوطن. وقد وصلت هذه الهيمنة إلى الذروة في عصر هارون الرشيد وأضحت بقوة لا مثيل لها على باقي العالم. وتمثل هذه المرحلة لوج وبداية الانحطاط العرق الذي بهما، وستتحدد ساعة نهاية هذه الهيمنة بدقة بالغة، أي في اللحظة التي سيعيد فيها تقسم سلطة خلفاء المشرق للناتج عن غياب للشرعية القومية لدى العرب، هذا العرق إلى الفوضى، ويسلم هذه المجموعة من الرجال إلى ظلمات الجهل من جديد، وهي قتي قسمت بالشجاعة واعتبرت من أكثر الجماعات موهبة وإشعاعا خلال القرون المنصرمة.

## الزنج واليهود

سأحدث بيجاز عن الزنج واليهود المغاربة الذين يشكلون أقلية ضئيلة ومحترقة، علما بأننا سنتعرف عليهم بشكل أكبر عبر صفحات هذا الكتاب، ويعتبر مواطننا الفيكونت دو فوكو Vicomte de Foucauld، هو الكاتب الأوروبي الوحيد الذي درس اليهودي المغربي عن قرب ولاحظه بشكل جيد. فقد سقط اليهودي المغربي، وفيما هذا بعض الاستنتاجات، في أنني درجات الفسة التي انغمس فيها بفعل ندانة طبيعته وقساوة أسوأ البلاد.

أما الزنجي فقد ألفت، حينما أصبح مسلما، من هذا الانحطاط المنوي والجسدي الناتج عن التمسب والقمع. فهو لا يختلف عن سيده الذي يبالسه أحيانا في الشجاعة والتمسب والكرم؛ إذ أن المسلمين الذين لا يراكون بهميدهم الكفرة، يبدون لطفا راقما اتجاه إخوانهم في الملة من

المعبد الذين أصبحوا ملكا لهم، بفضل قوة السلاح أو نتيجة ضيق ذات اليد. وهذا مثال عظيم للتطويع، فلهذه هؤلاء المسلمون القوي المسيحية، على مدى قرون طويلة، لكن بدون جدوى.

## ثروات وسكان المغرب

إن المغرب، المجاور لنا، بلد رائع. وليس هناك في إفريقيا الشمالية بلد أجمل ولا أكثر تنوعا ولا أغنى منه. ويظهر احتلال مناخه ولطافته مضرب الأمثال عند العرب. كما أن خصوبته لا مثيل لها، إذ يكفي أن نلقي حفنة من القمح على أرض مخدوشة بالكد بالمحراث الخشبي، كي نحصل على حصاد رائع. وقد كان من الممكن أن يكون هذا البلد الموجود في منطقة محيطة والمحاط ببحرين كبيرين والمروى بالسطر آنية من جهتهما، مخزنا زراعيها غنيا بالنسبة لكل إفريقيا الشمالية، لأنه لا توجد أرض غنية ومسطاه، مثلما هو الشأن في المغرب. وبينما يعني جيرانه بالشرق من الجفاف، فإن المغرب لا يشككي إلا من العدد الكبير من الفيضانات التي تكون ذات فائدة مع ذلك والتي تنسره في فصل الشتاء، مودية إلى نمو الأشجار في مروجها، حيث ترعى قطعان الماشية الوفيرة للعدد التي يمتلكها الرجل.

ورغم ذلك، فإن احتلال الملوك القادمين من الصحراء للأعمال الزراعية والضرارب المفروضة على الفلاحين والمنع الكلي لتصدير الحبوب، كل ذلك شكل ضربة قاضية للفلاحة المغربية. لذلك ظلت السكنة القروية على حالها ولم تستفد من محصولاتها. كما أن كمية المنتوجات الفلاحية المعروضة في الأسواق، كانت بالكاد تكفي لحاجيات السكان.

وفي كل الأقاليم والسهول، كما في الفضايف، يتم على الخصوص الاهتمام بتربية الخراف والماعز والأبقار والحيود والبغال. وتعتبر الجمال والخراف موارد ثمينة بالنسبة للرجل، ولا يوجد تصدير الحيوانات إلا على حدودها، وهو لا يقتلع من المغرب سوى جزءا بسيورا من ثروته الرعوية؛ كما أن ثمن الأبقار والخراف زهيد جدا في كل الإمبراطورية، باستثناء المدن التي يتواجد بها الأوروبيون. فالخراف الجدد يساوي ثلاثة فرنكات في السوق وتثور قصعين نادرا ما يتجاوز أربعين فرنكا.

لما الجبال المغربية العديدة والرقعة والتي يسمح لها ارتفاعها بالتوفر على قتلوج بشكل دائم، فإنها مكسوة بغابات شاسعة، حاوية الأشجار وبأشغال خطيرة تعيش فيها حيوانات مفترسة.

ومن بين المفاجآت السارة التي تنتظر الأسياد المحتملين للمغرب، تذكر في المقام الأول، الثروات المعدنية لهذا البلد الذي نجد فيه بكثرة، كلا من الذهب والفضة والنحاس والرصاص، إلخ...

وقد سجلت بطنية في حكاياتي وخرائطي، الأماكن التي توجد بها المناجم المعدنية لهذه المنطقة الطنية والتي لم تستغل بعد. وهناك مفاجأة سارة أخرى، خصوصا بالنسبة للقوة التي ستقوم بتغيير مصير المغرب، ويتعلق الأمر بالحد الإجمالي لسكان هذه الإمبراطورية. وكل أملي، هو أن أبرهن بالفعل، على أن جميع التقديرات المنحرفة إلى حد الآن، بهذا الصدد، هي تقديرات من نسج خيال مؤلفيها، وحتى تلك التي تبدو ليها المبالغة، تظل أقل مما يقدمه الواقع. فالمغرب أهل بسكنة أكثر عددا من ساكنة الجزائر التي تلح دائما على مقارنتها بها. ويجب أن نطم بأن الأمازيغ يشغلون أغلب أجزاء البلد، جبالا وسهولا وأن قبائلهم سواء كانت معربة أم لم تكن، تمتد بعيدا حتى الجنوب.

وإذا ما أردنا وضع مقارنة بين ساكنة المغرب وسكنة منطقة شبيهة إلى حد ما بالمغرب، من حيث الأرض والرجال، فإن القبائل هي التي يجب أن تستخدم كنموذج لهذه المقارنة. وبالفعل، لهذا وهناك، نجد نفس العرق والأرض والمواد واللغة، باستثناء بعض الخصوصيات اللهجية البسيطة، ويحظى المغرب بالتميز على منطقتنا القبلية. فلكونه ظل على الدوام مكان لجوء المسلمين المظلومين، فإنه سيتوفر بالضرورة على أكبر عدد من السكان بالكيلومتر مربع، لطرود المورسكيين من إسبانيا وغزو الجزائر من طرف قواتها، مكن جارتنا من ربح ملايين المهاجرين. أضف إلى ذلك، أن الحرب الخارجية لم تؤد أبدا إلى أضرار داخل هذه القلعة المحصنة للمسلمين الأمازيغ.

وإذا ما وضعنا مقارنة بين متوسط السكنة بمنطقتنا القبلية، والذي يقدر بتسعين نسمة في الكيلومتر مربع، فإننا سنلاحظ بأن المغرب بمساحته البالغة 812 ألف كلم مربع، يمكن أن يتوفر على 73 مليون نسمة، أي نفس عدد سكان روسيا. لكن، نظرا لكون الصحراء تمتد على أكثر من ربع هذا البلد الشاسع، فيجب، كي لا نسقط في المبالغة ولكي نحقق التوازن بين الأجزاء الأملية والأجزاء غير المأهولة، أن نقر بوسط سكاني أقل بالثلاثين من الرقم المذكور، أي ثلاثين نسمة تقريبا في الكيلومتر مربع. وهذا الرقم المتواضع والأدنى مما يوجد في الواقع على الأرجح، سيعطينا على الأقل 24 إلى 25 مليون نسمة بهذا البلد الجميل المعروف بالكلمة، والذي يلح جغرافيوننا على تقدير عدد سكانه فيما بين خمسة وستة ملايين من القفوس.. ولا بد أن يكون المغرب أهلا بالسكان، لأنه بإمكان قبيلة واحدة من قبائل الأمازيغ أن تواجه كل قوى السلطان مجتمعة وأن تجهز للمعركة 100 ألف مقاتل. وتبدو لنا معاركنا بالداهومي Dahomy وطونكان

Tonkin مجرد منقوشات خفيفة إذا ما قورنت بالمجزرة المربعة التي تحدث عندما تصطدم هيلتان فيما بينهما. في أوسط شهر ماي من هذه السنة، تقاتلت هيلتان، إيتا هما الأكثر حدا من بين القبائل، بالقرب من الحدود الجزائرية وهذا المهابة وبني زنسن؛ وقد تركتا على أرض المحركة 600 رجل و 300 فرس. وقاتلت هذه المجزرة في أقل من ثلاث ساعات، بدون مدافع، وبينفق كمية وبالسيف أو بالسلاح الأبيض إن صح القول. وقد أكد لي المظاربة الذين تحدثوا عن هذه المحركة، بأن المغرب هو وكر نمل يمج بالرجال، وقدانه ل 600 رجل شبيه ب 600 قطرة ماء ناقصة من البحر..

إن المسلمين الأفارقة الذين طارنتهم الجيوش الأوروبية المتقصدة لم يجدوا سوى ملجأين ليعبرين إفريقيا وهذا: ليبيا والمغرب. ورغم شساعتها، فإن الصحراء لم تمنحهم سوى مقاما بسيطا لا يائق بالعيش الكريم والأمن. ولم تكن ليبيا، هذا البلد القاحل والخاصع للسيطرة المنفرة للأتراك، لتعمرس عليهم أية جاذبية تذكر. أما المغرب، فقد كان بمثابة الأرض المضبوطة للمونجية وجنة المسلمين المرغوب فيها والقلمة المحصنة للإسلام والأرض المباركة التي يسودها إلى يومنا هذا الحظنة القبلاء الفاطمية الزهراء، فهبت المحبوبة الرمولى (ص). وإذا ما نهت هذه المنطقة المحظوظة من لطماح الأمم الغازية، في الملة سنة المقبلة، فإنها ستوفر عدد نهاية القرن العشرين على حوالي 40 مليون نسمة. وبدون انتظار لهذه المدة الطويلة، فإن الإمبراطورية بإمكانها من الآن، وبسلاكتها التي تتأهل 25 مليون نسمة، أن تبرز فوق حبة قنوى العظمى؛ وذلك إذا ما قررت لدخول فعلا في دولة الأفكار والسياسة الأوروبية.

لكن، من المرقب أن يظل المغرب محافظا على هدونه وسكينة المسوقة التي حظي بها منذ قرون. فالمسلم المغربي أن يتخطى أبدا عن أحلام القنطة اللطيفة وعن الحرية اللامتناهية والحياة البسيطة والسهلة، وذلك بفرض الارتقاء لدخل دواليب أنشطتنا وهي الأنشطة التي لا يرى فيها سوى الجانب المادي، أي تنمية الحاجيات المتجددة باستمرار والرغبة اللامحدودة في اكتساب الثروة. ومع ذلك، كم ستكون مخطئين لو تصورنا أن وكر النمل هذا، الذي يمج بالرجال، لا يتوفر على أفكار ورغبات وأهواء وأنشطة؛ لو تسلفنا كهذا مصاب ببلادة لا أمل في الشفاء منها.. إن المغرب يشبه خلية نحل منخلقة بشكل محكم، ولا يمكن لطائين وحركات النحل الشغال ولا لحبة المعارك والمنافسات بين الملقكين للخلية أن تخترق الجدار الملح الذي يوصلها عن الخارج. ويجب أن نكون نحلا في الخلية لردية الحياة للنشطة لدخل شبه القنوت هذا، فالأمر يتعلق بمضارة حقيقية هي نتاج للتعاظم القرآنية وبثقافة مفردة سائنتين في المناطق المغربية.

إن الزوار الأوروبيين اليهوديين عن معرفة المجتمع الإسلامي الحقيقي والذين لا يسيطرون  
لغة العربية ولا يدرون أي نشاط منبثق عن هذا الشعب الغريب، قد اختلطت عليهم الأمور  
واعتبروا الحالة الوجدانية التي لم يدركوها مجرد بلادة أو فتشاء دغم. وحتى اليهودي المغربي  
نفسه، ليس أكثر دراية من المسيحيين، بالحياة الحميمة لأسواده. فهو محقر ومهمش في أغلب  
المناطق المستقلة داخل الإمبراطورية، أي في خمسة أمدن المغرب وهو بالتأكيد مقبول في بعض  
المناطق التي يتواجد بها، لكنه يظل على مسافة بعيدة عن سيده المسلم الذي يحتجزه هو وزوجته  
وأهلؤه، داخل غيوشات مخزية، معروفة تحت الاسم المبهين: الملاح.

### الدور الموكل لفرنسا في الشمال الغربي لإفريقيا

يبدو أن فرنسا مدعوة لخلافة العرب على مستوى الهيمنة الثقافية التي مارسوها في كل  
البلاد الأمازيغية، منذ فتوحاتهم الأولى، ومدعوة أيضا لخلافة الأمازيغ على مستوى الهيمنة  
السياسية التي ما لبثت هؤلاء المحاربون الأشداء يمارسونها فعلا لمواجهة سيطرة الغزاة، بالرغم  
من الإنكسارات التي لحقتهم. لقد كان العربي داعية مشاكسا لا يشبع، وكان الوندالي متوحشا  
والروماني طامعاً مستعوزاً والقرطاجي تاجراً عبداً للعجل الذهبي. ويجب أن يكون دور الأمم  
الحديثة المؤهلة بقيادة الشعوب المسلمة، مغايراً تماماً.

فبعد الدروس القاسية للحروب الصليبية وبعد المسار الشاق للاستعمار الذي تم في شروط  
غير ملائمة، نصف علمية ونصف حضارية؛ ما هي الأمم الأوروبية وعلى رأسها فرنسا، ترسم  
لنفسها هدفا في فجر القرن التاسع عشر، وذلك في إطار حملتها الاستعمارية الإفريقية. وهو  
نموذج يظلت تماماً من تصورات وأحكام الشرقيين. وقد اتبعت كل أمة من هذه الأمم الطريق التي  
رسمتها منذ قرون، أكثر المبادئ الأخلاقية سفاهة لكن النتيجة كانت عكسية. وبهذا الصدد، تعتبر  
فرنسا الأقل تعرضاً للنفور المسلمين. فهؤلاء يؤلفون علينا فقط طبعا المتساهل، بالمقابل فإن  
الغريب التي يجدونها في الشعوب الأخرى كبيرة. وإن أذكر هنا سوى الأمم التي يمكن أن تلعب  
في امتلاك المغرب، وسأقول بصراحة المعبودة ما يتصوره عنها المسلمون المغاربة خصوصاً.  
قد قالوا لي مرات عديدة: «إننا لا نحب جهالة وبرودة الإنجليز ونكره تعصب وقصر نظر  
الإسبان والتهور التراجيدي لليونانيين ونكفّر بالآلمان. ورغم طيش الفرنسيين وميلهم



نحو اليهود، إلى حد ما، فإن فرنسا هي التي منحتنا لتحكمتنا، إذا ما أجبرتنا الظروف على ذلك».

في فرنسا الطبية والفنية، إن حبك اللامحدود للشعوب وخصالك القليلة وكرمك الخيري والمطهر، تجلب لك التعاطف وتؤثر في القلوب الأكثر قسوة. لكن جهلك بالرجال وبمعيظهم، وإرفانك الراسخة في إقرار معاناة بشرية، رغم كل شيء، كلنا السبب في ارتكابك لأخطاء شنيعة وإساءات مؤلمة. فقد أردت إجماع المسلمين - ونفع بك فلاستفك الذين لم يسبق لهم أن رأوا عبادة البرابص، باتجاه هذه الطريق المصطاء لكن المحفوفة بالمخاطر.

قبل التفكير في إجماع المسلمين وجب معرفتهم. ذلك أن كل مسلم يولد وفيه شيء من الدبلوماسية. وسيكون أكثر رجالنا الميادين دهاء، مجرد تلميذ أسمى، فالمسلم بشكل لغز، وهو معروف فقط من طرف بعض المسيحيين القلائل الذين شاطروه حياته ولاندمجوا معه إن صبح القول. وهو من طبيعة مرنة، نكهة، متمرس على المجادلة، تلتف ببراعة على الصعوبات، منطلة، لكنها تحسن الانتظار؛ لذلك فمن أن نجد فكرا أعقد من فكره، فهو أكثر غموضا بالنسبة للآخرين، بل حتى بالنسبة لنفسه. ورغم أهمية تطهيرا، فإنه إن يغير من هاته الطبيعة شيئا، فالتحقيق ذلك، يتعين أن نجرده من دينيته، وهذا أمر مستحيل، علينا تجنب محاولة القيام به.

هل معنى هذا، أننا ملزمون بالتخلي عن استعمال هذه القوة العظيمة التي تضغط بشمال وفي قلب إفريقيا؟ كلا.. بل يجب علينا استعمالها واستغلالها في أقرب وقت ممكن.

وما دام المسلم غير قابل للإجماع، فلنتركه مع أفكاره ومعتقداته المحترمة إجمالا بشكل كبير، ومع عاداته وقوانينه وأعرافه العتيقة وأحواله الشخصية وأحكامه الممبقة، التي تشكل سماعته الوحيدة في هذا العالم.. وللحصول فقط على مساهمته معنا في ثلاثة أعمال أساسية وهي: الحرب والزراعة والقرعي. فذلك هو كل ما يمكننا أن نستفيد منه، وهو شيء كثير. وفي عصرنا هذا الذي توجد فيه فرنسا محاطة بالأعداء، فإنها ستكون في حاجة إلى كل أبنائها للدفاع عنها ضد جيرانها الذين يفوقونها عددا. وسيكون عدد 300 ألف سيف مسلم في صفوفنا أمرا لا يستهان به. ونحن نعلم بأن شهامة المسلمين لا تضاهي، كما نعرف لاعتقارهم للموت. فلنمنن في الجزائر إذن، الخدمة العسكرية بالنسبة لكل الأهالي وسيتولونها بكل سرور إذا ما احتفظتم لهم بقوانينهم وأعرافهم ومحاكمهم. ولينظال المسلم غير المجنن، رعية فرنسية على الدوام. لنعامله بطيبة وبعدل مع الصرامة. لنمنحه إدارة مبنية على أسس جديدة، إدارة متجددة، لكن غير مختلفة عن القديمة التي يجب إصلاحها فقط. فالدوايب الممخدة لإدانتنا الحالية والنهضة المحبب لعدائنا، تأثير

خليفة هذا الشعب البدلي المتعود على قاضٍ وحيد ذي كفاءات لا محدودة، بحسب أثناء الجلسة في الخلافات التي قد تتطلب شهورا عديدة ومصاريف باهظة بالنسبة لمعالمنا.

صحيح أن اليهودي الجزائري كان محفوظا بالمقارنة مع المسلم، علما بأن الأول لا يتوفر على الفصال الحيوية للثاني. لكن ما زال أمامنا متسع من الوقت كي نضع في مصاف قرعة، الغريب الذي لا يستحق شرف أن يكون مولدنا فرنسا. وسنكون إعادة اليهودي إلى الوضع الذي كان يوجد فيه قبل السنة القرمية L'année terrible، صليبة عادلة بشكل تام وفعلا سينسار قعنا.

ويجب أن تكون للرعايا المسلمين واليهود نفس الحقوق والواجبات. فالمسلم الذي أراق دمه مرات عديدة من أجل فرنسا، يشعر بالخين والتمرد، عندما يدرك بأننا نكفل بمكبلين، وبأن الكائن الذي يحتقره أكثر من أي أحد، قد يصبح أحيانا سيده، بل وسيدنا نحن.

وإذا ما كانت الجزائر وتونس بإمكانهما مجتمعتين، أن تقدمنا لنا 300 ألف سيف مسلم، فلماذا سيقول عن المغرب، عندما يدخل نهائيا في تلك فرنسا؟ في ذلك اليوم، سيصبح وطننا سيد العالم. فمن هو الجيش الأوروبي القادر على مقاومة هجوم مليونين من الأمازيغ والعرب المسلمين والمدربين على الطريقة الفرنسية؟ وأية إمبراطورية استعمارية رائعة ستكون لنا في هذا الجزء الشمالي الغربي من إفريقيا؟ تونس ! الجزائر ! المغرب.. وخصوصا المغرب الذي يساوي وحده أكثر من الآخرين مجتمعين ! ونتمنى أن يكون المغرب، هذا البلد الإفريقي الذي لا مثيل له، في يوم ما، أجمل زخرفة على التاج الاستعماري لفرنسا ! فهذه القطعة مهمة وتستحق أن نهتم بها، وسنكون متأكدنا الأخرى باهظة مقارنة بهذا الجزء الملكي.

وإذا ما كانت غالبية المغربية غير قلقة على مستقبل وطنها، فإن أصحاب الروية المسؤولين عن مصير المغرب، يعرفون جيدا السيف المسيحي المستعد لاغتراق أصق الأتليهم بالإمبراطورية، إنهم يحلمون بأن الاستقلال الحالي لهذه المنطقة الجميلة، يرجع إلى المنافسة القائمة بين القوى العظمى ولا يجهلون بأن المسألة المغربية ستحل مع مسائل أخرى، بعد الانفجار العلم الذي سيلقي المبارزة الأوروبية الكبرى. لذلك، فهم يبحثون عن كيفية تفادي العاصفة المندوية فوق رؤوسهم.

لقد ناقشت مرارا المسألة المغربية مع أعيان فاس ومراكش القلتين جدا وعن حق، على مستقبل بلدهم. والنتيجة التي توصلنا إليها، قد تقدم لفرنسا استشارات لا تعصى والمغرب منافع لا تقدر بثمن. وإن تراقى فطرة دم واحدة للوصول إلى هذه النتيجة ! غير أن الزمن لا يرحم، وخصوصا يعملون دون موادة لمضاغة تكثيرهم لدخل هذا البلد الرقيق الذي يستحضرون ثروته

وامسوته. ويوجب على فرنسا التي لها الأحقية في هذا البلد، أكثر من الآخرين، أن تتحمل في قول  
الشاعر العربي: وربما قلت يوما جل لمرهم من التكني ولكن الحزم لو جعلوا

وهران، حديقة ولسفورد Welford، 31 غشت 1995  
أوجست موليراس Auguste Moulieras

# المغرب المجهول

## اكتشاف الريف

### توطئة

قريب كلمة عربية، تعني الأرض المحروثة والخصبة التي توجد عادة على ضفاف النهر أو بجانب الصحراء. وتعني كلمة " قريب " في القبايل: ضفة وشط. ويطلق الريفيون هذا الاسم على بلادهم دون فهم معناه.

ويحد الريف شمالا البحر الأبيض المتوسط وشرقا بإقليم وهران وغربا وجنوبا بإقليم جبالة. أما في الجنوب الشرقي، فيحد على مساحة صغيرة بإقليم الدهرة. ويمتد شاطئه المتوسطي على 230 كلم تقريبا، أما حدوده الجنوبية فهي أطول. ويختلف تسامحه كثيرا ما بين الشمال والجنوب. ففي وسط الريف يصل إلى 180 كلم وعلى الحدود الغربية يصل إلى 80 كلم، أما على الحدود الشرقية فيبلغ 60 كلم . وينقسم قريب من الوسط تقريبا عبر الدرجة 35 من خط العرض، كما يفصل عن إقليم جبالة في الدرجة 7 من خطوط الطول. وعلى الرغم من كون الريف أصغر الأقاليم المغربية مساحة، إلا أنه حافظ مع ذلك على استقلالته منذ فجر التاريخ. فهو لم يخضع لهذا الأسيد الذين تعاقبوا على عرش المغرب. وشكل يوما ملاذا للثاقين والطامعين في الحكم . ومما زاد إلى ألسنا هذه، يشتهر ملجا يستحيل اغتراله.

إن قطاع الطرق والمخربين والأمراء المتمردين وكل أولئك الذين لا يجدون الأمن في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية، ما عليهم إلا أن يطلوا هذه الأرض المعتادة على الحرية، لكي يشعروا بالأمان. ذلك أن الريفيين يستقبلون الأجانب بكل ترحاب، خصوصا منهم المرتكبون الإساءة الذين نجوا من محاكم التفتيش. وتشكل عبارة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " جولا سحرها بالنسبة لكل أوروبي جملة قراء بين يدي هؤلاء الجبابرة المعتاة.

وعلى المستوى الإثنوغرافي، فإن الريفيين ينتمون إلى العائلة الأمازيغية الكبيرة. وهم لصر قلعة من قبائليين الجزائريين، إلا أنهم يتفوقون على قوة وسلالة الفاتحين. ويمكننا رؤيتهم

بذلكمنا في كل سنة أثناء مرحلة الحصة وجلي المحاصيل، وبالتالي دراسة هذا النموذج المتكامل للحاصل المتنوع الذي لا يقل. وتستقبل منطقة وهران أكثر من 20 ألف باثون عند مصرينا للبحث عن النقود الثمينة النادرة في الريف.

ومع ذلك، فإن بلادهم ليست أرضا للوحة ما دامت قراها ومناشرها تعد بالملكات، وما دامت قبيلة كالمية وحدها لفترة على مواجهة القوى الإسبانية المتمركزة بميلوية. فالريفاني يأتي عندنا فقط كي يربح خلال شهرين ما يكفيه للعيش برخاء على مدار السنة دون أن يشتغل. وهو يشعر بمشقة الوجود وسط الفرنسيين الذين يكثر فيهم حسن نيتهم ولطفهم القسبي. بالمقابل، فهو يمتدح اليهودي والإسباني، الأول باعتباره ملعوناً من الله، والثاني باعتباره عدواً لهما.

ولريد أن أفرك جانيها كل اعتبار سياسي في عمل علمي خالص مثل هذا العمل، والاتصال على اكتشاف طبيعة المجتمع المغربي وكيف يعيش الأفراد داخل أسرهم وبأية طريقة تنظم القبائل المستقلة، مع إعطاء فكرة مختصرة وصحيحة تقريبا عن هذا البلد الغريب، وعن الوجود لواقع لملتين الرجال الذين يعيشون في أماكن داخل القوضي، أحرارا كوحوش كاسرة في غابات والذين لا يضرب بعضهم بعضا. غير أن الأطماع الأوروبية تعطيني رخسا على إلى السياسة المزعجة، بل إن المغاربة أنفسهم يدفعون بي إلى هذه الطريق. ففي جميع محادثاتي معهم، كانت تتكرر على شفاههم، المسألة الأزلية المتعلقة بمصالح وبقدرات القوى المتوسطة.

وهناك دولتان لهما مصالح كبيرة في المغرب وهما: فرنسا وإسبانيا. فهذه الأخيرة تملك منذ مدة بعض الصغور المنعزلة بالشاطئ المغربي، ولم تكن لها القدرة أبدا على توسيع مساحة احتلالها الهش. وبميلوية وحولها، توجد قبيلة واحدة، وهي القمية، تقاوم الإسبان لدا للند. ولو كان القلمون متوفرين على المدافع بدل بنادقهم القديمة، لكففت الأمور قد تغيرت رأسا على عقب. فالضعف النسبي لإسبانيا، ولو أمام المغرب، يبدو جليا. وبالتالي فإن غزو هذا البلد سيكون بالنسبة إليها محاولة فوق طاقاتها. فمجرد الإبقاء على كوبا تحت سيطرتها، يعتبر الآن صعبا بالنسبة لهذه الأمة التي لم تعرف كيف تحافظ على ممتلكاتها الشاسعة بأمریکا.

بقيت فرنسا التي تعتبر مصالحها أكبر من مصالح إسبانيا. فإسبانيا فرنسا بجيشها العظيم وغرتها البحرية الراقمة، أن تستولي بسهولة على المغرب الذي لدينا معه مئات الكيلومترات من الحدود المشتركة. ولا يتعلق الأمر هنا ببعض الصغور الجرداء التي تلطمها الأمواج وتطلق باتجاهها رصاصات الرميخين، بل يتعلق بحدود مشتركة وشاسعة، وبتجارة تكتسي يوما بعد يوم أهمية أكبر بين الجارين. إن الأمر يتعلق بمعرفة من سيملك ثغورا بسيطة، محاطة من كل جانب بالأراضي الفرنسية.

والآن، إذا ما نحن لحتكنا إلى مشاعر شعب، سيضع أجلا لم علاجاً للسيطرة الأجنبية، فإن هذا الشعب محبوب بأن الهيمنة الفرنسية هي الأخف بالقسوة إليه. فالإسبان لم يكتسبوا ود المغاربة، رغم جوار لمدة قرون؛ لأنهم لم يريدوا ولم يستطيعوا دراسة وتعلم اللغتين العربية والأمازيغية. وكل الأصول الأكاديمية المتعلقة بهاتين اللغتين، قد انحزت من طرف الفرنسيين والألمانيين والإنجليز والإيطاليين. فالمغربية والأمازيغية لا تستصاغان من طرف الأسبان.

وعلمنا ما كنت بملاحظة ذلك في دروسي بكتوبة وهران ودخلت إلىنا، فهل يرجع الأمر إلى عجز؟ هل هو نفور عرقي؟ ثم هناك سؤال أخير: هل بإمكان إسبانيا أن تعطن جيها عن طموحها في حمل مشعل الحضارة خارج أوروبا، في ظل الوضع الثقافي الذي توجد عليه حالياً؟ وهناك أخيراً قوة ثقفة لا تشبع، وهي إنجلترا التي تريد الاستيلاء على طنجة لإغلاق مضيق جبل طارق ولتحكم بذلك في كل البحر الأبيض المتوسط. وتتمثل خطتها في الاستيلاء على بعض المدن الشاطئية، لأنها تعلم جيداً بأن تغلغل جيوشها داخل المغرب سيواجه بمقاومة باسلة. كما تعلم أن بإمكان هذا البلد تجنيد أكثر من مليون من الرجال الأشاوس المخطئين تماماً عن المسلمين الضالعين بمصر أو بالهند. وهي على علم بأن مثل هذا الغزو يقتضي تعبئة أكثر من 100 ألف إنجليزي. وبالتالي، فإن هذه المهمة ستكون فوق طاقتها، وبإمكانها أن تحرق وتتهب الشاطئ المغربي، لكنها إن تستولي أبداً على شهر من قراب الدخلى.

كانت تلك هي القوى الثلاث المهمة أكثر من غيرها باحتلال المغرب، وبميل المغاربة إلى فرنسا التي إذا ما استشيرت، فإن بإمكانها أن تحصل على هذا البلد الجميل دون إراقة قطرة دم. فملا لويس الثالث عشر لم تتغير سياستنا هناك، كما أن تأثيرنا مثل تأثير كل الأمم المسيحية الأخرى، لم يكن ذا أهمية. فقد كان القناصلة الأوروبيون المضطرون لاستخدام مترجمين من البلد، وهم في غالبيتهم يهود، لا يحظون بالاحترام الكافي من طرف أعيان المجتمع المغربي الذين كانوا يمشونهم ويحترونهم مجرد كلمة متلبسين بلباس القداسة ومدعين بالقوة العاقبة. ولم يبق لإمبراطور المغرب أن يدخل في محادثات خاصة مع أحد ممثلي القوى الأوروبية الذين كانوا يجاهلون كلا من لغة البلد والأدب العربي.

إن المؤرخين قد افقتوا بالنجاح الذي حصل عليه غوليوس Golius سنة 1622 بالباطل الشريف. فهذا العالم لم يكن يعرف ولو كلمة واحدة بالمغربية الدارجة. لكن، وبفضل عريضة الاستعطاف syplique المكتوبة بالمغربية والمقدمة إلى السلطان، وهي العريضة التي سيجب هذا الأخير بكتابتها الجميلة، سيحصل على ما كانت السفارة الهولندية تترغب فيه. وكم من امتيازات كان سيحصل عليها لو أنه وضع للسلطان بالمغربية موضوع عريضته والغاية من

المهمة التي كلف بها، بدل مخاطبته بالإسبانية. ألم نفهم بعد في فرنسا، بأن على كل معقلنا بالمغرب وبالبلدان العربية الأخرى، أن يكونوا محرين بشكل كبير، يتكلمون ويكتبون جيدا، لغة الرسول (ص)؟

الرجوع إلى الريف، فنضاروسه تشبه كثيرا تضاروس قتل الجزائري، بحيث يشكل لمتقنا له، ولأنه محاط جنوبا بجبال عالية، فإن أهم بعضها تظل على ما يبدو، مكسوة بكتلوج في عز الصيف، ولا يمكن عبور هذه المنطقة أرضا، إلا من خلال حدودها البحرية، شرقا وغربا، ولا يقدم القاطن أي ملاذ آمن، فهنا وهناك تستخدم مراقبي غير عتيقة كمصب لبعض الأنهار لسيادة التي لا تمتد مناهمها كثيرا عن البحر. وفي كل مكان تقريبا، باستثناء منطقة الغاريت (garète) الموحشة، ينمو نبات رقيق. وتتموج حقائق قتل، المنفصلة عن الأجزاء الخفيفة البعيدة بالمغرب، تحت غابات من أشجار القوأك، لتنتهي بهدوء داخل أمواج البحر الأبيض المتوسط.

إن الريف الذي يشكل مساحة لربية من 23 ألف كلم مربع، أي ما يناهز مسلة ثلاث محافظات فرنسية، يتوفر على كثافة سكانية مهمة. وتقدر المعلومات المختلفة التي حصلت عليها من مصادر متنوعة، عدد المحاربين الريفيين القادرين على حمل السلاح ب 250 ألف رجل على الأقل. وإذا ما ضاغطنا هذا العدد خمس مرات، فإننا سنحصل على مليون و 250 ألف نسمة بالدرجة لساكنة أصغر الأقاليم المغربية. ونفهم الآن لماذا يمكن لهذه المنطقة الصغيرة تحدي كلا من السلطان وإسبانيا، فهي محصنة طبيعيا من كل الجوانب، سواء بشواطئها الخطيرة أو بأوديةها أو بجبالها.

وهي تتوفر على عرق من كثر أحراق الملم صلابة، عرق لم يخضع أبدا للأجنبي، ولربما كان عرق الوحيد على الأرض، الذي لن يقول عنه التاريخ أي سوء. فهنا الشعب الصغير، تمتع باستقلاله في كل الحقب. لذلك فإن الريفي يعيش موطنه إلى حد العبادة، وهو يحمل حقا نفقا لإسبانيا التي نهجت في الاستيلاء على بعض صفوف هذه الأرض المقدسة والاحتفاظ بها، لكن بأي ثمن ٢٠٠

ولا يمكن لأي أوروبي أن يتهاوى بكونه عبر الريف. فهذه المنطقة مجهولة وغامضة ولا ظلت مستغلة بسرهما ومغطاة بحجاب ملوح. ونحن نتذكر المحاولة غير المجدية لمواطننا هنري دوغريي H. Duveyrier الذي عاش بعيدا عن هذه الأرض الموحدة ولم يتمكن من ولوجها. لكن هذا الرجل الشهير سام بنفسه في قتل مهمته. فقد كان يرتدي لباسا أوروبيا ويخفي في عز رمضان ويأكل ألام الأمازيغ المتزمنين بالصوم القاسي ويتحدث العربية بطريقة خاطئة. وقد قدمش وانزعج حينما اعترضه الريفيون على عبوره لمنطقتهم، رغم أنه كان ضمن عائلة

لشريف الوزاني. وقد كان بإمكانه وبكليل من الدهاء، عبور الريف واكتساب مجد خالد مثل كريستوف كولومب جديد لهذه الأرض المجهولة. وسأذكر في المجلد الثاني، لماذا عجز لشريف الوزاني عن إقامة شكوك الريفيين واستصحاب هنري دوغريسي معه.

ونحن نعتقد جازمين في أوروبا، خصوصا في فرنسا، بأن شرفاء الزاوية الوزانية يحضون في بلدهم باحترام لا محدود. غير أن العكس هو الصحيح، إذ لا تمر سنة دون أن يتعرض الزاوية لشهيرة للذهب من طرف القبائل المجاورة. وقد سمحت الحكومة الفرنسية التي خدعتها التقارير الخاطئة، لشريف الوزاني بالمجيء أحيانا إلى وهران، لجمع تبرعات الأهالي، في حين كان يحتمل بالكاد في بلده. وكانت التبرعات التي يتم عندنا لأجل هذا الولي المزعوم، تعود عليه ب 200 إلى 300 ألف فرنك.. ويمكن القول بأن أموال فرنسا هي التي تحيل هذا المورج العظيم الأهمية. وفي المغرب، هناك آلاف من الشرفاء أكثر احتراماً من شيخ وزان. وإذا ما رغب أحدهم في المجيء إلى محفلتنا لأخذ المال من رعاينا المسلمين، فإنه سيحظى بنجاح أكبر من نجاح منافسه الضعيف. ونتمنى ألا يتبنى أي واحد منهم هذه الفكرة التي استغلت ببراعة إلى حد الآن من طرف مولاي عبد السلام وحده، والتي قد يؤدي موته مؤخرًا إلى وضع حد لهذه الجولات القروية المتكررة.

هكذا، لقد كان رحلتنا مطالبا بالكتشاف هذا الريف القوي، خطوة خطوة و سيحظى أليسا حل، وباستثناء بعض الأحداث العارضة، باستقبال ياتي بوضعه كطابق ودرويش ومسؤول.

ولما لم أتبع بالضبط المسار العظيم لمحمد بن الطيب على مدى اثنين وعشرين سنة من تجواله عبر ربوع المغرب، لقد كنت سأعرض لقبه. لو كنت مرافقا له. وبالتالي، كنت سأضلل قرقي الذين كانوا سيتحولون معي بدونقطاع، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، على نفس الصفحة أحيانا. لذلك، فضلت إعطاء وصف كامل لمنطقة معينة قبل المرور إلى المنطقة الموالية. وكانت الصعوبة الكبرى تتمثل في الحصول على تواريخ إقامة الدرويش في مختلف أجزاء الإمبراطورية. غير أن محمد بن الطيب اللامبالي، الذي لم تكن له مهمة رسمية ولا أصل ولا انتهاء أخرى تكوّن إلى مغادرة المكان، كان يحش بدهوء دون أي اهتمام بمرور الأيام والشهور والسنوات. ولأنه شغوف بالأطعمة الفاخرة فإن ذكريقته المضبوطة كرونولوجيا، لا تحيل إلا على المأكولات الطيبة والفاخرة التي تمتع بها في مملكة الشريف، صاحب الجلالة. وكان يتفكر جيدا بالبلدات التي لاحتل بها بعد الأضي. وقد مكنتني ذكركته المطبوعة بوضع اللوحة الثقافية التي تبرز جزئيا الاكتشاف الرقيق للدرويش وتقلاته الطويلة خلال نفس السنة، وأيضا تاريخ تواجده بهذا الإقليم المغربي أو ذلك. وقد يحصل لي أثناء تحرير عملي،



إن الخط أهمنا تاريخ سفر رحلاتنا، لذلك فإن المطلوب من القارئ في هذه الحالة، هو البحث عنها في الجدول الموالي.

الأماكن التي لفتت بها محمد بن الطوب بعد الأضحية المسمى بالعهد الكبير

| السنون | الأقاليم | المدن أو القرى       | القبايل               |
|--------|----------|----------------------|-----------------------|
| 1872   | جبله     | بني يزو              | بني زروال             |
| 1873   | جبله     | غضاي                 | بني زروال             |
| 1874   | جبله     | عين الريحان          | لادجبة                |
| 1875   | جبله     | ققلابة               | بني زروال             |
| 1876   | البرابر  | صغرو                 | صغرو ( المدينة )      |
| 1877   | البرابر  | الطنزل               | بني بازغة             |
| 1878   | فاس      | فاس                  | فاس ( المدينة )       |
| 1879   | فاس      | فاس                  | فاس ( المدينة )       |
| 1880   | البرابر  | تولموت               | بني مسكند             |
| 1881   | تغليلات  | قصر مولاي علي الشريف | مدرارا                |
| 1882   | درعة     | زروية سوي أحمد بناصر | لوت ناصر              |
| 1883   | سوس      | تروذانت              | تروذانت               |
| 1884   | مراكش    | مراكش                | مراكش ( المدينة )     |
| 1885   | فاس      | فاس                  | فاس ( المدينة )       |
| 1886   | الدمرة   | المعلم القوقلي       | أولاد عمرو            |
| 1887   | الدمرة   | سوي حمزة             | عاقليت                |
| 1888   | الريف    | صغرو                 | بني يزنانس            |
| 1889   | الريف    | بو حمزة              | قلمبة                 |
| 1890   | الريف    | تيزمورين             | بني ورياعل            |
| 1891   | مراكش    | أسفي                 | أسفي ( المدينة )      |
| 1892   | الدمرة   | دبدو                 | دبدو ( المدينة )      |
| 1893   | الريف    | قلمة                 | بني مكوثر، بني يزنانس |

## كيفية تكوين الكلمات العربية والأمازيغية والتعلق بها

إذا ما كانت هناك لغتان، خضعت كلمتهما لتقوية غريب من طرف الأوربيين، فهما بكل تأكيد العربية والأمازيغية. فمثلا عوضت الجزائر بشذير ووعرن بونهون والمغرب بمرلكش وتونس بتونس والمصر الضيق بطق القود إلخ... فهل بإمكان الجميع التمييز بينهما؟ وما نمت أول من كشف مئات الأسماء الجغرافية الجديدة للمنطقة بالمغرب، فبني قمتي أن تصبني دراستي المتخصصة من ارتكاب نفس أخطاء أولئك الذين بعدهم تمكنهم من تعلم اللغتين العربية والأمازيغية، يصحون بشكل رديء ويكتوبون بنفس قردامة الكلمات الخاصة بهاتين اللغتين. ومن بين آلاف طرق التكوين المستعملة من طرف المستشرقين، فإني أن أرتد في اختبار طريقة مؤلف " محاولة في النحو القليلي "، العلامة المتواضع الجول هانوتو Hanoteau. وهذا التكوين هو الذي يبرز على كل حال في مؤلفاتي المتعلقة بالكلمات الأمازيغية. وأصح نفسي مع ذلك، بتقديم بعض التحذيرات الطويلة التي سأثير فيها في حينها. ولو كانت المطابع الوهرانية مجهزة بشكل أفضل، لكنت قد تمكنت، على غرار صديقي روني باسي René Basset<sup>14</sup>، من إدراج الحروف المنصصة لتتشبه الحروف الأمازيغية sch ، g ، j ، ضمن أبجديتي. لكن هذا الأمر صعب المنال. فمصاحب المطبعة الجزائري الذي قد يطلب منه شراء هذه الحروف الطليمة الجديدة، موصوخ محتجا وسوقم أفضل التبريرات لرفضه. هكذا، سأضطر لتعمل ' تقس ' بـ ' sch ' و ' ج ' بـ ' j ' و ' ق ' بـ ' g ' و ' ك ' بـ ' k ' وكلما بهم لم يكف. غير أن التكوين الفرنسي سيسمح بالتعلق الصحيح مع ذلك.

<sup>14</sup> - Cf René Basset, *Manuel de langue Kabyle*, Paris, in - 12, 1887.

جدول يمثل الألفبائية العربية مع القيمة التي يعطونها لها العرب الأصليون.

| القيمة العددية | الأحرف العربية |
|----------------|----------------|
| 800            | ض              |
| 9              | ط              |
| 900            | ظ              |
| 70             | ع              |
| 1000           | غ              |
| 80             | ف              |
| 100            | ق              |
| 20             | هـ             |
| 30             | ل              |
| 40             | م              |
| 50             | ن              |
| 5              | ـ              |
| 6              | و              |
| 10             | ي              |

| القيمة العددية | الأحرف العربية |
|----------------|----------------|
| 1              | أ              |
| 2              | ب              |
| 400            | ت              |
| 500            | ث              |
| 3              | ج              |
| 8              | ح              |
| 600            | خ              |
| 4              | د              |
| 700            | ذ              |
| 200.           | ر              |
| 7              | ز              |
| 60             | س              |
| 300            | ش              |
| 90             | ص              |

## ملاحظات

تتأدي أي خط سائل متصل خط الوصل داخل نفس الكلمة كلما وقع الالف. مثلا، فإن الحروف: k, dh, ch, kh, th, t, تكون مقبوعة مباشرة بخط الوصل عندما يأتي بعدها حرف الهاء، مثال التهمة Ett-hem، الكهي AK-ha، أي تفتح على أصابعه، Ede-hem، أي لسود، سيد e-had (حرارة)، دهن D-hen (زبد مخوبة)، كهن K-hen (تجمد). وعندما يوجد حرف صوتي voyelle فرنسي بين الهاء والحرف السابق عليه، فإن خط الوصل لا يستعمل مثل: التهم tehem، صروح caboh (البنوس)، دهن Dehen (نم م) إلخ...

وسأنتهي من هذه الملاحظات الفونيقية والنحوية البسيطة، لكن المهمة، بالتأكيد على أنه من اللازم التعلق بكل حروف الكلمات العربية أو الأمازيغية مثلا: Tizemourin سطلق تيزيمورين، Taroudante سطلق تارودانت، Mengouch موكوش، Ait Angad أيت أنجاد، Ait e'rouchchen أيت سغريوخن. وسواء كانت ch بسيطة أو مزدوجة، فإنها تطلق دائما cho كما هو الأمر في الكلمة الفرنسية arche (سفينة). ومنعطف G' و G على نطقها الحقيقي أمام حركات مثل e, i, y, a, o، مثلا Mglid سطلق مغلاد، iger، وسيل حرف g صليا كما هو الشأن في كلمات مثل: guider (أرشد)، guerre (حرب) Mag'rib (مغرب). أما حرف 's الموجود في الكلمات الفرنسية مثل sauver (أنقا) savoir (معرفة) singer (غتر)، فيسمع دائما، سواء كان موجودا في بداية أو وسط أو عند نهاية الكلمة أو بين حرفين صوائين مثلا: Pas فاس تطلق مثل Face (وجه) Tamasman تطلق تاسمان، Bni Znaen بني زناين إلخ... وبخصوص ou، هذا الحرف الصوتي المخصص لتمثيل الهمزة العربية، فيسقط بالمعنى الوحيد الذي يعطيه له الفرنسيون في كلمات مثل Cou (علق)، Fou (مجنون).

ونتهي المختصرات (A-B) و (B-A) العرب الذين تملأوا والأمازيغ الذين تعربوا. فـ (A) تعني عربي، (B) تعني أمازيغي، Berbère وفي كل مكان قريبا أوضح معنى الأسماء العربية والأمازيغية.

وهذه المهمة الدقيقة والخطيرة، تضاعف أمام صعوبات حقيقية، خصوصا عندما يتعلق الأمر بأسماء محددة. لذلك، أوجز المختصرة عن الأخطاء التي ربما تكون قد ارتكبتها. وعلى أية حال، فليخففني ذلك الذي لم يخطئ أبدا، بالمجرة الأولى.

# المغرب المجهول

## القسم الأول

### اكتشاف الريف

#### قبائل الريف

تاغزوت، بني بونصر، بني خنوس، بني سدات، متيو،  
بني جميل، بني بوفراح، بني يطف، بقبوة، بني ورياغل،  
تمسمان، بني توزين، تفرسيت، كزناية، لمطالصة، بني  
عصيرت، بني مزدوي، بني ولشك، بني سعيد، بني بويحيى،  
قلعية، كبدقة، تريفة، أولاد ستوت، بني زفاسن، بني محيو،  
مغراوة و بني بشير.

يستخدم المغاربة تداعيا ذهنيا لمساعدة الذاكرة في نظم وحفظ أسماء الأقاليم العشرة. وتتمثل هذه الطريقة في جمع هذه الأقاليم متى متى دون اعتبار لوضعيتها الجغرافية، مع جعل كلمة كل زوج مقابلة. مثلا: قريف والدمرة، البرابر والصحراء، جهالة والدايرة، الحوز ودرعة، سوس الحمراء. والدايرة هي مختصر دائرة فاس. أما الحوز فهو مختصر لحوز مراكش. وكلمتا الدايرة والحوز مترادفتان وتعنيان " الإقليم ". وكل إقليم المغرب مستقلة تقريبا ولا تحترف إلا بالسلطة الروحية لسلطان فاس. ولم يكن قريف خاضعا أبدا، فهو يشكل جزءا من " بلاد السبية " العاشسة ( أي المنطلي عنها من طرف السلطان )، البلاد التي يتجول فيها المرء بحرية والتي تشمل أربعة أقاليم المغرب. أما الخمس المتبقية تسمى بلاد المخزن ( بلاد الحكومة ) . وفي حين اتخذت القوضى في بلاد السبية شكلا جمهوريا إلى حد ما، يتميز نسبيا بقليل من الطغيان، إلا أنه لا يضمن أمن الأفراد، فإن أعوان السلطة في بلاد المخزن، بالمقابل، سيضعرون أرواحها بقتل سلطة لا ضابط ولا حد لها. فلا غرابة إذن، أن نرى القبائل المتمردة لا تثير أي اهتمام لسلطة السلطة، لئلا الإمبراطورية.

فالريف المحمي بجباله الجنوبية وبالبحر، لم يكن يعيش عاملا بحرية له ولا جيش له تقريبا. ومع ذلك، فهو يرسل الهدايا إلى السلطان متلما يرسلها الكاثوليكون إلى البابا. وتحمل هذه الهدايا عند وصولها إلى فاس، اسم الضريبة، وبذلك يكون مرور الإدارة المغربية قد تم إرضاءه. والقبيلة الوحيدة التي أقرت باستقبال بعض جنود السلطان، هي القحبة، وذلك بسبب نزاعها المستمر مع إسبانيا بمولوية. وما هذا ذلك، فإن المخزني ( الجندي المنطلي ) يظل غير معروف.

## قبائل الريف

يتضمن هذا الإقليم ثلاثين قبيلة، تمتد إحدى عشر منها على طول البحر الأبيض المتوسط. والقبائل البحرية من الشرق إلى الغرب هي: طريفة، كهدفة، قلعية، بني سعيد، تسمان، بني ورياحل، بقوة، بني يلفت، بني بوفراح، بني جمول وعقود.

وتجد جنوب هذه القبائل، من الشرق إلى الغرب: بني زناسن، بني محيو، أولاد ستوت، بني بويحيى، بني ولشيك، تارسيت، امطالصة، كزناية، بني توزين، بني حريت مغرولة، بني بشير، بني مزدوي، زرفت، تارجيت، بني مدات، بني خلوس، بني بونصر، تافزوت.<sup>15</sup>

وكل سكان هذه القبائل تقريباً، هم من الأمازيغ الذين يجادلون اللغة العربية، وتقدم لغتهم المحلية idiomie، المسماة تامازيغت، تنوعاً كبيراً للهجات المتقاربة بعضها من البعض، باستثناء ما يتعلق بكهدفة وبني زناسن، اللذين تعتبر لهما المسماة زناكية، مختلفة نسبياً عن تامازيغت، وإن كان أصلها أمازيغياً.

وقد تم، فيما مضى، اجتياح طريفة وأولاد ستوت من طرف العرب الرحل، ويعتبر أمازيغيو الريف، القبائل الأربع الأخيرة: كهدفة وبني زناسن وطريفة وأولاد ستوت، غير ريفية، لأن لغة أمانيها وعائلاتهم تحطهم غير مؤهلين للمعاملة كقبائل ريفية، من طرف السكان الريفيين أصحاب لغة تامازيغت.

## قبيلة تافزوت

(المضيق، الانتقام) ، التسمية أمازيغية

إن الأخير في شيء مسار محمد بن الطيب الذي دخل الريف لأول مرة عبر تافزوت، وهي قبيلة جنوب الريف الغربي. وقد أقيم في هذه المنطقة حوالي أربع سنوات: ما بين 1888 و1890 في المرة الأولى، وعام 1893 في المرة الثانية. ففي سنة 1888 وأثناء عودته من رحلة بالدمرد، مر بالمنطقة التي تفصل هذا الإقليم عن الريف الغربي وبلغ قبيلة تافزوت، بعد أن تركه

<sup>15</sup> - مذكور أيضاً بأنه يتضمن المطق بكل حروف الكلمات الأمازيغية والعربية.

وراءه قبيلة كتامة ( جبلة ) التي ستحدث عنها في كتابنا الثاني. وكانت أبوابه قبالية وهائلة كدرويش جوال تشبه لدى كل من يراه، تملأها مشوبا بالثقة. لذلك، كان من السهل عليه تسببا، المرور من قبيلة إلى أخرى، وهي عسوية مخوفة بالمخاطر دوما في المغرب.

وحيثما يحل في المرء باستقبال جيد من طرف قبيلة مغربية، فإنه من الأفضل له الاستقرار دائما بها، لأن مغابرتها قد يجعله عرضة لاحتماء القبائل المجاورة المتعاربة فيما بينها باستمرار تقريبا. وبالمناسبة لمحمد القراغب في رؤية قريب، فإنه لم يخش أبدا المخاطر التي يمكن أن يلاقيها في هذا البلد الجهول والموحش. لقد هرب من كتامة دون توديع مضيفيه السابقين وتوجه بجرا إلى قبيلة تاغزوت، متبعا المجري المنعرج للتدوير الذي يحمل نفس الاسم. ودخل إلى قرية قكمة حيث بقي الترحل في المسجد، ثم عمل فورا وكما كنته، على دراسة البلاد والعباد.

وتعد تاغزوت جنوبا وغربا بقبائل إقليم جبلة. وهي تكلف من قسطنطين وهما: تاغزوت اللولائية ( العليا ) وتاغزوت القشتالية ( السفلى ). ويمكن لكل قسم أن يجد أربعة آلاف من المسكر المشاء fantassins، أي ثمانية آلاف رجل بالمناسبة لكل القبيلة. ولأن التجربة أكدت لي بأن الدرويش يتقطع أربعين كيلومتر يوميا، كمشاء جيد، فقد كان من السهل عليه تسببا، ضبط مساحة كل قبيلة وبالتالي كل إقليم. صحيح أن سكان هذا الجوال الذي لا يكاد، لا تتوفر على دقة وسلا في مسح الأراضي، ومن الطبيعي أن ترتكب بعض الأخطاء في تقدير المسافات، لكن الصحيح أيضا، هو أنه بواسطة هذا النظام الفريد الذي يمكن تطبيقه بالمناسبة، فإنه لم أحصل سوى على نسبة 30 كلم من الخطأ، ضمن خط معتد على طول السهل الريفي، من مصب واد كريس إلى قبيلة شارة الجبلية..

وعندما تصور بأن مساحة اقتراب الوطني الفرنسي نفسه، موطن الأتوار والطلم، خير معروفة بدقة تامة، إذ أن المساحات المعتمدة في الوثائق الرسمية ما بين سنوات 1878 و 1886 تتراوح ما بين 52700680 هكتارا و 52910373 هكتارا، فإنه أرجو ألا يؤلفني القناد المتشددون على غياب الدقة في تقديري لثلاثي لمساحة الأرض، المتميز بدقيقته وبانصافه.

وتعد تاغزوت على حوالي عشر كيلومترات طولا وعشر كيلومترات عرضا ( ربع يوم من المشي في كل الاتجاهات ). ويتبع نهر تاغزوت ، وهو مجرى مائي جميل شبيه إلى حد ما بتفكنا، من قمة جبل الأرض بلأراضي بني بونصر. ويبلغ طول هذا القدر أربعين كيلومترا، كما توجد على جفتيه قرى وضخمات عديدة. وأحيانا يجري القدر داخل أودية ضيقة جدا. ويتم عبور مجراه القام بين الصغور، على ست كتل خشبية موجودة بقبيلة تازوت وحدها. كما يساهم الماء الصافي والحنيف، في دوران الحديد من دولاب المصطنع على طول شاطئ القدر.



وبخصوص الحيوانات الأليفة، لا نجد في كل تاهزوت سوى الأبقار والهيكل، لا ن  
 المراعي لا تكفي الماعز ولا الخراف. لذلك يقوم الأهالي بطف أبقارهم بأوراق الشجر. وحول  
 كل الضيعة المحاذية لنهر تاهزوت، تمتد بساتين رائعة مليئة بالخضراوات. وهذه البنية  
 الموجودة بأعلى الجبل كثيرة الأشجار وتتوفر الغلات أساسا على أشجار السندل والبرجار  
 والبلوط والأرز. أما البساتين فهي مليئة بالشجار الجوز والفكر والتمسكة. وقد عثرت في خريطة  
 خلسة بتاهزوت، الأماكن التي توجد فيها مناجم النحاس والقصدير والرساس والفضة والذهب  
 والحديد.

ويعيش هناك القسمان من تاهزوت في حالة حرب دائمة. وهذا الحد القديم بين أشخاص  
 من نفس الأصل، نابع من الاغتيالات المتكررة التي يرتكبها رجال هذا قسم أو ذاك. فالتاهزوتني  
 العنصر والجانب جدا، يفضي لمجرد كلمة ويضرب إلى حد الموت كل من يشتمه، بل وكل من  
 يمارسه.

وكلماتي العرق واللغة، فإن ملامحه متشابهة وطوله متوسط. وتعتبر أخلاقه منطية،  
 لأن مجاورته لجبال، وهي أكبر منطقة لوطية بالمغرب، جعل ميولاته الجنسية شاذة. فالحمام  
 gkon ، هذا الشخص الصغير المسمى بالمايل في البلد، يشكل جزءا من الحريم Gynécée،  
 وحتى النساء الشابات أنفسهن، يقبلن بهذه المناسة المنفرة ولا يخجلن من الاعتراف بأن العمل  
 يمنح لمتعة السيد، أحسن منهن. ولحسن الحظ، فإن هذا الجرح القبيح المتمثل في معاشرة  
 الظلم، ينحصر عند حدود جبلة. فهذه الممارسة مبهولة في الأجزاء الأخرى من الريف،  
 المبهمة عن أكثر تقاليد الإمبراطورية الشرقية تهكما. وفي المجد الثاني، منضطر إلى تحريك هذا  
 المعتقد الذي يبدو مستغربا من طرف جبلة، لكن، لنترك ذلك جانبنا الآن، ولنقل بأن الظلم  
 يمارسون في أسواق تاهزوت مثل البهائم.

وتعتبر تامازيغت، وهي اللهجة الأمازيغية المتكولة بين التاهزوتيين، مخالفة بعض  
 الشيء عن اللهجات المحلية الأخرى بالريف. وهي تقرب كثيرا من زوانا Zouana قبائل  
 الكبرى. وتدعي أسطورة استقدمها الدرويش من القبائل، بأن أصل قزولوا الجزائريين، من قبيلة  
 تاهزوت نفسها، وأن أجدادهم هاجروا منها إلى جرجورا في زمن سحيق. وغضلا عن ذلك، فلم  
 يوما هذا، ما زال التاهزوتيون والقزولوا يمارسون نفس الأصل والمهن. فهم باعة متجولون  
 وصانعو أسلحة. وإذا ما كان العديد من القزولوا قد بدلوا بتكلمون العربية، فإن أهالي تاهزوت  
 بالمقابل، لا يسمعون ولو كلمة عربية واحدة. ويمكن على ما يبدو، أن نجد لديهم مؤلفات محروقة

بالأمازيغية، ومن بينها ترجمة لسودي خليل وللأحداث النبوية. كما ينحصر أبهم المحلي في الحكايات الشعبية والأشعار.

وتنتشر تاغزوت في كل المغرب بصناعتها الفخاق المغربية، المميزة، التي أصبحت عرضة للمنافسة القوية من طرف الأسلحة المستوردة من إنجلترا وإسبانيا. ومع ذلك فإن المنطقة ( القنطرة ) لتاغزوتية ما زالت تشتري وتحظى بالتقدير من طرف القبائل الداخل التي لا يمكن للأسلحة الأوروبية أن تصلها، لأنها مستهدفة قبل وصولها إلى وجهتها.

إن لتاغزوتيين جمعهم تقريباً، هم بالقو أسلحة. فهم يصنعون كميات كبيرة من تلك المسكين الطويلة الشبيهة بالخناجر القهالبة. كما أن بعض التجارين يتقنون صنع الصناديق الجميلة والصحن الكبيرة من الخشب ( قصعة ) وهياكل السفن إلخ... وكانت هناك محاولات في القبيلة لاستغلال الثغرة للمنطقة، لكن بدون جدوى.

وقد اعتكرت خمس زوايا مناهم الذهب والفضة، لكنها لم تستطع منها كما يجب. وينحدر شيوخ هذه الزوايا من سيدي محمد لغمرش الذي تلقى بركة الوالي الشريف مولاي عبد السلام. ويوجد أيضاً صانعو الأثاث الذين يشتغلون على الأرز والسرو بالخصوص، حيث ينجزون أثاث بيت متميز. وتمارس صناعة القطران من طرف عدد قليل من الأفراد الذين يحصلون على قطران والزفت بالطريقة التقليدية؛ يتم داخل مرجل مثقوب مثل الكسكاس ( وهو قدر الذي يطبخ فيه الكسكس ) تحريض الخشب الصمغي لبخار الناتج عن غليان الماء، ويوضع القطران الذي يسقط قطرة قطرة بخلاية أخرى.

وكالمخولهم في جرجورا، فإن أهالي تاغزوت ينجولون كبائعين في القبائل الأخرى، عارضين الجوز وقشرة شجر الجوز لتبييض الأسنان واللوز والمخازل والبارود والرماس. ورغم تميزها باستقلالياتها، إلا أن القبيلة تبعت إلى السلطان كل سنة بنادق جميلة. ولا يكلف هذا النوع من الضريبة أكثر من خمسة سلتمات بالنسبة لكل فرد من أفرادها. ومن جهةها، فإن قبائل بني بوشيت، بني بونصر، بني بشير، مريسة وزرقت، لا تؤدي أكثر من ذلك. فهي مثل تاغزوت، توجد في منطقة فقيرة نسبياً. وأغلب مداشرها مبنية فوق جحور حاوية للمعادن *métallifères*. وتزعم الروايات أنه في عهد السلطان الأكل، كانت السلطة المركزية تشمل مناهم هذه القبائل. ويحكى أيضاً أن نفوس Docius شيد قرب كل منجم حصناً ما زالت آثاره بادية للعين. ولا يعرف الأهالي كيفية استغلال ثرواتهم المعدنية، وهم يطمون أن بإمكان الصاري الاستفادة منها، لكنهم يخشون من تأثير مجيء الأوروبيين على استقلالهم. فهم يفضلون الموت عزاً فوق منجمهم الذهبي، على أن يرضوا حريتهم الممزقة للخطر.

وتشتر الدار هي مسكن قروي، وتشكل في القبال الجنوبية من طابق مغلي بالنيس  
*ampelodes mostenax* وأحياناً بالجرير *chamoerops humilis* أو بالخطاء *stips*  
*tenacissima*. وفي الشمال يقطن أهلي القبال البحرية بمنازل شاسعة، مبنية بالطين وذلك  
طابق أو طابقين وسطح. ويخصص الدخل الرباعي الأضلاع المحلث بالمشق، كساحة واسعة  
حوت بها مطاير لقرن الحبوب. وتستخدم هذه الساحة أيضاً كزريبة للماشية؛ وفي الوسط توجد  
أربعة جذوع ضخمة للأشجار وضع فوقها برج عال من الخشب. وعلى قمة هذا البرج، يقف رب  
الأمرة حارساً، حينما يكون عدم الأمن سائداً بالخارج. فمن موقعه المرتفع، يتحكم في المحيط  
الخارجي ويحطن عن الخطر ويستقبل بطلقات البندقية أولئك الذين يريدون مهاجمته. ويوجد لقرن  
الذي يبيت فيه الخبز وسط الساحة التي تفتح عليها أبواب البيوت. ولا يتميز بيت الريفي بأية  
خاصية. فعلى طول المحيط الأربعة المطوية بالجرير عند الأغنياء وبالبون الأسود عند الفقراء،  
توجد مصطبات واسعة وضخمة يصل علوها إلى متر، وتستخدم للجلوس نهاراً والوقوف ليلاً.  
وفوقها هناك رفوف متينة مغطاة بالمحاط، توضع عليها الملابس وأحوات الطبخ والأسلحة  
إلخ... ولا وجود للمرحاض بالمنزل، إذ تقضى الحاجة في الحقول؛ لكن يمكن أن تجدوا بالمقابل،  
في المصلى والمسجد، ويحاط كل مسكن، وبكثافة، بالثين الوحشي القديم العهد *opuntia*  
*vulgaris*، وهو مصدر غذائي هام بالنسبة للمعوزين الذين يستهلكون بشكل مخيف، هذه الفاكهة  
ذات القشرة الشوكية الحمراء والمذاق الحلو الذي قد يكون بنون طعم، والذي يسميه العرب  
"كرموس القصارى".

الرجع الآن إلى الدرويش الذي تركناه بقرية القلعة. فقد ذهب رأساً كماكنته إلى المسجد،  
حيث وجد مجموعة من الشباب المنشغلين بحفظ القرآن وتلاوته بصوت عال. ولم يكن لخطوله  
المسجد أي تأثير على الحاضرين، فقد جلس إلى جانب أحد الطلبة وشرع في تلاوة آيات القرآن  
الكريم معه. وسويت بالمسجد بعد تناول طعام العشاء مع زملائه الجدد. وفي القد سيسمح له  
الطعم بمطبخة دروسه.<sup>16</sup> وهو ما يعني أيضاً الحصول على فريضة (الطعام والمبيت بالجمع).  
ويقدم الطعام من طرف السكان المصنفين الذين يعتقدون بأنهم ينجزون عملاً صالحاً، عبر الإنفاق  
مدة سنوات عديدة، على ثياب منشغلين فقط بحفظ سور طويلة من القرآن، لا يفهمونها من  
جانبيهم. وللتقضي الموضحة الجبلية التي أخلت إلى تاهزوت، أن يراق كل طالب رائداً، عليل،  
وهو عبارة عن خاتم خسيس صالح لكل شيء *ignoble factatum*. ويبدو أن هذا الاحتياط يتم

<sup>16</sup> - إن المطرية لا يمشون بصر الطالب، وسواء كان صوره عشر سنوات أو أربعين سنة، فهو يظل دائماً شبيهاً  
طالبا لهم. ولا يقد هذه التسمية إلا حتماً يصبح لساناً أو عدلاً أو حد تركه من مكتبة الدروس

لغته للحفاظ على حلة الشبان لبهاء الأعيان. وأن يخرج الدرويش عن هذه القاعدة فقد جلب معه من كلمة، غلاما لولاه لما سمح له بالمطعم بالبقاء بالمسجد والامتقانة من دروسه.

وسامم وجود معدن الذهب والقضة الذي كان الأعلى عاجزين عن استخلاصه، في ميلا حبي قبالية cabalistique في القبيلة، سوشمر الدرويش نفسه بتأثيرها عليه. في تلك المنطقة، سيتم تلك القرع من السحر الذي يدعو العرب " الخفطاطيرا Khark'atira "، وهو نوع من اللعب السحري يتم فيه تحويل الأشياء. ويؤمن المغاربة ومسلمو وهران كثيرا بالخفطاطيرا. وقد أكد لي أشخاص موثوق بهم، بأنهم رأوا بأن أعينهم تحويلات مذهشة تمت في حضورهم. مثلا، يأخذ السحر أوراها يابسة ويضفيها تحت رداءه، ويتلفظ ببعض الصيغ السحرية ثم يرفع الرداء، فيتحول الأوراق إلى إسفنج أو فطر يتعين الإسراع بأكثها، لأن هذه المتوجات تحول لأشرف، في العودة لحالتها الأصلية. ويمكن للفنس الأوراق، وبزيادة السحر، أن تتحول إلى قطع ذهبية أو فضية، وسيكون وجودها زائلا مثل الفطر في حلة إذا ما لم يتم صرفها. هكذا، سيجد المنزل في تلك، الأوراق اليابسة بدل النقود الذهبية الجميلة التي وضعا بالراحة في مضفظة أو صندوقه. وسأكشف هنا سر " الخفطاطيرا السحرة "، التي أهدبها إلى محبي المعارف الفلسفة، وأخبرهم بأنني أوفر على النص العربي للتصيفة القبلية، وهو رهن بشارتهم. وإليك الصيغة السرية التي كنت بترجمتها: " خفوا سبعة من رؤوس الخفافيش وسبعة من جلود القطبين وأحرقوا كل تلك. خلوا سبع قطع من الدهان المستمد من نيس أسود، اسطوها وخنوا سبع قطع من القشة Ale البيضاء، اجهنوها بلبل ماء الكرفس. طمروا كل تلك، بلبل ركام القمح من زيل الأسمدة يرجع تاريخه إلى ثلاث أو أربع سنوات، ثم أفرجه بعد مرور واحد وعشرين يوما، ضعه بعد ذلك في صندوق ستمسكون به أثناء الصلاة. آنذاك، نطقوا بقراءة قلبية التي يجب حفظها عن ظهر قلب وهي: يا ابن أبنائك، يا ابن أبنائك، أظهر معجزتك.. أين هو سيد السحاب؟ أين هو الملك الذي توج رأسه بتيان بمائة رأس والذي يحتوي فيه كل رأس على كف وجه وكل وجه على كف ثم وكل ثم على كف لسان وكل لسان يذكر كلمة الله بكاف لهجة مختلفة.. أين ثنين، ششوشين، كحوشين، أوشين، كحوشين، إولحين؟ بسرعة.. بسرعة.. خورا! خورا! اسرعوا! اسرعوا! انكلم هذه الأسماء في تحويل هذا الشيء ( يتم ذكر اسم الشيء موضوع التحويل ). أين هو العهد القديم بينكم وبين سليمان بن داود؟ اسرعوا قبل أن تسقط عليكم الصاعقة.. انظروا إلى ما أكرتكم به، بارك الله فيكم .."

إن المغاربة هم أكبر الدجالين في العالم الإسلامي. فهم يستظنون بسهولة مذلة إخوانهم في القلة وكذلك مذلة الكافرين. وكما من الأوروبيين وحتى من الفرنسيين، كانوا ضحية هؤلاء

المكتشفين للكنوز والمعارفين الذين يحققون أمام الرائي أحوالاً معجزات تؤثر بقوة على المصنوعات المهزوزة لأولئك الذين يتجوزون إلى حليم \* السحرية ..

إن جبال تاغزوت شامخة، بحيث تتواجد القلوج في قسمها أثناء فصل الشتاء. وفي الأماكن المظلة للوديان العميقة، تظل القلوج قائمة في عز الصيف. وعادة ما يجري نهر تاغزوت ورافده نهر بني بوشيت، أسفل الجبال، داخل وديان عميقة وضيقة. وبسبب القروات الممتدة لبلدهم، فإن أهالي تاغزوت يزعمون بأن قبيلتهم كانت هي المنجم الذي التفت منه كل النوع الإنساني. وفضلاً عن ذلك، فإن تاغزوت، تعني في لهجتهم، المنجم والمكان المتوفر على كل شيء. وتمحى في هذه القبيلة حوالي خمس وأربعين قرية، تتضمن كل واحدة منها في المتوسط مائة منزل.

### القرى الرئيسية بتاغزوت

- أيت علي ( أولاد علي ) : 300 منزل؛
  - زاوية سيدي محمد الأخضر<sup>17</sup>؛
  - تارووت ( التسمية أمازيغية ) : ( الصخرة الصغيرة )، 100 منزل؛
  - القلعة ( التسمية عربية )، 100 منزل؛
  - القوي العسكرية: 8 ألف رجل من المشاة؛
  - العدد المحتمل للسكان: 40 ألف نسمة.
- ولا توجد بها طرق، بل فقط مسالك للجمال. التعليم الابتدائي قليل الانتشار. وفي سنة 1893 كان القائد هو المسمى : محمد الأخضر.

<sup>17</sup> - تطلق لفظة ( التسمية أمازيغية ) في المطلق التي تتحول فيها أراء إلى لام : لفظة، جمع لفظة، وتعني المبروك.

## قبيلة بني بونصر

( أبناء قنصر )، ( التسمية عربية )<sup>18</sup>.

تحد غربا بتاهزوت ( الريف ) وجنوبا ببني بوشيت ( جبالة ) وشرقا بزرقات ( الريف )  
وشمالا ببني غنوس ( الريف ) . وتمتد على عشر كيلومترات طولاً ومثلها عرضاً ( ربع يوم من  
المشي في كل الاتجاهات ) . وتشغل مع بني غنوس وبني سودات أعلى قمم جبال صنهاجة  
بالريف . كما أن القنوج التي تتسلق بكثرة على هذه القمم، تجر الأهلالي على السكن داخل بئليات  
وبلطة وضخمة . وتوجد القرى في قلب الغابة . ويكون فصل الصيف معتدلاً وعليلاً بل بارداً  
أحياناً، إذ يضطر الأهلالي في ليلي شهر يوليوز إلى إشعال النار للتدفئة . أما المياه فهي موجودة  
في كل مكان، في الينابيع والجدول . وعلى قمة جبل الأرز، يبدو المنظر البهي لقرية تدميت ذات  
الحبس مائة منزل تقريباً . وقد أدى منبع وافر المياه وسط البلدة إلى انبثاق واد تدميت . وجبل  
الأرز شاهق جدا وهو مكسو بغابة من الأشجار، نجد من بينها أشجار الأرز الثمينة . وتكثر على  
جنبته الكروم وأشجار الجوز وهو يمتلئ تحت شطاء نباتي أخضر . ونجد في القبيلة الكثير من  
فماز والأبقار . أما الزراعة الرئيسية في الأودية، فهي زراعة القنقي ( وهو نوع من القمح  
الأيض ) والحبس . ويستهلك الأهلالي بكثرة، النواة الطوة للأرغال Argal . وهذه الأخيرة هي  
شجرة بحجم شجرة القسطنق . وتشبه فاكهتها الفول السوداني، بحيث يتم طحنها ويستعمل الدقيق  
المحصل عليه، في صنع الخبز والكسكس والزمونة ( الدقيق المستمد من القمح لمحبس والذي  
يبل في الماء ليؤكل ) والحريرة ( التي تطبخ بالفلفل والتم ) . وفاكهة الأرغال سوداء، شديدة  
الحلاوة . وأغلب البساتين مكسوة بالعسل والذرة والفلفل والبقطين .

وكتجار منجولين فإن أهالي بني بونصر يبيعون في تجوالهم، الجوز والوز والمخازل  
والقطران والزفت الخ... وقد يقيضون هذه المواد بالصوف .

وما يصدرون أيضا " قصاصات "، وهو هلام الحنب gelée الذي يتم صنعه عبر تجفيف  
هذه الفاكهة، ونظرا لصلابة الطقس، فإن الصلابة تنسم بالصموية . ونرى في كل القرى قنورا  
موضوعة خارج المساكن، يتم تحضير الهلام فيها . وإليك الوصفة: يصبر الحنب للقنصج ويطح  
للمصير الموضوع في قدر، ثلاث مرات، وبعد كل طبخ يترك ليبرد ثم يوضع على النار بعد

<sup>18</sup> - بلما، كما لاحظنا على التسميات القبطية دون تصحيح ما يمكن أن يشير خطأ بالندبة إلى القنوج العربي.  
هكذا، فإن بني بونصر يجب أن تكتب بالعربية القسسية: بنو أبي نصر . ولما فهم هذه الملاحظة المرة الأخيرة.

ذلك . ويهجز الهلام حينما يصبح المحصور الذي خفض إلى القطن يفسد التبخر، مضطرا وحلوا كالصمغ. لذلك يمسك في جرات كبيرة ويحتفظ به إلى ما لا نهاية. ويؤكل هذا الهلام بتدويره في الماء. ويستمتع الأطفال كثيرا بشرائح الخبز بالهلام الخالص. أما الصامت الممسك *enivrant* وهو نوع من الهلام المؤدي إلى السكر، فلا يطبخ سوى مرة واحدة. ويستهلك الصامت الكحولي بكثرة عند جباله.

إن الصوف الذي يتم جلبه من طرف القباعة المتجولين، يستخدم من طرف النساء لصنع الجلابيب التي تباع في أسواق القبيلة. ويقوم الرجال من جهتهم، بصنع البارود وقصاص ومقاييس البنديق المصنوعة من شجر الجوز. ولهذا سميت الجبال الصنهلجية بالريف " صنهلجة السرا " أي صنهلجة خشب البنديقة. وليس أمالي بني بونصر جلابيب مخططة بالأبيض والأسود، أما النساء فهن يرتدين الحايك. ويتكلم جميعهم الأمازيغية، وتحدثنا تمازيغت لغة. ولا تتحجب النساء فأغلاكين طيبة. ومن القواني يشتغلن بالفلاحة ويستخدمن المحاول، لأنه يستعمل في العديد من الأماكن، حرث هذه الأرض الوعرة. كما أنهن يحصدن ويمارسن البستنة ويعلمن برعي الماشية، ويلتقي بهن الرجال أنفسهم في رحلة تقريبا. وتنتزع قبيلة بني بونصر إلى ثلاثة أقسام وهي: الربيع القوقلي<sup>18</sup>، بني حماد وتمديث. ويمكن لكل قسم أن يحدد 500 رجل من الماشية، وهو ما مجموعه 1500 رجل بالنسبة لكل القبيلة. وتتوفر هذه الأخيرة على الكثير من الطرود وعلى بعض الحيوانات المتوحشة. ويلقي عرب الداهل عدد بني بونصر لمقايضة زرعهم بالجوز واللوز والحب والشعير والقمح الهندي للتخمين. وتجد في القبيلة أيضا الكبار *calprea* والزعتر *thym* والمرمل *Peganum harmala* وفليو *pouliot* والبطاطس.

ولكل قبيلة رغبة فاضبها، ويقصر دورها على تغيير معاملات أفرادها. فهو يعمر عتود الأزواج والبيع والطلاق ولا يهتم أبدا بالمعادلة الجنائية في بلد لا توجد فيه أية سلطة محترف بها. وسنحدث فيها بعد عن التنظيم الإداري لهذا الشعب المتمرد.

وهناك أمر غريب، وهو أن الصابون غير معروف عند بني بونصر، لأن القبيلة غنية بالطين المنظف للثياب *Terre à foulon*، وهو نوع من الطين الأبيض الذي يكون رهوا ويذبل الأوساخ عن القميص بشكل جيد. وتوجد كل قرى بني بونصر وعددها 50 تقريبا، على جوانب واد تمديث وواد تاغزوت. وهناك فسحات كبيرة بين المنازل، كما أن عدد المساجد كبير، وهي تستعمل كمكان إقامة الغرباء والمطلبة الذين يحظون بضيافة مجانية وطيبة.

<sup>18</sup> - بني الربيع القبيلة في الدارجة المغربية. وهذه الكلمة المنجوعة بالقوقلي والتمشتي، تشير إلى أن الأمر يتعلق بالإنس الحيثي لهذا القسم من القبيلة، الذي استعمل على محرقته.

### القرى الرئيسية التي يناصر

- تهرقت ( التسمية أمازيغية / عربية )، 300 منزل،
  - تفسوت ( النساء ) ( التسمية أمازيغية ) 500 منزل،
  - بيلان ( القفرون ) ( التسمية أمازيغية )، 300 منزل.
- القوة العسكرية: 1500 من المشاة، عدد السكان المخطط: 7500 نسمة والبلدية جبلية بدون طرق وتحيط بها الغابات من كل جانب. ولها نفس قائد القبيلة السابقة. أما التعليم الابتدائي فهو قليل الانتشار، وبالمقابل فإن الاغنياء كثيرة في تلك الربوع.

### القبيلة بني خنوس ( أولاد الخنزير الصغير )

إن هذه القبيلة الموجودة فوق قمة الجبل، لا تتلقى أبدا زيارة الغرباء، بل يقال في قريش، بأن السلطان يجهل وجود بني خنوس. ففي كل مكان، توجد صفور ضخمة ومنحدرات جبلية خطيرة وغابات شاسعة وقطعان من القردة.

وحيثما وصل القرويش عند هؤلاء المتوحشين، أحبط من طرف الأهالي وتم جسه وتفتشه بدقة لكنه لم يتعرض لأي أذى. وقد تم حمله إلى جحر يستخدم كمسكن وحصل على مذبح الحبات من القلوب الطلو كتحذية. وبينما كان رحلتنا بمضيق هذه الثمار بصعوبة، نظرا لصلابتها، دخلت عليه مجموعة من الخنازير الأليفة وهي تصدر أصواتا مزعجة، تحصل دلالة مع ذلك. وبقرة واحدة وقف القرويش واضطر رعاها هذه، إلى التخلي لضيوفه القجد عن الجزء الأكبر من الثمار التي لم يجد الوقت الكافي لأكلها. وسلاحظ بأن هؤلاء الأهالي القليلي قورح، يربون الخنازير مع الماعز. ويحش الجميع في نفس الكهف، في غابة الاسجام، بما في ذلك رب الأسرة الذي يسمن بالعلية، وبواسطة ثمار القلوب، هذه الخنازير الصغيرة التي تتطلب لديها المملوق. إن القرد من بني خنوس لا يذاخر غابته أبدا. فهو يزرع للاستهلاك الخاص، أنواع الكرفب والفشوق والكهف. وهذه القبيلة قرعية التي لا يجرؤ أحد على المغامرة بزيارتها، بسط قبح عزيز. هكذا، وبعد فضله لثلاثة أيام بين هؤلاء المتوحشين، سيجرح القرويش بالابتعاد عنهم، وقد اثمار منهم ومن طعامهم القروي. فهو بقي بين ظهرانيهم تلك المدة ليتأكد من أن



لهجنهم هي تامازيغت وأن قبيلتهم تمتد على عشر كيلو مترات طولا ومثلها هرجازا ولها لتضمين  
 لسمين: فواد وثازروث ( الصخرة الصغيرة ) وما مجموعة خمس قرى. أما قوتها العسكرية  
 فتتحدد في ألف رجل من المشاة. ولا يوجد فيها أي متعلم أما مسالكها فهي وعرة جدا ولا توجد  
 بها أية طريق.

## 20 قبيلة بني سداث

هي قبيلة صغيرة تمتد على 10 كيلومترات من جميع الجهات. وتحد شمالا بمتوة  
 وجنوبا ببني خنوس وشرقا بزرقت وغربا ببلقوم جبالة. وتوجد ثلاثة أقسام بالقبيلة: لكرار  
 ( الجبل)، إغملوشن (المباروكون) وأزيلا. وفي المجموع هناك ستون قرية في كل واحدة منها  
 مائة منزل تقريبا. وهي بلدة جبلية بشكل كبير، تحيط بها الغابات والمنحدرات والشلالات  
 والجداول من كل جانب. وتكون مكسوة بالثلوج في فصل الشتاء. لذلك، فإن الأهالي يدخرون  
 القمونة عند نهاية فصل الربيع وفي الصيف. وتبدأ الأمطار في الهطول عند نهاية الخريف، مما  
 يجعل المسالك غير مستعملة. وتوجد فيها الطرقات بكثرة، وهي تشكل الغذاء الرئيسي للسكان ويتم  
 الحفاظ عليها لمدة طويلة. ومن بين حيواناتها البرية نجد الفهد والضبع والخنزير، وغالبا ما  
 يتغذى القرعاء بهذا الحيوان الأخير. ويستخدم القلوط للحو والارغال في صناعة الخبز. كما يوجد  
 الفحل بكثرة، لكن مذاقه مر، لأن النحل يلقح أزهار بختنو bekhnenu ( بلغة تامازيغت ) أو  
 لاسلو ( بلغة زواوا ). وهذا لا يمنع الأهالي من قتلها طبعه. وتوضع لخاتها داخل المنزل  
 بسبب قساوة لطف.

وما أن دخل الدرويش إلى أراضي بني سداث، حتى يادره شيخ التقى به في الطريق  
 بالقول: " يا صاحبي، إلك هنا في بلاد السيرة. فلا تقل لأحد بأنك جئت من تاهزوت، لأنك ستقتل  
 حينئذ وستجرد من أملاكك ". وفترق الرجلان ثم استمر الدرويش في مشيه. وفجأة شاهد بالقرب  
 منه مجموعة من الأفراد يمثلين على الأرض، صائتين ومصوبين بنفخهم نوحا واعتد في  
 قبلية بأنهم رعاة. وسيتوقف أحدهم موجهها إليه الحديث بالأمازيغية.

- jouachou ou territ fellanegh esselam ? ( لماذا لم تسلم علينا؟ )

20 - أصل الكلمة مشكوك فيه. وقد قيل لي بأن هذه القبيلة سميت كذلك، لأن قتلح والضباب يحيطان بها ويسدنها  
 من كل جانب. وإذن، فإن سداث هذه الكلمة العربية المعززة، سحرت عن الجذر سد بمعنى أغلق وأغلق بشكل مريح.

- الدرويش : a oulidi, our zrir' had ( بالعربي يعني لم أر أحدا )

- الرجل : anisik kedj ( من أين أنت ؟ )

- الدرويش : Nekki d akthami ( أنا من كلثمة )

عند هذه الكلمات وقف جميع الرجال سائمين : kedj d'ather'zouthi ( أنت من

تاغزوت ) . وقال له الشخص الذي يبدو هو الرابح :

- Tikhret fellas. Aih k'echchether'. Itskiddib ! Netta d'azouggar' .  
Aih tar'zouit d'izouggar'en am netta.

( ايتحدوا عنه . سأسلبه أنتمته . إنه يكتب... فهو أشقر . وكل أهالي تاغزوت هم شقر

بنقه ) . ومضيف : " اخلع ملايك يا ابن النصارى " .

بعدها ، سوسوب بندقته نحو الدرويش صارخا : " ألم تطلع ملايك بعد ؟ " وإن يسمع

محمد أكثر من ذلك . فقد ألقته بد قوة أرضا وجردته برمشة عين من كل ملابسه . وقد فقد من

جاء ذلك ، جلابتين وزوجا من النمل وأربعين سنتيما وغطاء رأسه ، أي أربع أو خمس طوالي

بيضاه موضوعة فواحدة فوق الأخرى ومحاطة بمسامة . لكن السؤال هو : لماذا كان كلثما بهذا

الشكل الفاجر ، وهو الذي كان يسافر عادة بأسمال بالوعة ؟

وقد طلب الدرويش بنطيه لكن دون جدوى ، ولم يترك له سوى قميصه . ولما ألح على

استرجاع القطن ( لأنهما كانا جديدين تقريبا ) ، قيل له بقسوة : Sousem a ner' ak ner'nes :

( أسكت ولا نهبطك ) .

ويكون الهواء في هذه الجبل الشاهقة باردا ، كما تهب رياح قوية جدا . وقد أحس

الدرويش الذي ترك لحاله قميص من القطن فقط ، بالتأثير القوي لرياح الشمال الباردة ، حيث

بدأت أسنانه تصطك بفعل ذلك . وظل يمشي حله يثقا قليلا ، دون أن يدري أين توجد قرية تزمننت

التي يقصدها . وعندما سأل أحد الرحالة عن موقعها ، كان الجواب هو : " اتبع نفس الطريق . وعندما

تصل إلى قمة الجبل ستري القرية . لكن احتط من الثلج فهو يوجد بكثرة هناك " . وفي الطريق ،

التقى محمد براع آخر يمشي ويحزف على قمة الصخريين فسأله : " هل هناك تلج على الطريق ؟ "

ولأن الآخر شخص ماهر ، فقد فرأى أن يخدع هذا الرحالة صاحب القميص وقال له : " كلا ،

كلا ، لا يوجد هناك تلج " . واستمر الدرويش في صعود الجبل مطمئنا إلى كلام الراعي . وعندما

وصل إلى قمة الجبل ، رأى بأن الجانب الشمالي لهذا الأخير مكسو بالثلج عن آخره . ومن المؤكد

أن تزمننت توجد عند السفح في صق أحد الوديان . لكن كوف السيل إلى اكتشافها وسط الأشجار

وهذا الرداء الأبيض الناصع ؟ وبدأ الهبوط وكما تقدم في المشي غاصت رجلاه في الثلج . ولأنه

كان يرتدي قميصا فقط ، فقد كاد أن يموت من البرد . وكان يمشي بحذر مخافة السقوط في إحدى

الهاويات. ولم يكن يعرف مكان وجوه وبدأ يبأس من الفجأة أنفذه سم نباح كلب. ويبدو أن هذا النباح كان صادرا من عرق الوادي الذي لم يتمكن عيون الدرويش المتعبة من رؤيته على بعد مئات الخطوات منه. وكان اللون الدلكن للأشجار واللون الأسود للأرض يشيران إلى أن القلج لم يعد موجودا بهذا الوادي المسجد والمعتدل الذي يتعين بلوغه قبل حلول الظلام.

وسيقوم الرحالة بمجهود أخير. عندما شعر بأن الأرض القبلة. هذه الأرض المرغوب فيها التي تحسر عنها القلج، قد أصبحت صلبة تحت قدميه وهو ما كان يتطام منذ ساعات. وفي نفس اللحظة يظهر له بعض المنازل المنعزلة وسط أشجار عذبة. لقد كانت تلك هي ترميث وما هو قد نهجا. وجر قدميه إلى أن وصل إلى باب المسجد حيث سقط منهوكا. وقد دعش طهب كان خارجا من المسجد. من رؤية شخص يقصر واحد في هذا الطقس البارد. وعلى الفور، سيرجع إلى المسجد وسينادي رفاقه قائلا: *Aouith ed timessi . As mud del tafginth adizzizen* ( اشلوا القلج. سنصلح له شطة بتكفا بها ). وتبعه كل الطلبة في العمل. وبعد قليل اشلوا نارا عظيمة من خشب قبلوط ستساهم حرارتها القوية في إبعث الدرويش المسكين بشكل أسرع مما كان يريد. لقد تم تقريبه كثيرا من القلج إلى درجة أنه كان أن يحرق حيا بعد أن كان يموت من البرد. وسيترك هذا اليوم الصور أثرا لا يمحي من ذاكرة محمد. وحتى وهو يروي لي هذا الحدث، كانت أنفاه تصطك وكان يلحن بقوة من سلوه أنفاه والقراعي المنحوس الذي نله على الطريق.

هكذا، سيحيط طلبة ترميث بـمحمد، وعندما رأوا علامات الانتماء بلدية على وجهه أدخلوه المسجد. وستوضع أمامه ملة صغيرة مستديرة من الدوم، مينة بقلوط المشوي والسفن. وبعد ذلك، سيقد له صحن مليء بـسانبو المفلح بالملح والهندية المشرحة والصل الحاد المنطق والزلمبو ( ثمرة الأرحال المشوية ) والشفتي ( الزرع الأبيض ) والفول والمرحو. وسيناركة الطلبة طعمه. حيث سوفسون أصابعهم في الصل ليضعوها بعد ذلك في الزميت ( الفلفل المشوي ). وبعد الانتهاء من الأكل، ستقدم لـمحمد كبة ملاكمة وسيعين له ركن بالمسجد للدوم الذي سيخلد له الجميع.

وفي الصباح، عندما استقر الدرويش عن مكان إقامته، كان الجواب كالتالي: ' إنك توجد في تشيرة ( قرية ) ذروتان المسماة أيضا ترميث. وبما أنك شرقي ( من الشرق ) فانت مطلب قبل الذهاب إلى أي مكان آخر، بزيارة قبر سوي محمد نجيمون، أشهر ولي في بني سيدات، وهو مدفون في قلب الغابة، وكان يعيش في القرن التاسع وحق العديد من الكرامات '.

لا لنفسى، في هذا الإطلال، بأن المغرب ملائحة خذت الرسول محمد ( ص )، هو الجزء من العالم الإسلامي الذي يوجد به أكبر عدد من الأولياء. وتمتدعي سيرة كاملة لحياة الأولياء، عمر باحث وخمسين مجلدا in-octavo .

ومن بني سيدات، يمكن الإحاطة بالبحر الأبيض المتوسط الذي تظهر صفحته الزرقاء من بعد. ويعتقد أهالي هذه القبيلة جازمين بأن كل سفينة مسيحية تمر على مرأى قبر سيدي محمد دجيمون، فالموجود على الجانب الشمالي من الجبل الذي يقابل البحر، تنكسر وتتهدم وتغرق في ضبع طائق.. وهناك كرامة أخرى لهذا الوالي: ففي أحد الأيام، جمع حيوانات الغلبة المتوحشة وخاطبها قائلا: " لا أريد أن يضيع أعزائي من بني سيدات وقتهم في حراسة مواشيهم. وستذهب الفاعز والأبقار والحمير والبغال إلى الغلبة بدون حارس، ويمنع عليكم مهاجمتها وأكلها ". ومنذ تلك الفترة، دلت المواشي على التجول بحرية داخل الغلبة في أمان تام. وعندما يقبل الليل، تعود إلى منازل مالكيها. وتشكل الأبقار استثناء لهذه القاعدة، فهي تعيش في حالة توحش إن صبح قنجر، في الجبال؛ لكن حينما يريد الأهالي استخدامها أو بيعها أو أكلها، فإن القنص عليها يتم بسهولة. ولا تمتلك القبيلة جهادا، لذلك يتم إخصاب إناث الخيول عن طريق جواد مستقدمة من المناطق المجاورة. وتحكي أسطورة أن ابن لوي، الراغب في عصيان أوامر الولي، أراد مهاجمة معزة سيداتية، وحطى القور، أحاطت به القطعان من كل جانب، وقضى عليه بضربة قرن ميتة. وقبل موته، أمر الوالي المبارك سيدي محمد دجيمون أتباعه بإقامة وعدة ( حطة إسمانية ) كل خميس قرب ضريحه. وإذا ما كانت هناك كرامة، فإنها تتمثل في اتباع السيدتين بدقة، وإلى يومنا هذا، لأوامر السيد. وسيفتقل الدرويش أحد أيام الخميس لزيارة الولي، ولثناء دخوله الضريح سيدهش أمام بقاءه العظيم وزخرفته الداخلية، العدد الكبير من الزائرين الحاملين معهم أضميتهم. ويلج الأملغيون الضريح وهم منجحون بفسلاح كالجنود؛ بجلايتهم السوداء والقصيرة التي تصل إلى الركبة وسراويلهم الضيقة التي لا تتجاوز الركبة أيضا. ويضعون لشرطة من شعر الجمال حول رأسهم العاري ويتوشحون ببندقية بوشلر المستقدمة من تطون. ذلك هو المظهر المثير لهؤلاء الجبالين المتوحشين الذين ما أن يدخلوا ضريح السيد، حتى يفرخوا بذانهم في الهواء. وبعد كل طلقة يصوح البراج: " مرحبا بالقبيلة فلانكية " وبعد الزيارة يخرج المحاربون ويقفون بشرقة أمام مدخل الضريح ويخرجون سكاكينهم الحادة من أعصمتها ويشرعون في ذبح أضميتهم التي يسول دماها سلخا على الأرض، مرددين العبارة الخاصة بهذه المناسبة. لذلك فقط، يضعون أسلحتهم . وبالتكرير، يمثل السوق الذي يقام حول الضريح. ويجب على الرجال أن يدخلوه بدون سلاح، ولا يستردون بذانهم الموضوعة داخل الضريح، إلا عند

رجوعهم إلى منازلهم بعد انتهاء الوحدة. وتكون هذه الأخيرة مناسبة لاستهلاك الفطوح للكسكس واللحم والحلويات الخ... وبعد القراء الذين تقام الوليمة من أجلهم، متعة كبيرة في ذلك. ومن جانب، فإن الدرويش الذي تمتصه الأطعمة الفاخرة التي يتناولها بانتظام في ضريح الولي، يستطلب المكوث بقرية تزحميث. ولأن زيارته الولي أصبحت متكررة ومظهره الورع أصبح مقاما، فقد اقترح عليه بعض الأهالي بأن يكون حارما لذلك المكان المقدس. غير أن فضوله الطبيعي ورغبته الملحة في التنقل منعا من قبول هذه الوظيفة المريحة، مفضلا عليها رغبته في الاكتشاف. وبعد شهر، سيغادر القرية، متجولا داخل القبيلة، حيث كان ينام كل ليلة بقرية جديدة، ويتقى في كل مسجد الضيقة التي تحبر ولجا مقدسا لدى كل سكان المغرب. وفي هذه المنطقة، يصود الأمان نسبيا. فالسيدانسون هم أناس سلمون، لا يكتفون إلا نادرا ولا يمزحون أبدا. وهم منقولون حول ذواتهم، لا يريدون زيارة جيرانهم ولا أن يقوم جيرانهم بزيارتهم. ولأنهم يبتعدون عن الساحل، فإنهم لا يعرفون التصدير ولا الاستيراد ويجهلون كل أنواع السكريات والشاي والقهوة والسكر والقطنيات الأوروبية. ففي هذه المنطقة لا يعرف اليهودي ولا النصراني والزراعة السائدة لديهم هي زراعة القطن والكيف والشوق. ويستهلك الأهالي الكيف والحشيش، وأيضا الأفيون ولها يدعى الكبار<sup>21</sup>، يتوفر على خصائص مخدرة. ويدخن النساء الكيف مثل الرجال ويرتدين ملابس صوفية. ويتشكل الطعام الرئيسي للقبيلة من قبيصار<sup>22</sup> والكسكس بالفلو والقمح والحبلة (البزلاء) وقشرة شجر الأرز التي يشبه مذاقها، لحم الحيوانات، عندما تطبخ بشكل جيد. ويحضر الحارون طعاما مرغوبا فيه ويأكله الرعاة النهمون ثينا، بمعدة البلوط الذي لا يقشر بالكامل.

وفي إحدى جولاته، فوجئ محمد بن الطيب برداءة أحوال الطقس واختبا تحت شجرة بلوط *quercus ballota*، غير بعيد عن حظيرة يرتفع منزل وسطها. وكان الثلج يتساقط بكثرة وبدأ يغطي جسد الدرويش. في تلك الأثناء، خرج شيخ من ثقب بسياج الحظيرة وسأله بمزاحمة: *Manis tchouchedh* (عن أي شيء تبحث؟) وسجبه الدرويش: *k'imer* oua ha (إنني جائع هنا فقط). وسيتم الحوار التالي بينهما، وهو الحوار الذي أتركه للدرويش مسؤولية نقل اللهجة السيدقية الخالصة التي تم بها.

- الشيخ: *stad'fedh r'er taddarth innou ?* (هل متكل في منزلي؟)

<sup>21</sup> - وهي كلمة شبيهة بكلمة كابر *calpre*، لكن الأمر لا يتعلق بشجرة شجر الكبار.

<sup>22</sup> - فطر مولنا - أساطير القليل الكبرى، الجزء الثالث، الأسطورة 23 والتي التي استشهدنا به وهو: *irouh* ad immas ad' icich abicar وملحوظا بخصوص هذه الكلمة.

- الدرويش : in ilah ( هو بنا ) . وموتقي الدرويش خطي الشيخ ليخل مع قببت، حيث يوجد الأسرة منشطة بشي القناذ والأراب ( inisyin d'iouthal ) ومشاركهم طعاسهم. وعند الانتهاء من الأكل خاطبه الشيخ : Ekhser' akoucher' illi . m'ana anisik chekk ? ( إني أريد أن أهديك أمتي، لكن من أين أتيت أنت؟ )

- الدرويش: Gelh' akama ouroumi ( من أراضي القصراني )

- الشيخ: tājiben yi medden enni ( هؤلاء الناس يجهلونني )

- الدرويش: Mar'er ? ( لماذا؟ )

- الشيخ: Ljldoud enner' d'ifraciyyin ( لقد كان أجدادنا فرنسيين ).

وإثر ذلك نهض الشيخ وأخرج كتابا من داخل صندوق وعرضه على الدرويش قائلا:

- lektab agi fellas arba lek'roun , thira ines tafrancist. Tamourth a n aith seddath oufrancis; H'acha souffer'en ten aith Merin d'aith ouattas. Ina ik'im'en d'ououlen d'imselmen.

( هذا الكتاب صوره أربعة قرون، وهو مكتوب بالفرنسية، وقد كانت بلاد بني سيدات

هاته، بيد الفرنسيين لكنهم سيطردون منها بواسطة بني مرين وبني وطنس، والذين بقوا منهم أصبحوا مسلمين )

وإذا ما صدقنا محمدنا، فإن شعورا بالتماطف ينتظروننا في هذه القبيلة. وأنا أفضل

تصديق ذلك، بدل الذهاب بنفسني للتأكد من هذا الأمر. ولم يفكر الدرويش الذي انفصل عن

علامه منذ زيارته لقبيلة بني بوتصر، في مسيرة مشروع الزواج المقترح من طرف الشيخ.

لقد وعده بالرجوع، لأنه لم يجرؤ على رفض هذا الاقتراح. وسينوغل في الغلبة، كي لا

يظهر مرة أخرى أمام هذا الصديق والحفيد المزعوم الفرنسيين.

### القرى الرئيسية لبني سيدات

- تدارث ( الدار )، التسمية أمازيغية، 50 منزلا، محاذية لنهر أزيلا.

- إغمليشن ( المبركون )، التسمية أمازيغية، 100 منزل، قرب نهر أزيلا.

- قراوية، التسمية عربية، 50 منزلا، على نهر أزيلا.

- تيزلميث ( الحزمة )، التسمية أمازيغية، 50 منزلا على نهر أزيلا.

- الخميس، التسمية عربية، 20 منزلا.

- القلعة، التسمية عربية، 10 منازل.

- سيدي بالقاسم، التسمية عربية، 50 منزلا.

القوى العسكرية 2500 رجل من المشاة، عند السكان المحتمل 12500 نسمة. المسالك خاصة بالقبائل. البلد مليء بالمنحدرات ومغطى بالغابات. التعليم القرآني منتشر بما فيه الكفاية. في سنة 1893 كان قائد القبيلة هو سي محمد أمعريش. وكانت القبيلة مستقلة تماما .

## القبيلة متيوة

### ( الضخمة ) - التسمية لمزيغية -

يمكننا أن نتابع على الخرائط مسار الدرويش خطوة خطوة. فقد نطلق من القبائل الجنوبية الغرب الريف، متقدما ببطء نحو الشمال، دون الالتفات عن حدود جباله. وها هو قد وصل الآن إلى القبيلة البحرية الموجودة في أقصى غرب الريف. وتشكل متيوة الحد الفاصل بين هذا الإقليم وجباله، ويجب أن يكون هذا الحد متماسكا، لأن البلد يتوفر على جوانب ضعيفة خصوصا بالساحل. وبالفعل، فليس هناك أي حاجز طبيعي من جانب البحر، بين غمارة ومتيوة. فغمارة، هذه القبيلة الجبلية القوية، الأكبر من متيوة مساحة وسكانا، تهاجمها من حين لآخر، مما يضطر المتيويين للاستعانة بالمقاتلين الريفيين المدركين لمخاطر هذه الهجمات.

وتتمتع متيوة على ساحل من عشرين كيلومترا، وتتوغل جنوبا على مدى يوم من المشي ( أربعين كيلومترا). وتحد غربا بغمارة، للقبيلة الجبلية، وشرقا ببني جميل ( الريف ) وجنوبا ببني سدرات ( الريف ) وشمالا بالبحر الأبيض المتوسط. وتشتمل على خمسة أقسام هي: أيت نمعد على جانب البحر بمحاذاة غمارة، توتولا ( الحفر ) المؤدية شمالا إلى البحر وعلى مستوى الجنوب الغربي إلى جباله، أيت جد الله، وهو قسم بحري أيضا بجادي بني جميل، بني على بالوسط، ثم الربع الفوقاني بالجنوب. ويمكن لكل قسم من هذه الأقسام أن يجند 1200 رجل حامل لبنقية، أي ما مجموعه ستة آلاف من المشاة بالنسبة للقبيلة كلها.

ولكونها تشكل الحدود الغربية للريف، المنخفضة في البحر الأبيض المتوسط، فإن متيوة تكتسي أهمية خاصة. فهي تستخدم فعلا كمبر بين الريف وإقليم جباله. ولا يمكن لثلاثها القبيلة الارتفاع، أن تشكل حاجزا في نفس أهمية الجبال الشامخة لقبائل الريف الجنوبي. فسر هذه الطريق أو من خلال القبائل البحرية لشرق الريف، يجب أن تتغلغل فيالق الجنود التي تريد احتلال الريف. فالحاجز الكثيف من الصبار الذي يبدو أن متيوة وضمتها قصدا بينها وبين جباله، لا يشكل سدا منيعا بالنسبة للجيوش الحديثة. لذلك فمن منسحب إذا ما قمنا في البداية بإخضاع القبائل البحرية وبعد ذلك بمحاصرة سكان الريف الجنوبي داخل جبالهم. وطبعاً، فإنهم سيظهرون

مقاومة شديدة في حصولهم الطبيعي المشكل على طول الخط الجنوبي، من سلسلة جبال الأطلس المشعة.

وأول أن يفارق مضيقه بذروتن، تلقى محمد منهم جلابة من الصوف وزوجا من الفحل الجديد وحليكا وشينا من المال يقرب 2,25 فرنكا. وسيقوم بجولة طويلة بالقبائل المجاورة قبل أن يعود إلى الزيف، فلما من قبيلة عمارة الجبلية وعلوا قبيلة متيو، ومن عمارة إلى قرية القلعة بالريف، بتشكيل السهل من سهل مموج بصخور عظيمة لا يمكن لأحد تجاوز أمواجها هباتها، اللهم إذا تحلق الأمر بطائر أو بالأرجل السريعة للماز. وتسمى طريق المعلقة هذه: " قلمو "، ويضطر الدرويش الذي ترك عن يساره، ميناء ناكوت الصغير والمعروف أيضا باسم الجببة، إلى أخذ الطريق المتجهة جنوب ليت محمد، فلما من عمارة، ليتلدى الجروف الصغيرة القلوم. وبعد أن سلك هذه الطريق الجبلية، وصل بعد يوم من المشي، إلى قرية القلعة. ويتعلق الأمر بميناء بحري صغير، يعرف في البلد باسم مرسى سيدي فتوح ويقع على جانبي نهر تافولا حيث يوجد مصبه. وبإمكان السفن الكبيرة الرسو بهذا الميناء. وقد أقيم بالقلعة حصن يزود بالمؤونة من طرف كسام قبيلة متيو. وعشية وصوله إلى القلعة، استقبل الدرويش كالمادة بحفاوة داخل المسجد، حيث وجد الطلبة وبعض الزحاة الغرباء. وهناك انتظر بأناة طول موعد العشاء. ففي الغرب ( المغرب ) برمته، لا يتحلى الناس إلا بعد أداء آخر صلاة في المساء ( صلاة العشاء ) وذلك حوالي الساعة اولا. وما أن نادى المؤذن للصلاة حتى امتلأ المسجد بحشود من الشباب والشيوخ والطلبة والشرفاء الذين جاؤوا لأداء صلاتهم دون تقطي عن بناتهم ( كالبط ) الإنجليزية المصدر. وهذا المشهد لشعب مسلح بقم صلاته، دفع الدرويش إلى الاستنتاج بأن قلعة غير سائلة بين هؤلاء القوم. وسيتحقق من ذلك لاحقا. وبعد الصلاة، جاء الطعام المنتظر محمولا من طرف بعض الرجال الذين يرافقهم حوالي ستين فردا حاملين بناتهم معهم. وأهم لضيوف المسجد، الدجاج والسمك والمسل والزبدة والخبز المشوي إذ لا يعرف خبر القمح، فمن مشوة إلى نمور Nemours لا يزرع القمح إلا لملأ، إن لم نقل إنه لا يزرع البتة.

وبعد الانتهاء من الطعام، رجع الأفراد الستون إلى منازلهم، حاملين الصحن الفارغة. ولم يتعدوا سوى مائة خطوة، حتى سمع دوي ترشق بنيران البنادق. ومع ذلك، فإن نقاشات وضججات ضيوف المسجد، لم تقطع تقريبا. وسوقول أحد الحاضرين بلوح من اللامبالاة: " اسموا.. هناك تقاتل بالخارج ". وبعد برهة، جاء من أخير الطلبة بأن تكون من حامي الصحن قتلا وسط قرية من طرف أحلامهم للشخصيين. فتساقط الدرويش المتعود على المعدات المسلمة للطلبة: " لبة قبيلة حقه يتم فيها الترشق بنيران البنادق بهلكه السهولة... " وسجبه أحد



الطلبة: " لكم أنت ساذج ( غشيم ) - كمذا في الريف؟ وهل هناك ريفي واحد مات موتة طبيعية؟ فكلهم يموتون بفعل الحديد والدار. وتقام عليهم صلاة الجلازة بسرعة، إذ يحزن أحد الأشخاص بأن فلاتنا مات وقد قتله فلان. فلنصل عليه ونظفه ونترحم عليه ". وسيضيف الشاب فلكلم وهو ينهض: " طهما هذا ما نقوم به ". وبالفعل، خرج الجميع من المسجد بما في ذلك الدرويش وتم الالتحاق بمنزل القنولين. وكانت مصاصيح ضخمة تكبر الجنتين اللتين تم غسلهما وتكفينهما بسرعة. مع ترك قراس مكتوفا. وسيقدم أصحاب قبيث الحسل والزبدة والخبز للطلبة، كما سيشاركونهم الطعام دون أن يبدو عليهم أي حزن. وقد سألهم محمد: " لماذا لا تكونون ؟ " فأجابوا: " لقد لماوا بفنل غيرهم ". ومرت الليلة في صلاة وأكل وشرب، إذ لا يهتر السهر بجانب ميت أمرا محزنا في كل ربوع الريف، على الأكل بالنسبة للطلبة الذين يجدون فيه مناسبة ممتازة لإشباع بطونهم مع ربح بعض المستنزمات كالأجر على السور القرآنية التي ترحموا بها على الميتين.

وعند الصباح، غادر الدرويش القلعة باتجاه سوق الاكئين الذي يقع وسط القبيلة بفيرة سيدي ابراهيم. وقد شرع في تسلق مجموعة من التلال والجهال الصغيرة المطينة بالقرى. تاركا قبره وراء ظهره. وعلى مدى البصر يمتد القين الوحشي ( خرصوص للنصارى ) الذي يغطي التلال والوديان بكثافته الخضراء لذلك. ومع ذلك، توجد بعض المسالك الضيقة داخل هذه الغابة المتفرقة. ورغم أن الفصل كان صيفا، فإن هواء البحر كان ينعش الجو ويهب دون توقف. واستمر الدرويش في ترحاله دون استعمال مظفلا من قرية إلى أخرى، دارسا البلد وعادات وأعراف سكانه. إن أهالي متبوة هم من عرق أمازيغي يتحدثون جميعا بتامازيغت ولقبيل منهم يعرف اللغة العربية. وهم شجعان ومبايعون كثيرا إلى الاقتتال ويبحثون في استقلال تام. وفي كل مكان تقريباً، من قرية إلى أخرى ومن منزل إلى آخر، تجد عداوات رهيبة. وفي كل يوم، تسلك جماء أفراد القبيلة بسبب الاقتتال. وغالباً ما تقتلي شهباً في المشربين من حرمهم وقد وسيت لجسادهم يندوب ناتجة عن طلقات الرصاص أو ضربات السكين. ويتميز المتبوي ببذية قوية مثل خنزير. ورغم غلظتته وطبيعته الشرسة، فإنه يحافظ على تقاليد حسن الضيافة، بحيث يتنازع الأهالي فيما بينهم على الضيوف. وقد عاين الدرويش يوماً، معركة منتظمة كان السهب في نشوبها مسافر أجنبي تنازعت حائلتان. وقتل من جراء النزاع ثلاثة رجال واستصحب الملتصرون معهم الضيوف الغريب إلى المصلى الموجودة بمزوتهم. ويطلق إسم الحزوة في الريف، على العشيرة الصغيرة المشكلة داخل كل قرية من منزلين أو ثلاثة منازل متحدة فيما بينها، ولكل حزوة مصلاتها الخاصة بها. وقد يحدث أحيانا أن تتنازع عزوات لقرية الواحدة فيما بينها، لذلك فإن الرجال لا يخرجون إلا ليلاً. وإذا ما ظهروا لهاراً، فإن الرصاص المنطلق من الحزوات المجاورة

سوقهم على الفور. بالمقابل، فإنه بإمكان النساء التحرك في الأزقة متى شئن دون خطر على اعتبار أن المهانة القائمة والأبدية تكسبن وحدثن لا غير. وهن يذهبن إلى منابع المياه وإلى الغابة والحقول دون خوف.

ويضطّر أرباب العقارات المعرضون لمثل هذه المخاطر إلى تشغيل الأجانب لزراعة حقولهم وحراسة مواشهم. ويحظى هؤلاء الممرّقة بالاحترام مثل النساء. ففي متقوة، كما هو الحال في كل قرية، لا يمان رب العائلة عن سفره حينما ينوي القيام بذلك. فهو يسافر غلسة أثناء الليل، متسللاً بين الحيطان. وما أن ينفذ القرية حتى يسرع المشي في الغلاء وحتى داخل الغابة إن أمكن. وسيجد نسبياً بعض الأمان عند ما يصل إلى أراضي القسم المجاور، لكن أي أمان؟ فغابة بوندي Bondy، تحقر مقام السلام والأمن والسعادة، مقارنة بالريف. ولهذا السبب فإن الرحالة عملة نادرة في المغرب، إذ يجب أن يكون المرء منطوقاً بسبب وجوه، إلى مغادرة قريته أو مدينته أو دولته.

وقد تحصل الهندنة من حين لآخر بين العزلات والقرى المتجاورة، لكنها لا تكون طويلة على العموم. وفي متقوة، لا يخشى الغرباء شيئاً، إذا ما كانوا يرتدون ثياباً ذات لون مائل للثواب سكان البلدة الذين تكون جلابيبهم سوداء أو مخططة بالأبيض والأسود. وهذه العصابة لا تخص سوى الغرباء المقيمين بالمساجد.

وكل قريب أو صديق يحظى بضيافة عائلية ما، يمكن أن يتعرض للنفس المخاطر التي يتعرض لها أفراد هذه العائلة.

والمرأة المتقوية جميلة. وهي ترتدي نوعاً من القماش الأبيض يسمى الرهيف وتعمل في رجليها نعالاً حمراء وتزين كواحبها ومصاصها بقلائد وأسورة من الذهب أو الفضة. وتكتمل هذه الزينة بخرص الأذن الثمينة وذات الحجم الكبير وبنّاج مذهب أو مفضّض وبخفود مثقلة بقطع الفلوريز الذهبية أو بقطع من الفضة وبشوكات فضية تجمع أطراف الرهيف على الصدر. ولا ننسى خواتم الذهب والفضة التي ترصع أصابع اليد. وتهيمن قطع النقود الفرنسية والإسبانية على الخفود، وبالمقابل فإن النقود المغربية نادرة. ولا تستعمل النساء الحجاب بتاتاً، فهن يخرجن سفرات فوجوء.

وتتزوج الطنرات في سن مبكرة، ما بين عشرة أعوام وأربعة عشر سنة، وهن يكفنن أزواجهن ثمناً باهضاً نتيجة صفقة مع الأب أو الوصي الشرعي. وتصل قيمة القويحات إلى 500 فرنك ومتوسطات الجمال ما بين 1000 و 1500 فرنك، أما الجميلات فما بين 4000 و 5000 فرنك، إضافة إلى جهاز العروس والحلي. ويطلب الخطيب الذي يكون مرفوقاً بثلاثة أو أربعة

لشخص من أقربائه، بد الفتاة ويضطر عن قيمة العبد من ألبها أو وصيها. وطبعا ، فإن المصيبة بالأمر لا تستأجر ألبا. وإذا ما قبل المطلب، فإن الأب أو الوصي يخرج مع الزوج الموعود وأقربائه، متجهين جميعا صوب قاضي القليلة الذي يحرر عقد الزواج. بعد ذلك، يرجع المطلب إلى منزله لتجهيز حفل الزفاف . ويقوم، حسب ما تسمح به ثروته، بنسخ ما بين يفرقن إلى ست ألبار. وإثر ذلك، تطبخ جال من الكسكس وتصلأ جرات عن أخرها بالمطوب وتجهز لغوت ألبار. وحالات ولم العريس ألبا من " السمن " ( الفطائر ) الفارقة في بحر من الصل. وعندما يصبح كل شي جاهزا، يجمع العريس أمالي القرية ويدعوهم للأكل والشرب. وبعد الظهور، يتوجه مئات من الرجال المسلحين بينهم وقد شدوا أعزهم بلوق، وكلهم ذاهبون إلى معركة، صوب منزل الفتاة مشيا على الأقدام. وهناك يضحون بين يدي أب العروسة، المبر السائق عليه، ثم يضحون هذه الأخيرة فوق بقعة مرسجة بشكل ألق ويحطون إشارة الانطلاق بطلقات مشتركة بينهم.

وتوضع الفتاة المصيبة وسط الموكب المصاحب الذي تطلق طلقات بذاته المستمرة، من بعد، عن قرب وصوله. وفي منزل العريس، ألبا النساء في الزغاريد بشكل قوي عند سماعهن لطلقات البندق. وما أن يظهر الموكب حتى يسرعن لقاء العروسة، حيث يزلن من الفرج ويرفضن إلى منزلها الجديد ويمكن منها داخل غرفتها إلى أن ينتصف الليل، لذلك، ينسعين ويتركها لوحدها. وسهت إلبار العريس الذي ظل بالفارج، يلهو ويطلق رصاص بنفخته مع لصقته، بأن موعد اللحظة المهيبة قد حلت، وتقوم بهذه المهمة الإخبارية، امرأة مسنة مغموسة لهذه المناسبة. إثر ذلك، سيحدث عن أسفاته خلسة، أملاكا زوجته، ويضع قومة بنفخته بلقحة حدثت ألبا الغرض، حيث سيمنع المومض المتبوع بدوي الرصاص، لسكان القرية، بأن الفتاة لم تعد بكرا. هكذا، سيقتل الخير بالزغاريد الحادة التي تستجوب ألبا طلقات البندق. وفي الوقت الذي يظل فيه العريس داخل الغرفة، يستمر الضيوف في الاحتفال طيلة الليل حيث يضي الرجال والنساء بالكتائب، مفسدين أعزج قيمة ومرتبين لأخرى جديدة. وتكثر زغاريد النساء الحاضرات، كمكافأة على هذه الأستار المعلقة. وعند المساء، يرجع الضيوف الذين استألت بطونهم إلى مسكنهم مع الاتفاق على الالتقاء في عرس مقبل.

طبعا، فإن زواج الأرنل والمطلقات لا يتم بنفس بهرجة زواج العذراوات، فهو يمر بهوء. ويتوضع ويتنصب مع وضع تلك التي قتلت أكبر جزء من قيمتها، أي بكارتها. وفي جميع الأحوال، يتم الاهتمام بطون الضيوف الذين يدعون إلى هذه الحفلات بكثرة.

وميزة المرأة الريفية أنها ولودة، وغالبا ما ترى امرأة محاطة بسبعة أو ثمانية أطفال، بل يتم ذكر نساء أنجبن 15 طفلا وطفلة. ويعتبر رجال ونساء هذا البلد الرهيب المعازل المتعددة الأفراد، كمكة إلهية. ولا ينتظر هؤلاء الجبلون الأشداء، كما هو الحال في أوروبا غالبا، أن يكون الرجل قد خارت ثلاث أرباع قواه، ليتم تزويجه. فالريفي يتزوج وهو صغير السن، ما بين 15 و 20 سنة غاي اختلاف هذا، بين شاب قوي البنيان ومتين كتور، وطالب الزواج من أجداننا من أربعين سنة، والذي يساوي إتهامه الجسدي، انهياره المعنوي.. ولا يحب الريفيون النساء المعازلات، بل يطلقوهن بعد انتظار سنتين أو ثلاث سنوات، مع إظهار احتقارهم لهن. ومن الأرجح ألا تتزوج سيدة الحظ هاته بعد ذلك، فهي تعيش في كنف أبويها اللذين يشبعانها شتما ويخضعانها لأشق الأشغال. ولن يكون مصيرها شيئا بمصير المرأة الأوروبية الكسولة، وأقص ذلك الدعارة. فهذا الجرح في بلداننا المتحضرة نادر الوجود في الريف، إذ لا يمكن للمرأة أن يمزح بشرف النساء هناك.

لقد سبق لي أن قلت بأن كل القبائل الريفية مستقلة ولا تعترف بتاتا بسلطة سلطان فاس. ومع ذلك، فقلعة تتوفر على حصن يتواجد به أفراد من الجيش النظامي وتؤدي الضريبة بانتظام. وهذا هو مجال خضوعها. ولكي لا أعود ثانية إلى هذا الموضوع، سأوضح كيف تختار متبوة وباقي قبائل الريف الأخرى، القياد عندما يستدعي الأمر ذلك.

فالقياد الريفيون هم موظفون غير مستقرين، أكثر مما هو عليه الحال بالنسبة لوزرائنا، وهم معرضون أكثر منهم، لسلاح مواطنيهم: إذ يتم انتخابهم ثم إغلاؤهم بسهولة مدهشة، بل ويتم إهانتهم بسهولة أكبر. وعندما يموت القائد، موة طبيعية أحيانا وعنيفة في غالب الأحيان، أو يتم إغلاؤه من طرف الأهالي، فإن أمر انتخاب قائد آخر يخضع للإجراءات التالية: يشكل أعيان القبيلة الرئيسيون الجماعة، وهي أعلى هيئة في القبيلة، شبيهة بنقابة قوية، ويجتمعون بالمسجد أو بسوق يحضره الناس بكثرة. ويكون أفراد الجماعة قد اتفقوا مسبقا على اسم القائد المنتخب والذي لا يمكن أن يكون إلا فردا منهم لأن أعراقهم لم تكن ديمارغوجية بحيث تسمح باختيار الشخص الذي سيشغل أهم وظيفة من أسفل المراتب الاجتماعية. هكذا، فإن الجماعة تعين أحد أعضائها كبديل للقائد الراحل. ويستحضر عقد التسمية الذي سيقم المصادقة عليه شكليا من طرف السلطان. وسيوجه الشخص المعين، مرفوقا بهذا العقد، إلى فاس أو مراكش حاملا معه ما بين 1500 و2000 فرنك، قيمة الهدايا المخصصة لصاحب الجلالة الشريف. لكنه لا يسافر لوحده، بل سيرافقه أربعة أو خمسة من أصدقائه القدامى، المكلفين بمراقبة القائد الجديد وحراسة محافظته. وتقليدا لكل مغامرة لا تحمد عقباها، فإن هؤلاء الأصدقاء الأوفياء، سيتكفون بحمل المال، هذا

الصب، القليل الذي يتشكل في القلب من قطع 100 ختمه. وسيلخذ الوفد المحجج بالسلاح طريقه على ظهر القنصل، وإذا ما حصل أن سقط في كمين، فإنه يرجع إلى القنصلية على الفور، بعد أن يكون قد تركه القصور، الهدايا والأكسية والجمال وفردا أو أكثر من الفرده. أما إذا وصل بأمان إلى فاس أو مراكش، حيث يتواجد الإمبراطور، فإن أول ما يفعله به هو التوجه إلى بني القصر الملكي. وسيخبر أبناء القصر بوصوله وبريخته في المثل بين يدي العاهل. غير أن هؤلاء الأمراء لا يحرون الوفد أي اهتمام، إلى أن يقتطعوا جزءا من المال المخصص للسلطان. وإذا ما حاول أعضاء الوفد هذه الاستجابة لهذه المعاملة المستغنى، فإنهم لن يروا السلطان أبدا، كما أن هذا الأخير لن يعلم أبدا بأنهم ينتظرون مقابلته عند باب القصر. وعند تلبية رغبة الأمراء، يتم إدخال أعضاء الوفد حفاظا إلى قاعة الانتظار. وسيلقى الحاجب لطرح عليهم بعض الأسئلة من قبيل: من أين أتوا وماذا يريدون؟ وهذا الشخص الذي يكون في العادة أحد أقرباء السلطان ومن الظنى بحيث لا يرضى بالهدايا الصغيرة التي يأتي بها الجهابذون الفقراء. سيدخل إلى قاعة العرش، ويفتح الباب على مصراعيه مطالبا بأعلى صوته: "إن بني كذا قد وصلوا...". ويكون السلطان، الذي تم إخباره من قبل، جالسا على مقعد مرتفع. وسيقوم بإشارة تجعل منظر: "دعهم يدخلون". هكذا سيسير القنصل الجديد خلف الحاجب باتجاه القاعة. وسيمضي الأمير على الطريقة المغربية، أي بتقبيل رؤوس أصحاب يده اليمنى، وهي حركة مؤدية معروفة تحت اسم "بندق". من جهته، فإن السلطان سيرد على هذه التحية بمتلقاها. آنذاك، سيتقدم الموظف الموعود من العرش بلوح من قرع، لأن حارسين خاصين للسلطان يحيطان به ويشيران سلفهما ويبدآن علاج قاسية. وستحدث أحد هذين الحارسين بصوت قاطع، طالبا من قائم الجديد، الجلوس على مقعد موضوع أمام السلطان بالقرب من العرش. وهو ما سيفعله القنصل، مقنعا عند تسميته دون أن يفسر بكلمة. وسيتناول الإمبراطور القند، ثم سيمسكه لأحد الوزراء الجالسين بجانبه، شيئا ما إلى وراءه. على مقاعد الارتفاع والجهة من مقعده حيث سيدأ الوزير بقراءة الخط بصوت عال. عندئذ سيخاطب السلطان القنصل، سقلا يناد عن قبيلته وأصلها وحالة سكانها والمحاصيل والمواشي. وإنهاء اللقاء، سيقيم بإشارة من يده، سيتقرب الحاجب على إثرها من القنصل قائلا: "نوضي آسي" <sup>21</sup> (الهنس يا سيدي).

وعلى الفور، سيهتض القنصل. وإذا ما كان عارفا بقواعد البلاط الشريف فإنه سيرجع بالتهنئة، أما إذا كان جاهلا بها، فإنه سيدبر ظهره الشريف، إلا أنه لن يلام على ذلك، بل سيكتفى

<sup>21</sup> - كلمة سيدي المختص في سي. وهذا دليل على التشف بالفتن.. أما "أ" التي تسبق سي، فهي إشارة للمخاطب الصوتي "يا".

الحاضرون بالقبلة سفرة من فطنة هذا العشر. بعد ذلك يصطحب الحاجب القناد إلى قاعة الاجتماع ( طمطحة ) المخصصة لاجتماعات القناد في مرحلة محددة من السنة. هناك، يكون لدى القناد متسع من الوقت لتتطرق بإعجاب إلى قراري الجمعية وتستكر الفكرة التي سيقدّمها فيما بعد وصفا متخيلا أمام أصدقائه المستمعين.

بئر ذلك، يستقبل السلطان أعضاء الوفد واحدا بعد واحد، ثم يصطحبهم الحاجب تاهدا إلى قاعة الاجتماعات حيث سيحذرون القناد المعين. في نفس الآن، سيقدّم آخر عنصر ضمن الوفد، الهدايا إلى السلطان، حيث سيضعها قرب العرش قائلا: " هذه هدية القناد " وسيكون لمسلطة الحظ. لذلك سيفتح الحاجب باب القاعة على مصراعيه وسيكون أعضاء الوفد متواجدين يمكن لا يروا السلطان من خلاله، مقلما لا يراهم بدوره. وسيحدث في قاعة العرش مشهد هام وعظيم، لم يسبق للأوروبيين أن عاينوه من قبل ذلك أن المعامل ووزراء المجلس على مقاعد، سيرفون أبنائهم مجتمعة قرب وجوههم وكلهم يفرزون كتابا وسردود بصوت عال فيتمتع، مضيقين إليها بعض الابتهالات والدعوات لقائدة القناد وأعضاء الوفد ولقياتهم.

وستقدم هذه الدعوات المكتوبة على ورقة، إلى الحاجب الذي سيثقت صوب القراء . بعد أن كان نظره منصوبا إلى قاعة العرش، وسيرفع في قراعتها.

عندئذ سحرك أعضاء الوفد بأن الاستقبال قد انتهى وسيذهبون قصر. فلما كانوا في الدار، فإن ضريح المولى إدريس هو الذي سيكون مكان ملوهم وسيتمهده أما إذا كانوا في مراكش، فلهم سيقومون في ضريح سيدي بلعاس المصني. وفي الصباح، سيرسل السلطان إلى القناد الجديد طالبا من القند لو القضية، حسب أهمية الشخص وقبيلته. ويحصل الطابع القند التالي: "إن فلانا هو قائد القبيلة القلاية، ملوعا لو كراهية". وسيرفق ذلك بشوب فخر ووجود رافع. هكذا سيقتل القناد راجعا ومعه عشرة فرسان نظامين ( مغزنية ) مكثرين يرافقونه إلى القبيلة، من أجل جلب الضرائب التي لم تؤد بعد. وسيلخذ الوفد طريقه إلى قرية، مع هذه القوات المساعدة الضخمة التي سيهاجم أفرادها عند القناد ويصبحون منتظي لأمره الانتقامية. وعند رؤية المغزنية، سترفع القرى بتقديم الهدايا إلى القناد المنتخب الذي وافق السلطان على اختياره وسيتم ملواه المغزنية بجولات داخل القبيلة مستقرين بلقادات التي يشكون في مصداقية قناد وماتين القرض على أعدائه الشخصيين المتهمين بعدم أداء الضريبة. وبعد شهر أو شهرين من القيش على هذا المنوال، سيرجع المغزنية إلى حاشيتهم بعد أن ملووا بطونهم وألقوا بلقاداتهم. وسيقدمون للسلطان جزءا ضئيلا من الأموال التي جمعوها، إذ أن أغلبها سيذهب إلى جويهم أو جيوب القناد ومناصريه.

إن رئيس الأهل المعزوم من مساعدة المخزنية ، سيحكم بمساعدة " نصف " وسوقرف كل أنواع الانتهاكات والتجاوزات، إلى أن يأتي اليوم الذي سيقبل فيه أو يجبر على الاستقالة، لأن عدد الفرضين له سيكون قد ازداد، كما أن القوة المشبعة له ستكون قد ضحقت. وسيمثل " نصف " المنعصر عن الشخص البديل ويمكن لهذا الاختيار أن يحظى أو لا يحظى بموافقة السلطان، كما يمكن لهذا الأخير أن يتلقى بعد شهر من الحدث، خبر القوة القليلة المعين أو كلة بخلاص أعدائه، وذلك عن طريق الصفة.. وهذا سيستخدم لبقته لإعادة القبيلة المتوردة إلى جادة الصواب، ولحلها ما ينجح في ذلك، إلا أنه يضطر أحيانا لغيره إلى انتظار سنوات عديدة قبل أن يعود إليه أبناء الضالون وتصل مسامحتهم الضرورية. وهو لا يحظى بتعاطفهم إلا بعد أن يكثر من الشكاوي في رسائله المطولة التي يعاتب فيها هؤلاء المسلمين الفاترين الذين لم ياتزموا بأحد المبادئ الأساسية للقرآن الكريم. وسيبرز بالمناسبة ميزته كحفيد للرسول، وهي حجة لا تقوم وسيكون لها تأثيرها على القبول الأكثر استقلالية.

هكذا، ستأخذ الهدايا طريقها من جديد إلى فارس أو مراكش وستعلن الوكالات الأوربية المعالم المندمجة، بأن صاحب الجلالة الشريف، قد جلب بالقدرة، ضرائب هذه القبيلة المتوردة أو تلك..

طبعا إن الزبلي لا يلتزم بالأداء الملتزم للضرورة التي يعتبرها كهدية إلى حفيد الرسول، أكثر من اعتبارها كرسوم إزامية. فضلا عن ذلك، فإن الحصص المنقوعة quotes-parts تكون ضئيلة؛ فهي تعد من طرف الجماعة وفق إمكانية كل واحد، ولا تتعدى أبدا، حتى بالنسبة للأغنياء، 10 إلى 15 فرنكا في السنة. أما حصة الفقير من كل ذلك، فهي ضئيلة ولا تتعدى بضعة سنتيمات. وللأسف، فإن قياد وأعضاء الجماعة لا يشعرون وهم غير عادلين لأنهم يطون الموفين لهم من كل ضريبة، ويقولون كاهل خصومهم بالرسوم، وهو ما يسر الاضطرابات المتواصلة بالقبائل الزبيلية وعدم احترامها لمعامل لا يستطيع حمايتها من جشع قياد المخزنيين أو المستقلين.

لذلك ترى بعض القبائل تتخذ القرار الحكيم المتمثل في إدارة نفسها، فهي تعين جماعة تكون ملزمة بعدم تحصيل أية ضريبة. وينحصر دور هذه الجماعة في قمع مرتكبي الجنايات والمخالفات وفي تمثيل القبيلة على مستوى العلاقات الخارجية وفي إصدار أحكام الإعدام في المحظرات المصيبة. وللأسف، فإن أعضاء هذه الجماعة ليسوا بشاري عن الارتشاء. فممارسة السلطة تذهب بصواب هؤلاء الذين انتخبهم الشعب. لذلك فهم سيقفون فما بينهم لإتقال كاهل الشعب الفقير بالضرائب. وستكون الثورة عليهم آنذاك ضرورية لإزالة نفوذهم المستفهم بشكل

سرى. ومثلها الخصومات والانتقامات والاضطرابات وتصل القوضى إلى ذروتها. وهذه هي اللحظة التكنولوجية المستقرة من طرف السلطان. فبفضل طنوره ومثورت بعض منصرفه. يفرض أحد أنبائه على القيمة المتميزة التي أتقنها القوضى وسحب الضرب المستقرة من قبل. وهي مهمة صعبة وخطيرة بالنسبة للكلد الجديد.

ولا يوجد أي نوع من الإثارة بالريف. بحيث لن تدعش إذا ما طمنا بأن السلطة القضائية نفسها مجهولة. ويحتر الطلق الذي حظي بقلب القلبي مجرد كتاب عومي يستخدم كلمة لتسجيل بعض الأحداث العنة. كزواج والطلاق وحللت البيع وشراء. ولأن أصبح الجنات والمخالفات لا يוכל لأحد بعينه. فإن أقرب الضحية هم الذين يتكفون بمصلحة الانتقام. على شكل قريف. يحتر الأخذ بالثأر لمرأ القلبي باستمرار. لكن حينما تأخذ الجريمة لباساً عظيماً أحياناً. فإن الجماعة هي التي تأخذ السيف والرمح فتلك الذي سيكون هدفاً لمتبعاتها؛ إذ سيطرود كرحش جريح وسحبهم عليه بالبحر في قنينة إلى الأبد لو المجرود. هذا إذا لم يتم قتله في إحدى القرعات. وتصبح ممتلكته عرضة لنهب أعضاء الجماعة الذين يأخذون القسط الأوفر. تاركين لبقلي فرد القليلة المسكين. بعض الأسماك البقية. وقد روى لي ريفي من بني بوشاغر. وهو قسم من القلبي. حكاية ذات مغزى بهذا الخصوص. فلهذه الذي قام ظمناً بالارتكاب جريمة. قبض عليه من طرف أعضاء الجماعة وأحد رمياً بالرصاص بمنزله. وسد فرد أسرته المرحوبين. وفي القليلة الموافقة. ساءد القروي كل أقربته من النساء والأطفال وسيلحقين بالقنينة حيث سيجرح في ضربة بقية القلبي لغيره. وستكون المصلحة هي: مقتر سنة من أبناء عمه وسبعة عشر من أصدقائه. وكان هو الرجل الوحيد من العائلة الذي بقي على قيد الحياة. وبالرغم من أن بندقيته قتلت ثمانية أفراد من أعضاء الجماعة. إلا أنه لم يبق على البقاء بالقبيلة. وسرحل إلى ملهية وبعدها إلى وهران. بحثاً عن العمل والأمان. وهو يتنظر منذ عشر سنوات. الفرصة الموافقة للعودة ثانية إلى دياره؛ وما زال خاضعاً لتذكير القفرة التي ملأها أنه لن يموت قبل توجيه رسائلات بندقيته إلى آخر أعضاء.

وعند وضع سنوات. ظلت مشوة بدون كيد. لهذه الجمهورية الصغيرة كثير شاولها بنفسها بالاعتماد على متقين للأعلى. منتخبين داخل كل قسم. ولا يجتمع أعضاء الجماعة الرئيسية المكونة من متقي مختلف الأقسام إلا في المناسبات العينية؛ حيث يتم القسم في أمور السلام والحرب والظفر والطرود. وطبعا فإن لكل قرية جماعتها الصغيرة الخاصة بها.



ورغم استقلاليتها المطلقة، فإن قبيلة متيوة ترسل من حين لآخر، بعض قبايلها إلى السلطان. وهي هدانا متجهة إلى جنود الرسول ولهمت إقرارا بالخضوع لسلطة الإمبراطور الذي لا يخشى الرييون بتاتا، سلطته الدنيوية.

وعلى الحدود الغربية من القبيلة، غير بعيد عن البحر، توجد مناجم الذهب والفضة. ويرجع ذلك إلى كون متيوة متاخمة لمنازل، وهي المنطقة التي يبدو أن الطبيعة حبتها بأغنى الثروات المعدنية في العالم. ولا يعرف سكان متيوة، مناجم تلك جبالهم، جهة الغرب، استقلال هذا المعدن الثمين. وهناك عدير ذو أهمية لا بأس بها، وهو واد تيهولا الذي ينبع من الربع القوقاني وينبع مجراه من الجنوب إلى الشمال ويصب في البحر الأبيض المتوسط بالقلمة، حيث يتشكل ميناء صغير.

### القرى الرئيسية بمتيوة

- تلصوت ( المحاطة بالصخور )، ( التسمية أمازيغية )، قرب البحر 100 منزل.
  - القلمة أو سيدي فتوح ( التسمية عربية )، قرب البحر 100 منزل.
  - تيهولا، على العدير الذي يحمل نفس الاسم، 100 منزل.
  - سوق الاثنين، وهو المكان الذي يقام فيه أكبر سوق بالقبيلة.
  - تزيلاوت ( كرمة الطيب )، ( التسمية أمازيغية )، 100 منزل.
- قوى العسكرية، 6000 من المشاة العدد المحتمل للسكان 30 ألف نسمة. وهناك حوالي 60 قرية. التعليم القرآني قليل الانتشار.

## قبيلة بني كميل ( جميل )<sup>24</sup>

وهي قبيلة بحرية، تحدها متيوة غربا وبني بوفراح شرقا وزركت جنوبا، وتمتد بحرا على مدى عشرة كيلومترات، كما أن عصفها بالدخل يمتد على مدى عشرين كيلومترا تقريبا. وتتألف من ثلاثة أقسام وهي مصطلمة بالشمال، إشاويين بالغرب وأيت علي بالشرق. ويشكل هذان القسمان الأخيران جنوب القبيلة.

<sup>24</sup> - من الكلمة العربية جميل التي تعرفت فيها اليوم إلى كلف.

إن سكان تريبارث لم يفلحوا في منع الدرويش من زيارة بني كميل. وقد بذلوا كل جهودهم في إقناعه بأن هذه القبيلة توجد في حلة حرب مع متقوة، إلا أن محاولتهم باءت بالفشل. وقشي، الوحيد الذي كان يثق محمد بن الطيب، هو الجلالة المتقوية التي كان يرتديها، إذ كان لديه إحساس بأن هذا القباس الوحيد الذي يمتلكه، قد يثير له القتل عند جيران المتقويين.

وعند الفجر، سيخاف تريبارث متجها صوب الشمال الشرقي، وقد كانت كل المنطقة من جانبي الحدود بين متقوة وبني كميل مقفرة فقد هجر السكان منازلهم هربا من ويلات الحرب. وكانت المحاصيل المهجورة تقع في عين المكان والفواكه الطازجة ملقاة على الأرض. وبجانب المنازل الفارغة كانت خلايا النحل مائنة بالصل وتساب منها على العشب خيوط ذهبية سيخس الدرويش أصابعه بداخلها لمرات عديدة. وكانت الحيوانات المفوشة قد استقرت بهذه الضيعات المهجورة، حيث أن بنات أوى والقملب والخنزير كانت تهر الأرقع بالطمأن وتدخل المنزل دون أن تشعر اهتماما لرحلتنا الذي كان يحاول أن يخفيها بسرعه، وهو نفسه غير مطمئن لرؤود فعلها. وعند الظهر سيري فوق تل، بلدة صغيرة مبنية على جانب منحدر باتجاه الشمال الشرقي. وأسفل المنحدر هناك خدير، انتهت حبه بركة مليئة بالطيور العابرة. وكانت أشجار الفواكه ممتدة على مدى البصر. وأمامه، على بعد كيلومترين، كان البحر الذي لم يره الدرويش إلا مرتين أو ثلاث مرات عبر ممرات الصبار، يتفتح بشكل شامع على الشمال. ولم تكن البلدة الصغيرة سوى مصطبة، عاصمة بني كميل. وسيتمتع محمد رأسا إلى الأمام، نازلا عبر التل. وبعد مئة خطوة، سيسقط في كمين نصبه له ما بين 100 و 200 فردا، لاسين جلايات سوداء. وكان هؤلاء الأشخاص مستقلين على العشب، تحت ظل الأشجار ومسلحين بهندقي إنجليزية. وأقوى رؤوسهم العارية تماما، كانت توجد جهة اليمين، خصلة من الشعر مقسمة إلى ثلاث ضفائر طويلة بشكل عجيب. وحول جذر هذه الخصلة المسماة كطاية، كان جذع الشعر مطوقا بملحية.

وعند رؤيتهم للدرويش بجلايته المتقوية ذات الخطوط البيضاء والسوداء، صلبوا بالعربية: "إنه متقوي، فلنقتله". ولقنوا على الرحلة، بحث صوب أول المقترين منه، بندقيته إلى صدره. حينئذ يقول الدرويش: "لا بأس". وعلى الفور سيرفع الرجل فومة بندقيته. فهتان الكلمتان السعريتان عريتان وتعيان بأنه لا بأس هناك. وفي لريف، خصوصا لدى بني كميل فإن مخاطبا هو: أنا صديق ولا أضمر أي شر. ويقول الرجل لأصدقائه الذين اقتنوا به: "إنه صديق، فهو ليس من متقوة". وقد أسرع محمد بتأكيد ذلك، مطا بأنه كان مجرد ضيف على هذه القبيلة. وسينضمه رؤساء المجموعة لاستطلاق مطول، له علاقة بنوايا أعدائهم وأقوى التي يتفكرون عليها كالتين: "قد سمعنا بأن متقوة خليفة عمارة ستهاجمنا عما قريب. لكن حدودنا

معموسة بشكل جيد. فحضره سكان مصطبة نزلها من الشاطئ إلى حدود إشبويه، وهؤلاء يرايون ما تبقى إلى حدود زرقاء. وسجلتهم الدرويش قائلا بأن الميثويين الأمنين في ديارهم لا يفكرون بشئ في مهاجرتهم. إثر ذلك، سئلوا أحد الرؤساء قطعة خبز ملونة بالمعل وسجلته قائلا: " اذهب، ما كنت الآن في أرض مسلمة وليس لديك ما تغشاه. فقبلتنا غنية ومزدهرة وتعجب لغرباء. أما أعالي مكنوة فهم نصارى ". وسترك محمد هؤلاء المحاربين لاتباع طريقه إلى حين وصوله إلى واد بني كميل. وباستثناء البركة التي تحنتها عنها، فإنه لم تكن في القدير ولو قطرة ماء واحدة.

هكذا، سحر محمد مجرى القدر الصغرى الذي رسمه الشمال، ليصل بعد ذلك إلى بلدة مصطبة المبنية على ضفته اليمنى. غير أن جلالة المكنوة سثير لوصول فرجال وقساء والأطفال الذين سيجتمعون حوله وسيفحصونه قائلين: " إنه مكنوي ". لكن رحلتنا تسرع الخطى باتجاه المسجد متخذة هيئة الدرويش المكنول إلى حد ما وسيتحدث عن الحشد الذي اعتقد بأنه رجل مكنون. ومعلوم أن المجلين يحظون لدى كل المسلمين بحظ كبير وباحترام عميق، لأن جنودهم لا يؤذي أحدا على العموم.

لما إلتحقنا على الكحول الذي يحتر مسدرا الحديد من القوالب الجنونية الخفيفة عندنا، غير معروف في الريف.

وبعد تخلصه من الفضوليين الذين تحول عدوهم فجأة إلى لحترا، دخل الدرويش المسجد. وكان حوالي 50 طالبا من كل الأصغر، يطسبون اقترافساء على حصائر، ويثقلون آيات قرآنية بأعلى صوتهم. وسيلهم ثلثان منهم بقلهم سلة ملونة بخبز الشعير، كلفت مثبلة بالمحافظ، إلى الرحلة الذي كان قد اقزوى بزواوية بالمسجد، فور دخوله. كما سيحضر طلبة آخرون لطعمة موضوعة بصحن من الطين الذي تم تلميمه، وتكضم الحجاج والبيض والحسل والزبدة. ولم يحصل أي تبادل للكلمات، بل سترك الدرويش أمام طعمه، يأكله كما يشاء. وبعد انتهائه من الأكل، طلب منه إخبار الحاضرين، من أي بلد هو. وسجل محمد بأنه ريفي، دون الإشارة إلى موطنه الأصلي. ولأنه رغب في تغيير جلالتة، فإن الطلبة سيثقلون له على الفور بجلالتين بلون أبيض وهو اللون المميز للضيوف. وبذلك سيتخطى الدرويش عن جلالتة المكنوية مصدر كل مشكلته. وبعد أن حطى بالفتنة والميت بالمسجد، سيتأرجح لمحاينة بلدة مصطبة على مهل. وهذه البلدة تتحقق اسم المدينة، لأنها في حجم مدينة متخالف. لكن يا لها من مدينة قفرة. فالدرويش نفسه ائتمز منها كثيرا، وهذا أقل ما يقال عنها. تصوروا معي، لرقعة ملقوبة ملونة بزيل الأسنة وبالقفورات وبجانبها بالوعات ملونة بهول الحوالت. وتتمو شجيرات القين

لوحشي وبعض القبائل المعمرة وسط القبايل البشرية، مما يجعل حركة المرور صعبة. أما الحيوانات المينة، فتتخذ تحت أشعة الشمس وتزيد الجو ثقلة. ورغم ذلك، فإن جو المدينة ليس مضرا بالصحة، لأن هواء البحر يهب بانتظام من المائتة صاعدا إلى السابعة مساء، حاملا معه الروائح النقية والقطيعة.

وتوجد بمصطبة طائفة يهودية. وهذه أول مرة، منذ مغادرتنا لتاغزوت تلقي فيها بمسكين عن هذا العرق القبيح الذي تمكن من التطفل في كل المناطق، بما في ذلك عند أحد أجداده، أي المسلمين. والغريب في الأمر، أن يهود مصطبة هموا مجتمعين داخل ' قملاج '، كما هو الحال في المدن المغربية الأخرى؛ إذ أن مسكنهم لا يختلف بقليل عن مسكن الرعيين. فهي منتشرة في كل مكان، لكنها في ملكية المسلمين، لأنه لا يمكن لليهودي أن يملك شيئا من الأرض ولا مسكنا في قريته. فهو يقتصر على تخزين الأموال باستثماره وعلى جمع قطع الذهب التي يخلوها تحت الأرض، دون أن يستفيد منها كما يستفيد من أمواله في البلدان التي يسود فيها الربا. فهو لم يعمل قط على اختراق السلطنة المغربية الأكثر تعصبا في العلم، بل وجد السهل لكي يكون محصيا من طرفها أيضا. وقد استعمل لذلك وسيلة بالغة الذكاء، حيث جعل من نفسه يهودي المسلم. ومعنى أن يكون يهودي المسلم، هو أن يكون رهن إشارة هذا الأخير جدا وثروة. وهي حيلة وسطى بين اليهودية والقبيلة *vasculage* ، تطيئ السيد الحق في حروب تنجم لليهودي بل وقته أحيانا دون تعرض الطغاب في حيلة السرقة والتمرد والخيانة وثلثم القبول ومحاولة اختصاب أو إغراء مسلمة. ويمكنه أن يشتهه وأن يطمع من قزواج وأن يجبره على الطلاق وأن يفرض عليه زوجة ما ولو أن يطمع في ابنته أو زوجته، ولغيرها أن يرسله في رحلة لقضاء أهراضه الخاصة.

وكمعوض عن ذلك، فإن اليهودي الحق في أن يكون محصيا من طرف سيده الذي يجب عليه الدفاع عن ثروته وأسرته وشخص نفسه، ولو أدى حيلته لهذا لذلك. ونحن نندم حينما نجد هؤلاء اليهود، في تلك المناطق القبلية من المغرب، وقد نجحوا في الحش وسط مسكن مسلمين كساة بإطلاق، لا يحتلون مجرى أي غريب إلى ديارهم، حتى ولو كان مسلما منهم! ومع ذلك، فهم يتحملون هؤلاء المسلمين *sémites* العبيدين والمكرين. ويجب كتابة مجد لتسجيل قولهم في الاحتار الذي يتقاه اليهودي المغربي حيث توجه إليه كذراع قشتاليم والقطع الإمارات، بشكل دائم، دون أن يعير لذلك اهتماما. ويجد الأطفال المسلمون لغة سانية في قرار الصلابة الإسرائيلية المتلحذين الذين يتعرضون للرشق بالمجارة من طرفهم. ورغم أن أبائهم يمنعونهم بشدة من القيام بهذا اللعب القبيح، إلا أنهم يعودون إلى فعلتهم حلقا يهيب هؤلاء الأباء.

واليهودي مطالب دوماً بأن يدعو المسلم "يا سيدي"، وهو مجبر على خلع ثيابه وقبضه ملتحياً وبسرعة، عندما يمر أمام المسجد.

وتتضمن مدينة مصطفاة خمسة مساجد، كما يتوفر مسجد واحد من يملأ على صومعة مرتفعة هي بمثابة مرصد للمراقبة، يطل على البحر الأبيض المتوسط وعلى خليج سيدي الحاج سعيد الذي يقع على بعد مئات الأمتار بالشمال الغربي. ويوجد فوق القبرج، منطع عتيق، صدق وذو حجم كبير، وجهت له منه صوب البحر. طبعاً، فإن أكبر السكان هنا، لم يصدق لهم أن سموا صولته، لكنهم ينفخون به مع ذلك، بحيث أن طقات القرى مترعقة لا تسوي شيئاً بالنسبة إليهم، أمام وجود هذا القوش الحنودي.

ويستخدم خليج سيدي الحاج سعيد كميناء بمصطفاة، وهو يستقبل مياه ود بني كميل في فصل الشتاء، وهذا السيل الجارف يجف تماماً في الصيف، وعلى جانب البحر، بمحاذاة المروج، ينحصب قبر الولي الذي منح اسمه إلى الخليج. ويتعرض هذا القديس الذي تعلوه قبة جميلة إلى حد ما، لضربات الأمواج العنيفة أثناء فترات المواصلات القوية.

إن ضاحية مصطفاة هي عبارة عن سيل مغطى بأشجار الفولكه والقرين القوشى. ويحتك أهالي ليت على ويشاويين جهلاً غابوية مسجورة، وللأسف فإن الصغار ينتشر كثيراً هناك. كما نجد بالقبيلة الكثير من أشجار القرين والحناب. ويتم بالأساس زرع الشجر والقول والحناب، أما الفصح فهو غير مطلوب بلزيمة أنه يضاف من يتناوله، في حين أن الشجر يمنح القوة والجرأة لمستهلكه.. وعلى الحدود الجنوبية، يصنع حاتم الحناب بكثرة. وفي كل مكان، توجد العاهز والأبقار والبهائم والحمر والابل من الجيدة، ولا تجد القبيلة سوى 3 آلاف رجل، لكنها غالباً ما تنحصر على مشقة التي توجد معها في حالة نزاع مستمر، ولهجتها هي تامازيغت، غير أن العربية تهيمن بمصطفاة وبعض القرى وسط القبيلة. ولتفسير هذا الوضع المثير، يزعم الأمازيغيون بأن أهالي بني كميل وبني بولراح، هم حفدة الموريسكيين الأندلسيين، ولذلك ما زالت العربية تستخدم في بعض بلدات القرين والقبيلتين، ويدعي سكان هذه البلدات بنوع من السخرية "مركبيين قرنس"، أي أصحاب القروس المدورة والمحدودة.

ولا يعترف أهالي بني كميل بسلطة السلطان، فهم يحلون ويحلون تقليد بسهولة مذهبة. ويحدث أحياناً أن يظلوا بدون رئيس لمدة سنوات، لذلك، تكون الجماعة هي المسؤولة عن تنبير شؤون القبيلة. وهم مسلمون غير ورعين، إذ لا يؤدون الصلاة أبداً ويقتفون بصوم رمضان فقط. وقد وقعت للدرويش مغيرة عجيبة بمصطفاة. ذلك أنه كان موجوداً بالصنفة بجوار منزل يهودي اسمه مشيشو. وفي تلك اللحظة فتحت يهودية في سن الكهولة الباب، وعند رؤيتها

المعد، صالحت باتجاه زوجها: " يوجد يهودي بجانب وأعتقد بأنه حاضرا ". وبالفعل، قد كان الدرويش يوجه المسيح المصلح بالمصالحات طويلة على صدغه، يشبه حاضرا حقيقيا. وسبقني مشيشو بنفسه إلى باب الدار قائلا بالاحترام: " السلام عليكم يا أهل الإسلام " <sup>25</sup> وسجده الدرويش الذي كان متوقفا بأن قصد كلامه أن يلم، قائلا: " السلام عليك " ( أي تسلم عليك المجارة، وبمعنى آخر تكن عرضة للرجم ). وقد نطق بكلمة سلام ( حجر ) سريعا وليس بكلمة سلام. وذلك كما اقتضت عادة بعض العرب في استعمال هذه الكلمة، حينما يغضبون كقوة غير مسلمين، بالعربية.

وسلاحظ الحاضرا المزحوم نور بإخلاقه إلى المنزل، بأن هذا الأخير ليس لفظ ولا أوسع من مسكن المسلمين. وهو مصبوغ من الدليل بطريقة غريبة، فالحيطان ملونة بأشكال متنوعة، من اللون الوردي إلى القرمزي المتوهج، مرورا بألوان عديدة. وسجل الدرويش فوق حصيرة، مع كل فرد الأسرة ( الرجل والمرأة والأطفال ) حيث سيتم تناول كمكة الصغرى بالمصل. وعندما سئل محمد، من أي بلد هو قائم، أجاب بأن يهود أصيلا يفتخرون به كمواطن وكأخ لهم في القلعة. وسيمت الإلحاح عليه بالاستقرار بمصطبة تقسم أبناء القبيلة الإسرائيلية. إلا أنه سيطن بأنه مازم بالذهاب إلى أصيلا لولا، واستشارة طائفة اليهودية بهاته المدينة. وسيطرح عليه سؤال أخير، يتعلق بمعرفة ما إذا كان ينتمي إلى قبيلة بنيامين أو يهودا. وإن يتردد الرحلة في الإجابة بأنه من قبيلة يهودا، فقد كان يعرف بأن هذه الأخيرة غير معطاة بشكل كاف في المغرب، في حين أن أبناء بنيامين كانوا في هذا البلد. ولم تقوفا المضيفة القورعة والمسرورة باستقبالها حاضرا في منزلها، وهو شرف كبير يرغب فيه كل اليهود المغاربة، عن تقبل ثياب ولادي الداعية الطيب. فقد أحاطته بحناء غائقة وأثبنته أكلا، مولعة عليه عدم إلقاء على الطعام وسائلة له إن كان طيبها قد أعجب. وقالت له في الأخير: " بندي، إن أنت بقوت هذا، فإن لاهي ستكون غامتك وزوجك ". وسجده الدرويش بالاحترام: " سألني ". ولأن مشيشو كان مضطرا للخروج، فقد اختار دجاجة المشاء. ورغم منعه كحاضرا، فإن محمدا لم يرد قتلها بيده. محمدا تلك بأحد الأسباب. وفي الواقع، فقد كان يخشى أن يفتضح أمره بعمل أخرق تثير شكوك هؤلاء الناس السريعي التصديق. وعند غروب الشمس، عاد مشيشو إلى المنزل وطلب من الدرويش إقامة الصلاة. غير أن محمدا الذي كان يجهل القبرية سيتخلص من هذه القورطة، بحديثه الجريء عن هذه مزعومة لدى أبناء يهودا، قائلا: " إن أبناء يهودا لا يجب عليهم أن يتأسوا بغير الصلاة

25 - إن اليهود القاطنين بالعربية، يحاولون التمسك شدا، وهو ما يبرز قوتهم. وفي هذه الحالة يجب أن نطق بسلام بدل " سلام "

عند الغرباء الذين يستقبلونهم ". ولأن مشيشو كان يجهل عادات قبيلة لا ينتمي إليها، فإنه صدق كلام الرحلة وترأس بنفسه الصلاة. حيث وقف أمام الحائط ووجهه إلى الشرق صوب القدس. ووقف كل أفراد الأسرة ومعهم محمد، خلفه صفًا واحدًا، وانطلقت الصلاة. ولم يلبس الدرويش بلمبة كلمة وظل يلاحظ الوضع. وكان صوت اليهودي الملقب يرفع ثم يله صمت طويل. ويبدو وكأنه يحد ثنا على أصابعه. وهناك كلمتان تتكرران ، تمكن محمد من فهمهما وهما: موسى وهرون. وبعد الانتهاء من الصلاة تمشى الجميع وناموا مختطفين فوق الزريبة الوحيدة الموجودة بالمنزل. وكان الدرويش موجودا بين طفل ومضيفته لورعة التي لم تتوقف عن شكر الإله، على اليوم المبارك الذي عاشته. ولأن الرحلة غير مهذب بطبعه، فقد أدار لها ظهره هامسا: " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " وهي عبارة ينطق بها المسلمون عندما يحرق بهم خطر كبير. وبدون شك، لقد حقق له الإله دعوته، إذ أن السيدة مشيشو ستخط في سبات عميق بعد فترة قصيرة. وعند الصباح. وكان اليوم هو الجمعة، قال محمد لمضيفته، بعد تناول الشاي: " تركوني لأذهب إلى سنانة لزيارة قبر عسي " <sup>26</sup> وسبحر بعد ذلك من بانيس إلى أصيلا. وهناك سأل من الطائفة اليهودية السماح لي بالمجيئ هنا لتعلم الصغار. غير أنني أجول بإخباركم بأنني لا أملك قلما واحدا للإبحار بالمركب ". وسيمضيه مشيشو خمسين فرنكا، ثم سيغادران معا الدار، وكانت اليهودية تتبعهما وهي تكي. وكل جمعة، كان علم أخضر يرغرف فوق صومعة المسجد الكبير. ولأن الرحلة أراد أن يعرف آراء يهود اريف حول المسلمين وديانتهم، فإنه سيشير بيده صوب العلم متسلا: " ما شأن هذه قرابة؟ " وسيجيبه اليهودي: " إنها تشير إلى أن يوم الجمعة هو يوم حداد بالنسبة للمسلمين ". وقد كان يكره التكلم بكلمة " جمعة ". كما أن منظر العلم والمسجد كان يثير أعصابه؛ لذلك فقد أدار ظهره وهو يمدح: " إن المسلمين يخافون أولمر الله... فقد كان عليهم أن يرتاحوا يوم السبت كما أمر بذلك الرب العلي، غير أنهم اختاروا الجمعة كي لا يشتغلوا ". واستمر هذا النقاش طويلا حول نفس الموضوع. وهو ما أظهر للدرويش كيف أن اليهودي المغربي يمت كل ما ليس بإسرائيلي. وسينقل رحالنا فيما بعد إلى دبدو وصفرو وسط القيروانات، دارسا عن قرب هذه الكائنات العجيبة التي تقاوم سوء الفية العالمي، منذ قرون.

هكذا وبعد توليع مقتضب لمضيفته، سيصعد محمد واد بني كميل ثانية، وسيعود إلى وهران قضاء ليلته، وهي قرية من خمسين منزلا، تقع جنوب مدينة مصطفىة على القدير الذي يحمل نفس الاسم. <sup>27</sup>

<sup>26</sup> - انظر فية بتيوة والتأصيل حول المقبرة اليهودية الوحيدة في اريف.

<sup>27</sup> - « Les bel isguen ( Mézab ) », p.40 . Article oran. in 8 , Oran, 1895

## القرى الرئيسية ببني كميل

- مصطبة (نظر أملاء) ،

- وهران ( الإنظار )، التسمية أمازيغية ( نظر أملاء )،

- سيدي بوزيد، جنوب وهران على واد بني كميل، 100 منزل،

- إشلوين، جنوب سيدي بوزيد على واد بني كميل، 100 منزل،

- تلمرطانت، جنوب إشلوين، 10 منزل.

لقرى العسكرية: 3 آلاف من المشاة، عدد السكان المحتمل 15 ألف نسمة. المسالك خاصة بالبدال، وهناك سهل بالشمال وثلال صغيرة غابوية بالجنوب. القطيع الإبتدائي غير منتشر بما فيه الكفاية. وهناك بالقبيلة حوالي خمسين قرية صغيرة لم أتمكن من التعرف عليها.

## قبيلة زراقت ( التسمية عربية أمازيغية )

### وتارجيست ( المتوجة ) ( التسمية أمازيغية )

لبن الدويش شهرا واحدا ببني كميل. وفي صبيحة أحد الأيام الخريفية الجميلة، غادر قرية إشلوين متوجها جنوبا نحو سوق السبت، وهو سوق كبير بأحد أقسام زراقت، يدعى منطقة حلال. والطلاقا من إشلوين ستصبح المنطقة راحة، إذ أن الحديد من القرى التي لا تفصل بينهما سوى مسافة قصيرة، تختفي وراء الخضرة. وفي كل مكان نجد الحدائق والبساتين التي تقي أشجارها من أشعة الشمس الحارقة. وتجري ديان من الماء البارد والصافي في كل مكان. كما أن الأرض المسقية بشكل وفير، تسمح ببروز مروج صغيرة مغطاة بالأزهار. وتستقر آلاف الطيور فوق أغصان الأشجار حيث تختلط أصواتها الحادة بصخب قشالات الصغيرة المتواجدة بكثرة في هذه المنطقة الخفية. وتشكل أشجار الجوز والطب والبلوط واللوز والسفرجل والشمش والتفاح والإجاص والأرز والأس والرمضان والنظي والغروب والفتوت الوحشي، القاسم المشترك للنباتات المشجرة في كل المنطقة المتواجدة بالجبال الشاهقة الجنوبية للريف. وتقع قبيلة زراقت داخل مرتفعات جبل الأرز الذي ترتفع أعلى قمته وسط القبيلة تقريبا في قسم زراقت بالذات. إن المنظر العام لهذه السلسلة الجبلية يتبدى كلما ابتعدنا من بني كميل، أي من البحر. وتمتد سلاسل



جبلية صغيرة على كل الجهات، مشكلة العديد من الوديان العميقة، المأهولة بالسكان والمزروعة بشكل جيد، كما هو الأمر في القبايل. وتجد بعض القرى المنطقة على تقسم أو المتناحية على جنبات هذه السلاسل الجبلية. وأعلى قمة بجبل الأرز هي من الطول بحيث تحتفظ بالثلج على مدار السنة، بما في ذلك خلال الصيف، ويقترب علوها من علو جبال جرجورا. وعند الغروب، تطل الدرويش إلى قرية علال، وهي قرية كبيرة من حوالي 100 منزل، منطقة على جنبات أحد المرتفعات المحيطة لجبل الأرز.

وتتخلى هذه المنطقة تقريبا، تحت الأشجار. وكان سكان علال منهمكين في تجفيف الفين والفلل والطماطم، على شبكة معدنية مغطاة بأوراق القسق واللاز. وبعد أن استقر بالمسجد، حيث استقبل بحفاوة لم يمان محمد كالمعانة عن موطنه الأصلي، بل تكفى بالإجابة على الأسئلة المطروحة عليه بهذا الصدد قائلا: "من هنا وأما" (من هنا، ذلك كل ما في الأمر) وهي صيغة شعرية، ميزتها أنها تتبع فضول كل المضاربة. وعرد هذا القحط هو القحط القائم بين القبائل، بل وبين القرى. وهو مقبول في كل المغرب، إذ لا واحد من الأهالي يمان عن اسمه الحقيقي أو اسم قبيلته. وحتى في الجزر التي لا يمكن للمضاربة أن يخشوا فيها أحد، فإنهم يحيطون أنفسهم بهالة من الغموض، بفعل عداوتهم القديمة. بعد مرور أكثر من سنة على استقراره بوهرن، كان الدرويش بالنسبة لإخوته في قلة بقرية الأهالي، مجهولا مثلما كان الحال في أول يوم من وصوله. فإمام السوسيين كان يقول بأنه من سوس، ولما الريفيين كان يقول بأنه ريفي، وسيفتحون أمام أهل فاس بكونه فاسي. كما سيخبره زولوا القبائل الكبرى واحدا منهم، حيث سيدعونه "ولد البلاد". فمعرفته العميقة بالشمال الغربي لإفريقيا سمحت له بالانتماء إلى مختلف الأصول. ومع ذلك، فقد اقتضح أمره في إحدى المرات، فعندما دخل إلى مقهى مغربي يجتمع فيه العديد من مواطنيه المزعومين، عامله قزولوا كأخ. غير أن أفراد من سوس اتجهوا على ذلك، معتبرين أنه من بلدهم "تمازيغت". وسيثور الريفيون معتبرين بأنه ولد بالريف. وإمام هذه الورطة، سيعان الدرويش بأنه من تونس، وبما أنه يسافر كثيرا، فإنه يعتبر نفسه هنا لكل المناطق التي زارها. وسيكون هذا المبرر مقبولا للجميع. أضف إلى ذلك، أن ميزته كدرويش صاحب بركة، لا تسمح بمخالفته على هذا الأمر البسيط.

وبعد وصوله إلى قرية علال، التحق محمد بهيئة من الطلبة المتوجهين إلى سوق السبت المسمى أيضا سوق تارجيست، رغم أنه يوجد في أراضي زرقث. وهذا السوق هام جدا، فهو مكان التقاء وتبادل بين أهالي قبائل عديدة. وقد جرت العادة قبل دخول السوق، أن يقوم الجميع بزيارة قبر ولي المنطقة سيدي بوشين. والضريح المقام عند مدخل السوق هو عبارة عن

بنية ضخمة مربعة ومتوجة بقبة كبيرة، تلمع بلاطتها المصنوعة من الخزف البراق والمتعدد الألوان، تحت أشعة الشمس. وفي كل يوم السبت، يكون فناء الضريح مملوفاً عن آخره، حيث يلتقي أهالي زركش وتارحيت وبني يطلت وبني ورياحل وبني مزدوي، مع قبيلة بني عواش ومروسة وبني بشير. ويتميز الأهالي بلباسهم وخصوصاً بأسلحتهم. فلهزيون يملكون بندق ورصاصات من صنع إنجليزي وإسباني، أما قبيلة فهم مسلحون ببنادق مغربية مصنوعة بتاغزوت، لقبيلة الريغة التي تحتلها عنها من قبل. وتزاحم العشود داخل الضريح متهاذلة على مرقد قولي الذي يستقبل أعداداً هائلة من هؤلاء الأشخاص الغشني الطباع. وتوضع كل البنادق على الأرض، حيث توجه فوهتها صوب الحائط ويتم تجميعها حسب كل قبيلة. وتعتبر جريمة قتل المرتكبة داخل هذا المقام الذي لا تملك حرمة، بمثابة عمل تنبؤي. وسقوم الزور، وخصوصاً الحافظون للقرآن، بثلاثة السورة 67 التي تسمى بـ «تفرك الذي يهده الملك وهو حتى كل شيء لله» (يقصد موليراس هنا، سورة الملك).

وحول الضريح يقوم المصلون والورعون بنبح الخراف والماعز والدجاج ويهتفون صمونا ضخمة من الكسكس، ويقدم كل ذلك إلى حارس الضريح الذي يضطر بدوره إلى إعطاء الزور الذين يأتي بعضهم للتفرك ويأتي أغلبهم لملا بطنه مجافاً. ويجمع المقدم (حارس الضريح)، إضافة إلى ذلك، المال الذي يضعه الزور بصندوق مثبت بجانب القبر. وقد تثير هذه العطايات حسد الحاسدين، لو ظل المقدم يقوم بهذه المهمة المربحة ولم يتم تبديله كل سنة.

إن البضعة الشاسعة التي يقلم عليها السوق، يمكنها بالكاد أن تتسع للخيل ولذالكين الباعة والحيوانات الحبيدة والحوالي 15 إلى 20 ألف رجل، يجتمعون عادة كل سبت. ولحقاً ما تحدث نزاعات ومعارك بالبنادق، بين أفراد مختلف القبائل المتناحرة والذين يجدون أنفسهم وجهاً لوجه. وجميع هؤلاء الزور الأثداء، يكونون ويهودون على الأقدام أو على ظهر البغال. ونادراً ما نجد بضعة جواد وسط هذه العشود. ولأن المغرب هو بلد الأئمة الرخيصمة، فلنا أن ندهش عندما نرى سوق السبت مثلاً، أن نطالع الشعر يسوي فرنكين وأن معزة تسوي فرنكين وخمسين سنتيماً وأن ثوراً سمياً ثمنه 25 فرنكا وثمان دجاجة كبيرة 20 سنتيماً وأن 24 بوضة تباع بـ 24 سنتيماً...

ولا توجد أية امرأة بسوق السبت. ففي الريف، وبالمقابلة للعبة والتبادل الشرقية، يكون دخول الأسواق مخصصاً للرجال وممنوعاً على النساء. وبالمقابل، فإن النساء أسواقين الخليفة هن، وهي ممنوعة منما كليا على الرجال.

وأثناء حضور الدرويش وبينما كان سوق السبت في أوج حركته، تتلوع أفراد من بني ورياغل وبني مزدوي. وسهرع الناس بإجلاء المكان، حيث بدأت اللدائق الإنجليزية والإسبانية تغلغل فعلها، مما أدى إلى سقوط عشرة من المتنازعين. وعلى مسافة محترمة من ساحة المعركة، كان الناس يتبعضون دونما أي تأثير بالطلقات الدورية وبالصرخات. وعند انتهاء المعركة، أخذت كل قبيلة مكانها الخاص بها. وسيقتضي محمد ليلته تحت قبة الضريح، رفقة العديد من الأساريين؛ حيث سيقيم لهم العاريس الذي يوجد مسكنه على مقربة من الضريح، طلعما والرا يتضمن الكسكس واللحم والفولكه. وقد تلقى الجميع على أن يوم السوق كان خادنا أكثر مما هو معروف، إذ في العادة، كانت تكسب أربع إلى خمس معارك، يسقط على إثرها ما بين 50 و 60 من القتلى.

وتشمل زرقت على أربعة أقسام وهي: أغماض ( التسمية عربية أمازيغية وتعني المكان المحاصر وسط الجبال )، زرقت، جلال وبلحكم. وهذان الإسمان الأخيران عربيان؛ وبني الأول من بقى مرة ثانية؛ أما الثاني فهو اختصار لكلمة ابن الحكم.

ولست تارجست بالكثير من الأقسام المذكورة. ورغم أنها قبيلة قلقة بذاتها، إلا أنها تتميز قسما من أقسام زرقت التي تربطها بها روابط متينة. فهاتان القبيلتان المحاطتان بالقبائل الأمازيغية الأخرى، تجلidan 4 آلاف من المشاة.

ويتمتع الأهالي في كل مرتعات جبل الأرض بمناخ معتدل حتى في الصيف وتبدأ الأمطار في الهطول عند نهاية أكتوبر وتوقف في شهر ماي وتكون مصحوبة بالثلوج والبرد grêle في أعلى القمم. والأوبئة نادرة في هذه المنطقة الجميلة؛ وكان من الممكن أن يصل السكان الأنداء إلى آخر مراحل الشيفوخة، لو لم تكن الفناجر والرسائسات توقف مسار حياتهم في وقت مبكر. ومع ذلك، يمكن أن نلقى بعض المسلمين الذين بلغوا الثمانين والذين نجوا من كملان أجدانهم بمعجزة. وفي كل مكان، يتم استقبال الغرباء المسلمين بحفاوة. ولا ينتشر التعليم القرآني، أي الأولى، إلا بشكل ضئيل. وتشير الفراقط إلى وجود أماكن تجمع بمناجم الذهب والفضة والرصاص وقشبة والفكريت والتي لا يستغلها أحد. ويوجد منبع من المنابع الهامة لنهر ورغة إلى الجنوب تقريبا من زاوية سودي عبد الكريم. كما تشير بعض الأساطير إلى أن أهالي زرقت وتارجست من أصل فرنسي. فهل يرجع ذلك إلى كون هذه المنطقة للطفيفة، شبيهة بمناطقنا الألبية الجميلة؟

## القرى السياحية بزركت وتارجيست

- حائل، 100 منزل.

- سيدي بولمين، 100 منزل.

- زاوية سيدي عبد الكريم، 50 منزلا.

وتوجد بالقيلتين حوالي 100 من القرى الصغيرة. وكان قائد المنطقة في السنين الأخيرة هو شريف سيدي عبد الكريم الوزاني. غير أن سلطته الضعيفة والروحية لم تكن ذات أهمية. القرى العسكرية: 4 آلاف من المشاة: عدد السكان المحتمل 20 ألف نسمة. وتعتبر زركت بلدة الجبل الشاهقة لكن الكثافة الانحدار. أما تارجيست فهي بلدة الجبل المتوسطة الطول، والمتوفرة على مسالك عديدة.

## قبيلة بني يوفراج

بعد عشرين يوما قضاهما في اكتشاف زركت وتارجيست، تابع الدرويش طريقه نحو الشمال. وسيرجع إلى بني كميل حيث سبق للأهالي أن تعرفوا عليه. وبمسطحة اعطى به زملاؤه بالمسجد ونهوه عن الذهاب إلى بني يوفراج، فالتين بأنه من المحتمل أن يطلب من أئنته وأن يقتل بجبل بوخشفاش الذي يفصل بين القيلتين. وسبحكون له أشياء عظيمة حول ما يقوم به قاطعو الطريق المتحصنون داخل مزارع هذا الجبل الذي يلتصق كحائط بين بني يوفراج وبني كميل. سمكا على خط مستقيم من الجنوب إلى الشمال حتى البحر، بحيث تتخفى بقايا مرتفعاته في البحر الأبيض المتوسط، غير بعيد عن مرفأ سيدي الحاج سعيد. ومع ذلك، فإن الدرويش سيختر مسطحة وسيتجه صوب الشرق، عبر مسلك البخل موزع نشاطيه البحر وغير بعيد عنه. وكان يسمع صوت الأمواج التي ترتطم بالرمل، بالرغم من أنه كان يسير في الغابة ولا يستطيع رؤية البحر إلا من خلال الفجوات التي يمر منها. ويمكن القول بأن سادة بوخشفاش، وهم مجموعة من الأوغاد الملتصين إلى عدة قبائل ريفية، كانوا منتشرين في مكان آخر، لأن سمكا لم يلتق أي واحد منهم في طريقه. ومن أعلى قمة هذا الجبل الرحيب، سيتمكن من رؤية سهل ملو بقرى ويتعلق الأمر ببلدة قويمية. وسيرج العطي تاركا وراءه جبل بوخشفاش العرب الذي يسميه أمزيخير المنطقة " الجبل الذي يتم تقسم المؤونة في طريقه - adrar adeg bet'tour abouin مع قطاع الطرق طبعا.

وسيجعل بعد ذلك إلى بلدة قويبة ( القبرة الصغيرة ) والمتولدة على بعد مئات الأمتار من البحر ومن خليج قوش الصغير ( إسم للبات الأنديون المنتمى إلى صنف النباتات المركبة ). وعلى مسافة قريبة من الساحل، تقع جزيرة لوش، وهي عبارة عن صخرة مكسوة بالصبار. وأمامها على الهامة، بني مسجد كبير، يستخدم كمكان للمراقبة من طرف مئات من الريفيين المنحجبين بالسلاح.

وتتمت قرية لوقتي ( السهل ) الكبيرة، دلفل الأراضي، الموجودة جنوب قويبة، وهي مكسوة بغطاء الخضر، حيث أن صومعة المسجد تتجاوز بقليل الأشجار العالية.

وتتضمن قبيلة بني بوفراح ثلاثة أسام وهي: قويبة بالشمال الغربي، لوقتي بالشمال الشرقي والربع القوقلي ( بمعنى أن إسمه مجهول ) بالجنوب. وكل المنطقة مكسوة بمروج رائعة وثاسعة تتخللها مساقين مزروعة بشكل جيد، توجد بها أشجار الفواكه المتنوعة. وهناك منابع مائية وفرة تسقي البلدة التي هي عبارة عن سهل مسد الأطراف. وفي كل مكان يزرع الشعير والبطاطس والخرطال والفول والكيف. كما توجد الأبقار والماعز والبغل بكثرة.

وبالقوى، هناك نهالت على حفظ القرآن، وقد أصبحت اللغة العربية التي كانت مقتصرة على بعض المتحدثين، منتشرة بشكل كبير. وهي تسير نحو الطول محل الأمازيغية. وعلى عكس المادة المحممة لدى الريفيين والمنتشرة في خلق الوجه، فإن بني بوفراح يستولون لحامهم في الغالب وينجولون برؤوس عازية ومطوقة، إلا من القليلة التي سبق أن تحدثنا عنها. ولبس الرجال جلابة سوداء، وهم أخص شجمان وكرماء ويقفون إلى التمتع بالدراسي بشكل كبير. وتمتد قبيلتهم على مدى عشرين كيلومترا تقريبا ( نصف يوم مشيا ) من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

### القرى الرئيسية ببني بوفراح

- قويبة، 200 منزل.

- لوقتي، 200 منزل.

- سيدي علي أوشعيب، 300 منزل.

وهناك أيضا حوالي أربعين قرية متفرقة هنا وهناك بدائرتي لوقتي والربع القوقلي والربع إلى خمس قرى فقط بقويبة.

القوى العسكرية، 3 آلاف من المشاة المنطقة سهلية تماما. عدد السكان المحتمل 15 ألف نسمة.

## قبيلة بني يطففت

( الممسكون بالخطاق ) ، ( التسمية عربية ولمازيغية )

تمت هذه القبيلة على مدى عشرين كيلومترا من الشمال إلى الجنوب، وعشرة كيلومترات من الشرق إلى الغرب. وهي محاطة شمالا بالبحر الأبيض المتوسط وغربا ببني بوفراج وشرقا ببقرة وجنوبا بزرغت وتارجيست. وتتألف من ثلاثة قبائل وهي: سنانة ( المسند أو الملحأ ) ( التسمية عربية ولمازيغية )<sup>28</sup> وبني محمد ولوفاس، وهذان القبائل الأخيران يشكلان سلسلة من قتال الصغيرة الممتدة من الشمال إلى الجنوب؛ أما سنانة فهي عبارة عن سهل، وهي مدونة حقبة تشمل ما بين 700 إلى 800 منزل وتسود فيها اللغة العربية، في حين تهيمن الأمازيغية في القسمين الآخرين. ويلوث ولد بانيس المليء بالطناني والمساط بالبرك ذات المياه الأسنة، المنطقة، ويكون سببا في انتشار الحمى. ومع ذلك، فإن الأرض تكون خصبة في الأماكن التي لا تتواجد فيها شجيرات قطين الوحشي، إذ نجد حقول قنول والقشعر وبعض الموشى كالخراف والأبقار ولحضا البغال.

وتقدم قبيلتنا بقرة وبني يطففت، يوما وبانتلوب، عشرة حراس مكلفين بمراقبة حركات وتحركات الإسكانيين الجائعين على صغرتهم المسماة Peñon de Velez. ويمنح على هؤلاء الأوروبيين وطأ التربة بلدائهم. وبالمقابل، فإن الزرعيين بإمكانهم الذهاب إلى Peñon المسمى عدهم جزيرة بانيس، حيث يشترون كل ما يعرض هناك. وهم ملزمون بالإبحار صوبها دون سلاح، إذ يتكفون بنافقهم بمفر الحراسة الزيفي الموجود على أرضهم. ويبلغ عدد الأمازيغيين للإسبان درجة يرضون معها بيع الأطعمة والمياه لأحدهم ولو كان وزنها ذهباً. وفي أحد الأيام قرر محمد زيلة بانيس والبحر رفقة أربعة أو خمسة طلاب من بني يطففت، بقارب بقوده أربعة جديين. وقد أعطي كضيف، من أداء العشر ستمتعت اللازمة للعبور إلى الجزيرة. وغير بعيد عن الشاطئ، كانت تتراءى صخرة بانيس الجرداء التي تلطمها الأمواج باستمرار.

وبعد نزولهم من المركب، سيقدم المسلمون الخمسة إلى باب القلعة وسيخضعون لتفتيش دقيق. وبما أنهم لم يكونوا مسلحين، سيسمح لهم بدخول القلعة المحصنة التي توجد بها أربعة ضيقة

<sup>28</sup> - هذه الكلمة عربية في الأصل ولكنها تزهت. وربما كانت سنانة أيضا كلمة أمازيغية تعني مضطرب barrater نظر كلبي:

*Légendes et contes merveilleux de la grande Kabylie*, p.230, et le vers Sand in'is etc... in B. paris, 2<sup>e</sup> fascicule, 1894.

ملية بالجنود الإسبان وبعض المنازل الخاصة وكباريات ومتاجر وبعض الأشخاص ذوي  
 سمات مخفية، وهذه هي الأمور التي أثارت رحلتنا أثناء زيارته لهذه الجزيرة، هذه الصورة  
 النقية التي لا توجد فيها حفة من تراب ولا قطرة ماء. فالعمية تتلقى من إسبانيا المياه  
 والأطعمة، وكان من اللازم جلب الرمال والأحجار لبناء الحصن والمنازل الخاصة. أما داخل  
 القلعة، فليست العلاقة بين الإسبان والريفيين على ما يرام، ذلك أن الأمازيغيين يشتكون من  
 لظلمة المتحكمين في الجزيرة والذين يتجنبون تعلم ولو كلمة بالعربية أو الأمازيغية. ولحسن  
 الحظ، فإن العديد من الريفيين يتكلمون الإسبانية بطلاقة، بل غالبا ما يذهبون إلى إسبانيا لشراء  
 الأسلحة والأقمشة القطنية والصابون والسكر والشموع الخ... وإذا ما صدقنا محمد بن الطيب،  
 فإن كل المنتجع المعروضة هناك تباع بثمن بخس جدا. والإسبان مصيرون في ذلك، لأنهم بهذه  
 الطريقة سيتحكمون في جزء كبير من التجارة بالمنطقة. ولو كانوا أكثر لطفا ولأدبا في معاملتهم  
 بالأمازيغي، لكفوا قد حققوا منذ زمن طويل سيطرتهم السياسية والتجارية على الساحل الريفي.

وقد قام الأمازيغيون مركزا للجمارك وأخر للحراسة على القلعة، في المكان الذي كانت  
 توجد فيه المدينة الهامة المعروفة في التاريخ تحت اسم باديس. وتقول رواية محلية أن الإسبان  
 عندما احتلوا الجزيرة شرعوا في تدمير هذه المدينة المشهورة بواسطة المدافع. آنذاك سيؤسس  
 السكان في عمق الباحة، القرية الكبيرة الحالية، المسماة ساذة وسيمونون فنصارى من السيطرة  
 على المدينة المدمرة. وتحكي الأسطورة أيضا، بأن حصن جزيرة باديس شيد من طرف الإسبان  
 في ليلة واحدة.

إن أمالي بني يقلت وبقوة يفتنون هؤلاء المحتلين الأوروبيين. وكلما وجهوا أنظارهم  
 إلى الجزيرة الملونة، تأنفوا بالذبح الشنتم طابئين من الله أن يمدحهم على رمي هؤلاء الكفار  
 لدخلاء. الذين يودون قتلهم لأحشائهم، في البحر. وهم لا يطيعون، كما يقولون، أن تظل السفن  
 الأوروبية راسية، في ما يدعوونه بتقضيهم، مرسى باديس. وإذا ما طال المقام بالسفن في هذا  
 المرسى، فإنها قد تتعرض لطغاف نارية من موقع الحراسة الأمازيغي.

وكانت باديس القديمة عبارة عن مدينة كبيرة. ويمكن أن نعلن آثارها المخفية وسط  
 شجيرات الصبار التي تملأ السهل. وعلى تضاريس أرضي، أقام المسلمون ضريحا مخصصا  
 لسيدى بويطوب، وهو ولي من أولياء القرون الوسطى، يحظى بالقدسية في الريف. وتبرز  
 صومعة عالية داخل هذه الآثار، وسط شجيرات القنن الوحشي. وقد مكنت خسوف الأرض من  
 إخفاء هذا البناء عن أنظار الإسبان الذين حاولوا مرارا هدمه بمدافعهم. ولأنهم كانوا مضطرين  
 لإطلاق نيران مدافعهم عشوائيا فإنهم لم يتمكنوا أبدا من إيصال ولو قذيفة واحدة، داخل الضريح

فمحمي من طرف ظل سبدي بهيقوب. والأمازيغيون مكتفون بأن ولهم أن يسمح لأية قوة خارجية من الاستيلاء على هذه الأرض المقدسة.

ولمست بغيس في المكان الوحيد بني بلفت، الذي لم يبق منه سوى الأثر، فعلى اعتقاد هذه المنطقة توجد آثار أخرى تشمل على نقوش بحروف غير معروفة لدى سكان البلد. وحسب ما هو معروف هنا، فإن آثار الماضي هناك، تسمى بنيان ديكوس Decius أو القمروود. وقد أكد لي بعضهم أن هذه الأثر مازالت قائمة وهي مزخرفة بنقوش وكتابات ضخمة. ورغم حقدهم غير المبرر على المرحلة الوثنية القديمة، إلا أن الرغبين لم ينفكوا أو لم يريدوا لحسن الحظ، الإشتغال بتدمير هذه البقايا القديمة لعضرة القريضة.

وتوجد بساندا المقبرة اليهودية الوحيدة في الريف برمجة، وهي بعيدة عن المدينة، على مسافة شاسعة مبلطة، إن صح التعبير. بالشواهد الحجرية *Pierres Tumulaires* التي تم جلبها بشن بعضهم من تيطلون (تلمون). وهي مبنية بالكتابات العبرية وجاهزة كي توضع على القبور. ويحمل إسرائيل كلمة موانع إلى سفلة، مسافة ثلاثة أيام مشيا. ويتم ربط القبور على ظهر بطل، ثم يتحرك الموكب الجنائزي مرورا بالمغازبية (الجنود النظاميين). ويسير أهل الميت من الذكور في الجنائز على الأقدام بملابس مبررة عن حالة حزنهم الشديد، لكن يمنع عليهم أن يلقوا راحة المسلمين بحولهم وأبنهم.

وبالتأمل، على مرمى بندقية من سفلة، يوجد حصن متين، شيد من طرف السلطان مولاي سليمان (1795 - 1822). وما زال يتوفر على مدافع كثر هذا الأمير قد أرسلها إلى الأماكن المعرضة للخطر داخل إمبراطوريته. وهذه القطع المنطقية التي تعود إلى القرن الثامن عشر، لم تعد صالحة منذ مدة. ومع ذلك، فلا زالت هناك تهدد مرسى بغيس.

ووسط آثار هذه المدينة القديمة، وعلى رمال قشاطين، وحتى تحت ركام أوراق الصبار المتساقطة، يمكن لأقدام الإنسان أن تصطدم بكل الصليب المجهورة التي كانت في وقت ما، فلواما لأية مريمية. ويرقد بعضها الذي يمكن رؤيته تحت الماء، فوق صفور بحرية، كشاهد سمات على كولت الماضي. وللتعويض عن لامبالاتهم، سيهتم الرهبانون إسباني *Pefion de velez* بكونهم استأجروا لأزيغيين الساحل، هؤلاء الإخوة المزحومين، كي يثبثوا هذه القطع المنطقية القديمة، التي لم تعد صالحة لشيء، فلم تعرضها في أحد المتاحف.

ولأن وجود الإسبان يشكل خطرا دائما، فإن تحالفا دفاعيا سيتم عقده بين بقوة وبني بلفت وبني بوفراج. وبمقتضاه، فإن جماعة واحدة تكبر القبلات الثلاث، وهي مكونة من عشرين فردا: عشرة من بقوة وخمسة من بني بلفت وخمسة من بني بوفراج. وتوزع حقوق الجمارك



المحصلة يذهب على القبيلتين الأولى والثانية، أما أفراد بني بوجراج، فيكثفون بما يستخلصونه من مركزهم بقويمة.

إن بني بظفت مستقلون، ومنذ سنوات عديدة أطاهم السلطان من إرسال الهدايا التقليدية وذلك حتى يظل حدهم تجاه الإسباني متأججا. ويقطن القاضي القبيلة بسلافة.

### القرى الرئيسية ببني بظفت

- مدينة سلافة، 800 منزل؛
  - بريس، 10 منزل؛
  - القريس، 10 منزل؛
  - سوي الحاج محمد، 10 منزل؛
  - نكروت ( شجرة ذات أزهار صفراء )، التسمية أمازيغية، 10 منزل؛
  - الحاج عمران، 10 منزل؛
  - تالوين ( المذبح ) ، التسمية أمازيغية، 10 منزل؛
  - الحاج بوبكر القناع لوفاس، 20 منزلا.
- وتوجد بالقبيلة حوالي عشرين قرية أخرى.
- القرى العسكرية 6 آلاف من المشاة، عدد السكان المحتمل 30 ألف نسمة. ولا توجد أية طريق، لكن هناك مسالك في كل مكان. التعليم القراني منتشر في كل مكان، خصوصا بسلافة.

### قبيلة بقبوة

( الجريفة ) ، ( التسمية أمازيغية )

تشمل قبيلة بقبوة كل المساحة الممتدة على شاطئ المتوسط من بريس إلى خليج iguer ayyache ouadda غرب شبه الجزيرة التي تنتهي عند رأس الموريسكي ومن الساحل الشمالي إلى بني صيرث جنوبا. فهذه القبيلة تمتد على مسافة عشرين كيلومترا من الشرق إلى الغرب وأربعين كيلومترا من الشمال إلى الجنوب. وعلى امتداد هذه المسافة لا يوجد ماء جار، لأن الميون نادرة جدا.

ومع ذلك، فإن المنطقة تتضمن حقولا شاسعة من الشعير والقول، ولهذا العديد من القرى. وباستثناء بعض التجمعات الأرضية من الشمال إلى الجنوب، فإن بقوة تعبر أرضا مبنية حيث ينمو الصبار والحقلة. ويتعلق الأمر بسهل عند الأطراف بشكل كبير، تفصله في بعض الأماكن مجاري شلالات كبيرة، أصبحت جافة، وتعمد قطمان عديدة من الأبقار والماعز. وقد شهد السكان لأنفسهم صهاريج عميقة داخل منازلهم وخزانات كبيرة مدفونة في الصخر أو في الأرض التي لا تتخذ جبهها الماء، من أجل توفير المياه لحيوقاتهم.

وعلى الشاطئ، يمارس الأهالي صيد السمك بواسطة شبك وصنقير وخرابيش من مادة متجربة، يستخدمونها بأنفسهم؛ علما بأنهم حدة قراصنة المضي ومنهم من يقوم حاليا بقراصنة عندما تكون القرصة موقفة. وهم يتفرون على زوارق كبيرة، لا يعرف مصدرها، تستخدم الصيد ولعبور البحر. ويطلد هؤلاء القراصنة القوارب والمراكب الشراعية الصغيرة التي تقرب كثيرا من الشاطئ، مستغلين الأثرية أو الخلف.

وقد روى لي صاحب يخت بخاري صغير منذ بضع سنوات، كيف سولت له نفسه ملوثة زورقين راغبين بين بانيس ورأس الموريسكي. وفي لحظة معينة، ضمنت سرعة يخته؛ فالترب منه الأمزيغيون الذين كانوا يجفون بقوة، وكاد هذا السلوك المتهور أن يؤدي بحياة صاحبه، لأنه ما أن شعر القراصنة بأن المركب تطلق بسرعة أكبر، حتى أطلقوا عليه نبالا من فرصاص مر بمحاذاة هذا المسار الجري.

والرجل في بقوة مشهود له بالبطولة التي لا تضاهي. فهو مهاب الجانب من طرف كل جرافة. ويرتدي جلباب سوداء قصيرة جدا ومسروالا من القطن الأبيض يصل إلى ركبته وتلويح مصنوعين من الحقلة. ويشد وسطه بحزام من الجلد مليء بالرصاصات والمسدسات والخناجر وهو يشبه أختي الصغارين القبلانيين بهنقيته التي لا يفارقها ورأسه القاري وضفيرة شعره المسترسلة وراء ظهره. ورغم أنه مسلم فاجر، يصلي قبل ولا يختل إلا نادرا، فإنه بالمقابل، يطبق قواعد الضيافة بطريقة سريعة وودية. وهو لا يتورع على مكر ودهاء العربي؛ إنه يمثل الأمزيغي الصارم الذي لا يعرف المزاح ويكره التفلق والكنب. وهو قاس لحيثا إلا أنه يظل دوما صريحا وواضحا وعظيما.

ومما لا جدال فيه، فإن أقوى المنطقة فوق تل عند البصر من خلاله إلى سهل المجاور والبحر، هي بمثابة متينة. فالصخرة بقوة هائلة، بلزقتها الواسعة والقذرة وحزامها الكثيف المكون من أشجار الصبار المحيطة بها من كل جانب، هي ملقى تجار وطلبة كل القبيلة. فهناك تتم أهم المبادلات التجارية في كل الساحل، بعد مليلية طبعها. ودخل المنازل الموجودة بالمدينة وعددها

700 تقريبا، تعيش سلطنة تتجاوز 3 آلاف نسمة. على هذه المتروبول القوية التي يفخر بها الأمازي، يوجد كل شيء: متاجر ودكاكين مليئة بالهضقع ومقاهي تستهلك فيها كميات كبيرة من الشاي الاتجليزي الذي يساوي سنتيما للتفجان ومطاعم تأخذ راحة سمكها المقي بخناق المارة. ويبدو وكل هذه المدينة المنيعة من طرف الموريسكيين الأتلسيين، قد بلوت خصيصا بذلك المكان المقي لمراقبة سلع الإمبراطورية، عبر مدخل الميناء المتوسطي الضيق.

ويوجد العديد من الطلبة بالمدينة. كما أن لغة المتكولة هي تمازيغت الفالصة المنتشرة من بقية إلى بني سعيد بالمساحل، مختلقة الجنوب حتى كزالية. إنه قلب لريف البعيد عن الخارج والذي لم يسبق له أن تثر باللهجات المغربية الأخرى. وتمازيغت بالنسبة للعرب هي الريفية ويدهونها أيضا للشحة. وهذه الكلمة الأخيرة تنطبق دون تمييز على كل اللهجات الأمازيغية. ويشير إلى الأمازيغ بالاسم العربي المشترك شلوخ ومفرده شلحي. وقد تولدت عن هذه الكلمات أخطاء شائعة تضمنتها مؤلفات الأوروبيين الخاصة بالمغرب. وسنعاني الاثنوغرافيا والجغرافيا والكتابة الإملائية، مرة أخرى من جهل المؤلفين الذين كتبوا صفحات طويلة حول شعب يجهلون كلا من لغته وعاداته.

وقد سجلت بعض الاختلافات اللهجية dialectales بين القبائل التي تستعمل فيها تمازيغت الفالصة. ولا تتعلق هذه التباينات إلا ببعض الكلمات المتكولة بشكل كبير. وإليك بعض الأمثلة:

| الكلمات العربية | بقوة          | بني ورياحل   | بني سعيد    | بني وشدك     | بني تولين    |
|-----------------|---------------|--------------|-------------|--------------|--------------|
| خدا             | Thiouchcha    | Aïcha        | Taïcha      | /            | /            |
| لطفل            | Ih'ramen      | Ih'ramouchen | inouyba     | Ih'louloumen | /            |
| بيض             | ihimedjdjarin | Thimeddarin  | Thimerrarin | Thimellalin  | Thichemrarin |
| مسحوق           | Aberkan       | Aberchan     | Aberoud     | Abertchan    | Aberkan      |
| الآن            | Roukha        | Rekhthou     | Rouk'a      | Louk'a       | Iek'kou      |

فرغم مظهره كبلد جاف، فإن تراب بقوة أهل بالسكان، بحيث تجد قبيلة تسعة آلاف من المشاة. كما يسمح وجود العديد من الطلبة بأدور وبالقرى الكبيرة، بأزدهار الطب الشعبي. للطلاب يكتب على قصاصات من الورق، عبارات لا يعرفها غيره. وهذا "الحجاب" الذي يباع في الحالات العصيبة بمن باعظ، يطوى داخل جيب جلدي ويتم وضعه على العضو المصاب.

ولا يكون تدخل هؤلاء المحللين المشهورين للضحايا، غريباً ولا بسيطاً على الدوام، فقد رأينا الجريئين من بينهم، يقومون بعملات جراحية مؤلمة، ولحسن حظهم، فإن المرضى يتلقون الحجاب طواعية ويرفضون العمليات الجراحية، وبصرامة في غالب الأحيان . وفي الحقيقة، فإن الطبيب غير موجود في الزيف، ذلك أن المناخ صحي بشكل عام، ويحتل الحور ( الحجاب ) بواء الزيفي المريض، وأحياناً ما يحقق الإيمان العميق بمعمله، بعض المحجزات.

وقد سمعت مجاورة بني ورياحل الذين يحطون للموسيقى قيمة كبيرة، يحمل أهالي بقوة شغوفين بالأنغام، أو بالأحرى بالصوت الثمين منتشرين بكثرة ومما : قلبي القصبي والطبل.

وتحظى بقوة باستقلال مطلق، فهي تدين وتقبل أقداما الذين يدورون ثوبون لقبيلة، تحت المراقبة القامة لأعضاء الجماعة، هؤلاء الأعضاء يتميزون عن الأشخاص العاديين بجلابهم السوداء وبشريط من شعر ( وهر ) الحمل، موضوع حول رؤوسهم، وقد قيل لي بأن بعض المؤلفات المكتوبة بالأمازيغية، والموجودة في بعض المكتبات، تشير إلى الأصل الروماني لأهالي بقوة، وهذا لا يمنع القبيلة من التوفر على عدد كبير من الأولياء والصلحاء. ويمكن إحصاء 110 مزاراً لها يتعلق بأولياء القبيلة وخدم. أما الحيطان الصغيرة المبنية بالحجر ولقي تشير إلى مرقد أحد الصلحاء، فلا حصر لها.

### القرى الرابسية بقبيلة بقوة

- بقران أو بقران ( الكبار ) ( التسمية أمازيغية )، 20 منزل
- أوز ( الضخم ) ( التسمية أمازيغية )، 700 منزل
- تالجنيت ( السمود ) ( التسمية أمازيغية )، 50 منزل
- بوسكور ( من له الحمل ) ( التسمية عربية و أمازيغية )، 10 منزل
- إفر حيلان ولدا ( الحقل السطحي لمباش )، 100 منزل
- إفر حيلان ولدا ( الحقل القوي لمباش )، 100 منزل
- تالفسا ( تالوس ) وهذه الكلمة مأخوذة عن اللفظة اليونانية τάλφος، التي تعني المصباح وهي مدينة من 500 منزل، تالفس أُنوز في التجارة والدراسات القرآنية.
- بوججوم ( من له الشعير ) ( التسمية عربية )، 50 منزل
- تالفسيت ( الكلمة الصغيرة ) ( التسمية عربية أمازيغية )، 50 منزل
- تالجنيت ( الطبقات ) ( التسمية أمازيغية )، 50 منزل
- سيدي محمد بقران ( الكبير )، 50 منزل

- سيدي صرة، سوق الإثنين الكبير، 50 منزلاً
- إزمورن ( شجر الزيتون ) ( التسمية الأصلية )، 500 منزل. وهذه المدينة الصغيرة محاطة بغابة من أشجار الزيتون. أما التجارة فمحدودة بها
- سيدي مالك، 50 منزلاً. وفي كل يوم سبت، يقام بهذه القرية سوق مخصص للنساء فقط.

وهناك حوالي 20 قرية أخرى متفرقة بالقبيلة.

القوى العسكرية تسعة آلاف من المشاة عدد السكان المحتمل 45 ألف نسمة. السهل ممتد في كل مكان. وتكثف بقية كما هو مثبت في الخرائط من ثلاثة ألسام وهي: ألوز شمالاً وثيقجوث وإزمورن جنوباً. ويحش في هذه القبيلة العديد من المتمردين الإسبان الذين نجوا من المحاكم الإسبانية. وستحدث عنهم بتفصيل عندما نذكر في ضوافة بني ورياهل.

## 29 قبيلة بني ورياهل

بمخولنا إلى أراضي بني ورياهل، لنقتل من سهل عار وهو سهل بقية، إلى بلد كل قبيلة، مغطى بنبات واقر. وقد كانت المفاجأة غير سارة بالنسبة للدروش على حدود القبيلتين، حيث تم سلبه أمتعة من طرف ثلاثة لوعاد، اعتقدوا أنه من بقية وخطبوه قائلين: ' Agger ibek'kouyin khaf sen ai netcheuch ( إننا نبحث فعلاً عن أشخاص من بقية، نطلع ملائمتك ).

وبما أن الرحلة كان مترددا في نزع ملائمته، أضاف قطاع الطرق قائلين: Hak'k sidi bou khiyar, ama our theksedh erkesoueth rekthou h'acha ma 'nenr'itch

( وحق سيدي بمخول، إن لم تترك ملائمتك فوراً، فإنا سنذهبك بكل تأكيد )

29 - إن الأمازيغيين الذين استقرتهم حول أصل هذه القبيلة، لم يبدوني في شيء. فالبعض يزعم بأنه تاليس كلمة ourier'li ( لم يسقط )، ولغزرون يبدون بأنه جمع لكلمة er-m'oul (القول ). ( كلمة عربية وأمازيغية). أما الغزرون الذين يقولون أنهم هنا ( ra ) فيهم ينطقونه ourier'er. والجزر رجل موجود في العربية، لكنني إن أف على هذا الأصل، متظاً إن أف على الأصول السابقة.

وسباني محمد أولهم، بحيث أن يتركوا له سوى قصبه ( القشور )، وعظما رأسه بعض الأعمى بعد ذلك، في تلك الحقبة، سأله عن الذين ضلوا به تلك القصة، وبعد سماعه لتفسيره، غلبوا مدة زمنية البحث عن المجرمين، غير أنهم سمعوا بعد ذلك، سيقون بأنهم لم يجدوا أهدا، وسيتابع محمد طريقه، إلى أن وصل إلى قرية كبيرة من كف منزل وهي أجدور.

إن أجدور الواقعة على جانب منحدر، تتوفر على خمسة مساجد وكان أكبرها هو المسجد الذي لجأ إليه الدويش طلبا للضيافة والملابس. وتلقى في هذا المسجد خطبة الجمعة ( وهي صلاة الجماعة التي تقام على شرف المصل )، وتقبل التوجه الأسلمة لهذا البناء، حجرة فنكور، وهي جزيرة جنباء، محطة من طرف الإسبان مثل *Pedon de veloz*، وذلك منذ أكثر من ثلاثة قرون، وقد بقيت حجرة فنكور من طرف الإسبان بالمسجمة *Albacemas* ( الخراسي )، وهي كلمة مستعارة من العربية مع تحويل بسيط، إذ أصبحت الخراسي هي المسجمة.

وفي ساعة المسجد الكبير، تراكم كرات المدافع والقذائف التي وجهت صوب أجدور من طرف المقاتلين الحاقين للمسجمة. ولم يفكر الأعمى في الرد بقذائفهم الحقيقة الموجودة هنا وهناك، بالأرصفة أو خارج القرية، وتوجد بباب المسجد ثلاثة مدافع ذات فوهات مقلوبة الحجم، أما المساكن المغطاة وسط شجيرات التين الوحشي، فهي مطبوعة بعضها عن بعض، ويرجع هذا الوضع إلى الشعور الدقيق القليل الذي يكنه الفرد من بني وريغال لجواله الذين يحترقون من لظفر أهدا، لكن يمكن تفسير هذا الوضع أيضا بحلق القضاء الشاسع وكراهة كل ما يضيق لعادات المفترقة بالإستقلالية.

إن الأراضي التي تقام فيها القبيلة شاسعة جدا، فهي تمتد على مسافة ستين كيلومترا تقريبا من الشمال إلى الجنوب وعشرين كيلو مترا من الشرق إلى الغرب، وتوجد تسمان على يمينها وبقيوة على يسارها، وبالشمال يوجد البحر الأبيض المتوسط الذي يفرض في حق الأراضي أبشكال الهلال الرافع لمرسى المجاهدون *Marsat Imjahden*، المسمى من طرف الإسبانين: خليج المسجمة، وبالجنوب، نجد القبائل القريبة التي يمكن قراها أسمائها على الخرائط، ذلك هو الإطار الذي يحدد بني وريغال، الذين تشبهوا بفعل موقعهم الجغرافي، بكونهم يمثلون قدم الفيني الخالص واللغة القريبة الخالصة.

وتتوفر هذه القبيلة المنظمة على 11 قسا وهي: أجدور من جذوة، أي ما تبقى من جنود ( نحل )، قسمية عربية، أيت موسى وعمر ( قسمية عربية وأمازيغية )، إبرايضن ( المرابطون ) ( قسمية عربية وأمازيغية )، أيت حنيفة ( قسمية عربية وأمازيغية )، أيت زيان

( التسمية عربية وأمازيغية )، أيت عبد الله ( التسمية عربية وأمازيغية )، كمون ( التسمية عربية )، أيت ونزار ( أبناء الجبل ) ( التسمية أمازيغية )، مشكور ( التسمية عربية )، ثلامورين ( أشجار الزيتون ) ( التسمية أمازيغية )-. وينطلق هذا الاتحاد من الشمال إلى الجنوب، وكل قسم من هذه الأقسام يجتد ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف بدو، بمعنى أن مقاتلي بني ورياعل يشكلون في المجموع 40 ألف مقاتل تقريباً، مسلحون جميعهم ببنادق إنجليزية وإسبانية ذات طلاقات متكررة.

إن بني ورياعل قبيلة كثيرة الحركة وهي جموحة وغير قابلة للترويض *indomptée et indomptable* وتعيش في أوضاع تامة. ولأنها ما تهجم القبائل المجاورة لها، غير أنها تعيش حالة حرب دافعية والقتال لأهوي *Fratricide* بين قسم وآخر وقرية وأخر ومزبل وأخر. ولأنها ما يخاف الرجال منازلهم بسبب الاعتداءات المتكررة، لذلك فهم يضطرون إلى التنقل عن المعاملات التجارية والفلاحية والرعوية. ولحسن الحظ، فإن النساء من القوافي يعوضن الرجال، حيث يرافق بنو القبيلة، الممرضة الأجانب الذين يأتون إلى القبيلة طلباً للشغل. والورياعلي إسماعيل صلب لا يقبل المهانة ويتصل بصعوبة حضور المسلمين، عرباً كانوا أم أمازيغ، إلى قبيلته من أجل التجارة أو الدراسة. وهو يكن كرهاً ديناً لليهودي الذي إن خطر بباله أبداً المجيء يوماً إلى هذه القبيلة المرعبة.

وقليل من الأفراد يصلون إلى سن الشيخوخة. فهؤلاء الإخوة الأعمام، يحصد بعضهم بعضاً قبل أن يغزو الشيب خصائل شعرهم الطويلة. وأحياناً ما نجد شاباً لم يشن جسده بالجراح، ويشعر المقاتل بالعار، إذا لم يكن قد أودى خمسة أو ستة أشخاص ! فالورياعلي يواجه الموت برباطة جأش ولا يخشى الموت بالقسمة إليه شيئاً. لذلك، فهو يعتبر حياة الغير لا أهمية لها، فهي مثل حياة ذبلة. وعندما يموت رب العائلة، مائة عقيقة أو طليعية، فإن موته يكون مناسبة للاحتفال تقريباً، إذ يقام أفراد عائلته مأدبة فاخرة، يدهى إليها كل الحاضرين للجنائز، ويحتفل على الخصوص، بالطلبة الذين يسبرون في الموكب الجنائزي وهم يرددون أبيات البردة، تلك القصيدة العربية في مدح الرسول.<sup>30</sup>

<sup>30</sup> - ومطلع القصيدة هو :

فمن تفرج جيران بني مسلم ﴿﴾ مزجت نساء جرى من مقلته بهم.

وكذا أجزء باني MR. Basset ترجمة جيدة لها ( باريس، لوروا، 1894 )، وهي الترجمة التي كنا نطليها بشكل عام. فنظر بهذا الخصوص:

*Bulletin de géographie et d'archéologie de la province d'oran*, fascicules LXII et LXIII, Juillet à Décembre, 1894.

وكثيراً ما يكون غير متسامحين، فإن هؤلاء الرجال المرعوبين لا يسمحون بوجود شخص ما بالمصنعة أو بأي شكل آخر، قرب زوجاتهم، فحينما يصلاف المرء إحداهن، وجب عليه أن يبتعد عنها دون النظر إليها، وإلا تلقى طلقات بندق أطيا. ولهذه الغيرة ما يبررها، لأن المرأة الفريسيات جميلة جداً وحتى الرجال أنفسهم وسميون، فهم يحقون وجههم عن آخر، ورأسهم أيضاً، باستثناء الصغيرة الوطنية التي تسترسل تارة وراء ظهرهم وتارة على صدرهم. وتقام في كل أسبوع سبعة أسواق بالقبيلة: سوقان يوم الإثنين وواحد يوم الثلاثاء وقتلن يوم الأربعاء وواحد يوم الخميس وآخر يوم السبت؛ وهذا السوق الأخير مخصص للنساء فقط.

ومع أشخاص غير متساهلين مثل بني ورياهل، فإن كل تبادل وكل تجارة، لا يمكن أن يتم إلا إذا ما صنعت للتجار الغرباء ثلاثة أيام من الهدنة في الأسبوع يكون وجودهم فيها غير معرض للخطر نسبياً. وحينما تنشب معركة بالسوق، وهو ما يحدث في الغالب، فإن البراهين يسارعون بالنداء: "على الغرباء مغادرة السوق". وسوفهم الجميع دلالة هذه الكلمات إذ يهرب الغرباء تاركين أهلي قبل يقتلون فيما بينهم بضراوة لا مثيل لها.

وعند العدة المغيدة للأجانب، توجد أيضاً ببغوة وبقيال رغبة أخرى. ويتوفر كل قسم على قائد خاص به، منتخب من طرف الجماعة. ويتم الحصول على مصطفة السلطان شكلها على هذا الانتخاب، بحيث يتلقى بالمناخية زيارة وهدايا الرئيس الجديد. بعدها، سيرجع هذا الأخير إلى هباته مرفوعاً ببعض الجنود النظاميين (المغازنية) المكلفين بتحصيل الضرائب التي لم تؤد جزئياً أو كلياً. وسيسئل القائد حضور هؤلاء الجنود ليمارس انتقامه ويقوم بشتى أنواع الابتزاز. وما أن يعود المغازنية من حيث أتوا، حتى يصبح القائد مجرد شخص عادي، يسهر فقط على سلامة شخصه. والملابس ببني ورياهل شبيهة بتلك الموجودة ببغوة؛ إذ يرتدي الرجال والنساء ملابس صوفية، مصنوعة ومصبوغة داخل القبيلة.

ويستحي تولد الإسرائيليين بصفحة الذكور، تجلبد بني ورياهل في كل شهر، لمرة حارس مكثفين بمراقبة هذه الصفحة المملونة. وتقدم الأقسام الإحدى عشر رجالها بالقتلوب؛ حيث يقضي المقاتلون ثلاثين يوماً على شاطئ البحر بغياهم وأسلحتهم وكل أفراد عائلتهم. وهم يراقبون حركات وتحركات أفراد العصابة الإسرائيلية، ويكونون على أهبة استعداد كل محاولة لئلا قد يقوم بها الإسمان بغليخ المجاهدين. وقد سمي الفريسيون خليج الصيمة بهذا الاسم، لأن آلاف الأبطال المسلمين المجاهدين سقطوا تحت ضربات الكفار. ويختبر هذا المرغاً المروي بنماء كل هؤلاء المجاهدين، كل أرض مقدسة وكصحح للزوار الأتقياء. ولثناء كل تغيير الحراس، يقدم

- ملحوظة المترجم: يتفق الأمر طهما بقسيدة البردة الشهيرة للإمام المصوري



والفردون الجدد لمنحنيات مهيبة، على قبور المجاهدين المدفونين بالسلاسل. ومن بين هذه القبور المباركة نجد: سودي الحاج سمود، سودي مصد ليركان وسدي دلوود، الذين ملقوا منذ زمان، وهم يقتلون من أجل النفاق عن معتقداتهم. إنهم مجاهدون imjahden كما يقول الريفيون الذين اغتزلوا هذا الاسم المستعار من العرب. وهناك قبب صغيرة تشير إلى المكان الذي نزل فيه هؤلاء المجاهدون إلى مثوانم الأخير.

ويتكف المركز الأمازيغي الواقع على شاطئ البحر قبالة الصخرة الإسبانية، غير بعيد عن أجدير، من بناية كبيرة هي عبارة عن تكتة بيوت عديدة ومن مسجد. وكل من التكتة والمسجد محيطان بكتبان من الرمل، تصحبهما عن أحسن الأعداء المتواجدين بصخرة النكور. ويتوفر الريفيون على حوالي مائة من المدافع القديمة غير المستعملة. وهم يهتمون الإسبان طبعا بتثبيت هذه الآليات غير الصالحة بواسطة إبرة مزعومين، تم استلجارهم لهذا الغرض. ويستخدمون بنادقهم ذات الطلقات المتعددة بهارة، حيث يطلقون الرصاص وراء كتبتهم الرملية، ذلك الحاجز الطبيعي الذي وضعه الإله الطبيب عن قصد، كما يقولون ، لإبطال تأثير القذائف المنبذة من مدافع الأعداء.

إن خليج المجاهدين المسمى من الرياح شرقية والغربية ينتهي عند رأسين وهما: Cap des maures و quilates. والسؤال المطروح هو: هل من الممكن مستقبلا استعمال هذه البوابة الشاسعة التي تفتح بشكل كبير على ريح الشمال، عندما تحل المضطرة المتسامحة محل التمسب؟

وتوجد صخرة النكور، هذا المسنن البحري الرهيب، على مرمى بندقية من المركز الأمازيغي القلزم باليابسة. ويمنع منعا كلياً على الريفيين بيع أي شيء للإسبان الذين يظنون على الدول محاصرين بصغرتهم. غير أن بإمكان الأمازيغيين غير المسلحين أن يذهبوا إلى الجزيرة الصخرة للتبضع. ولا يستقبل الريفيون سوى القارين من الجندية أو السجناء الإسبان المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة واثنين يفضلون الحماية بالريف على البقاء بالصخرة المرعبة. ويأمر أغلبهم، عابرين المسافة سباحة أو بواسطة قوارب يملكها الأهالي. وما أن تطأ أقدامهم اليابسة حتى يرفعوا أيديهم إلى السماء، معلنين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، بطريقة ركيكة، وسيكون هذا الأمر كافياً لإقناعهم، إذ أن الريفيين أن يعملوا فقط على حمايتهم من كل اعتداء، بل سيمنحونهم بكل سرور، الملابس والمال. وسيخصص لهم منازل مريحة وحقل يظفونه بكل حرية. وإذا ما أراد أحدهم الزواج، فإن الخبر ينتشر بالقبيلة، وعلى الفور يسرع الأشخاص الأكثر

ثراء بالقرآن بنقلهم كزوجات. وتكثر الفتاة التي تم اغتالها للزواج من هذا الشخص الحديث المهد بالإسلام، والذي ستهتم بتكملة تعلمه الديني.

لقد كنت في مقبلة الكتاب بأن المسلم داعية \* وعلى أن أضيف: وكذلك المسلمة. فكلما تحدثت مع ربات أسر مسلمات ومحترمات، إلا ويدرن بطرح مسألة الدين بهدف البرهنة على امتياز الإسلام مقارنة بالديانات الأخرى.

ففي حين يرفض اليهودي تملسا دعوة الآخرين إلى اعتناق ديانته، ويتخذ المسيحي موقفا سلبيا لكثير فأكثر من هذا النوع من الدعاية، فإن المسلم ظل بمثابة الداعية المنتمس الذي ينكرنا بالقرآن الهجرية الأولى. فهو مازال يعتقد وبثقة على أن الرومي الذي اعتنق الإسلام سيخضع لجنة قبل أولئك الذين دخلوا عن الإسلام، بل وسيعامل أفضل منهم.

ولهم الآن، لماذا يجد هؤلاء القضاة الهاربون من قشور الإسبانية بالساحل الغربي الاستقبال والحنو من طرف الأمازيغيين المهامي الجاني في كل أرجاء الإمبراطورية الشريفة. فالمركز الإسباني الذي يتمتع في المغرب باحترام لا يحظى به البابا نفسه، يستغل بمهارة هذه الوضعية الاستثنائية، كي يمتلك مجانيا موارد لم يحلم بها حينما كان يجر قيوده كسجين أو حينما كان يقوم بدورية الحراسة وهو يوجب أرجاء القبيلة بزي الأماني، بكامل الارتياح، حيث يستغل بحفاوة أينما حل، ولا يعرف إلا من خلال لفتته الأجنبية. ونجد فكثير من قمردين ببقوة وأغلبهم فروا من Pefion de velez . كما نجد البعض منهم ببني يظفت وبني بوفراج، وهم أحرار في الذهاب أينما شاؤوا، لكنهم لا يتحدثون عدة عن شغلهم البحر، حيث يمكنهم رؤية سجنهم القديم. ويذكر أن بعضهم اغتلى بفس وبمراكش، وأن البعض الآخر اندمج في القبائل الداخلية. وقد كانت لهم ذرية بالبلد، ويجهل خلفتهم بأنهم ينحدرون من رومي كان محكوما عليه بالاعتقال لشاقة في سجن بالساحل الإفريقي. وتبدو جزيرة النكور صغيرة المساحة مثل جزيرة بانيس، وهما متشابهتان، إذ يوجد بهما الجنود والذكاكين والسجناء. ومع ذلك، توجد أماكن مضبوطة تسود فيها الخلاعة ويقبل عليها الأمازيغيون أنفسهم.

ويجلب الإسبان كل شيء من بلادهم، بما في ذلك الماء الضروري لسكان هذه الصحراء الهبسة. ويقطع مركز روفي للجمارك قيم بالقرب من مركز الحراسة على القابسة، فتارة من البعض الأتية من إسبانيا عن طريق النكور.

\* ملحوظة المترجم: يستعمل المؤلف لفظة كامن Pefion، وهي أقرب إلى التصور المسيحي منها إلى التصور الإسلامي. لذلك اقترحت لفظة داعية تعريب المعنى أكثر. فنظر ملائمتها لسبلة بهذا الخصوص.

إن بني ورياهل يتكون أرضا خصبة ممتدة بمناخ غزيرة المياه. وفي الأقسام الشمالية تسمح السهول الشاسعة والمتوجة قليلا، للأهالي بزراعة الشعير والقول والقمح. وتتوفر كل القرى على حزام كثيف من الحدائق والبساتين التي تلتج كل ما يمكن تصوره من فواكه وخضروات. وتوجد بهذه القبيلة التي يبلغ عدد سكانها 200 ألف نسمة تقريبا، أكثر من 200 قرية يتراوح عدد منازلها ما بين 10 و 100 ويخترقها من الجنوب إلى الشمال واد غيس ( واد الطمي ) الذي يصب بغليج المجاهدين تحت اسم واد النكور. بعد أن يفقد ثلاثة أرباع مياهه التي يستغلها الأهالي المتواجدين على ضفافه، لسقي حقولهم. ويحصل هذه المياه للخبرة لمتلن ضفاف النهر من منبع إلى البحر، بأشجار التين والجوز واللوز والرمضان والفتاح والشمش الخ... إن هذه القبيلة الأكثر على على مستوى المياه والأشجار، تتوفر بهجلب النهر على بساتين شاسعة وحقول ومروج تشقها المناخ المتواجدة بكثرة بالمنطقة. وبالجنوب، وتحديدا بليت ونزارة، توجد قرية جبلية صغيرة مكسوة بأشجار الزيتون. ويتعلق الأمر بجبل سيدي بوخيار، الذي يشكل تقوّم الطوي مضبة واسعة شيدت عليها قرية من 100 منزل. وهي زاوية سيدي بوخيار التي تلتحق بمنازلها على رفات الولي القروسطي سيدي بوخيار، سيد قبيلة بني ورياهل برمتها.

وما يضاف على جبل بوخيار أصيوله، هو على ما يبدو الكنز العظيم الذي يمتلكه منهم فذهب قوامه بصفحة الجنوب. وقد كاد هذا المنجم أن يؤدي إلى أزمة دبلوماسية بين فرنسا والمغرب. فعند وضع سنوات، سجل القاضي تارجمست، السيد الطنّاز وشريكه قائد لوت ونرلو اللذان زعما أنهما وكهلان قبيلة بني ورياهل، عقدا البيع، يتم بمقتضاه تسليم المنجم إلى شركة فرنسية، سبق لها أن توصلت من هذين الشخصين بعينة من أجمل القطع الذهبية. ونفقت الشركة أموالا كثيرة معتقدة بأن العملية كالقوية ومربحة. وبعد أيام ظهرت بمياه خليج المجاهدين، سفينة تحمل العلم الفرنسي وعلى متنها مهندسون وعمل وكل الآليات الضرورية لاستخراج المعدن. وتم إزاح فوراً سفينة بالعمل. باتجاه الشاطئ. غير أن بني ورياهل الذين لم يفهموا سبب هذا الغزو، من نوع جديد، لأنهم لم يكونوا على علم بالصلية، سيتصدون بصرامة للغزول الفرنسيين. وسيلجأ الخبر إلى قبايلي تسمان وبقيوة اللتين ستواصلان على الفور مقاتلتها. وفي أقل من 24 ساعة، كان هناك 60 ألف من الأمازيغيين المسلحين الذين سطوا بكتلتهم الداكنة، ساحل الخليج. وقد اتخذ مظهرهم شكلا حدائيا إلى الحد الذي اضطرت معه السفينة الفرنسية إلى الرجوع بسرعة من حيث أتت.

ولما شعرت الشركة الفرنسية بأنها خدعت، رفعت شكايتهما إلى السلطان الذي سيتدخل من هذه الورطة ببراعة وبالمخاطلة المعروفة لدى العرب، مشيرا إلى أن الأمر يتعلق بعملية

نصب القرابين عنصران من الأهالي لم يلوّضا أبدا من طرف الحكومة المغربية التي تعتبر هي المالكة الوحيدة للثروات المعدنية بالمغرب كله. وسعد في الأخير بمحاكمة النصابين بصراحة، وبذلك حالت الشركة بخفي حنين.

من جهةهم، فإن بني ورياهل سيحتفظون من جراء عملية النصب التي قام بها قائد أيت وذرر المسمى علي بن يحيى، وسيوجهون جماعة إلى منزله، حيث سيقومون بإحرقه ونهب ما به من أمتعة. وسيطاردون هذا المحتال الذي لجأ عند بني توزين. غير أن أهالي هذه القبيلة الملقمة بقواعد الضيافة، سيرفضون تسليم الجاني إلى أفراد قبيلته الذين كانوا عاكفين الحزم على تعليمه إربا إربا وسفك دمه، لأنه كاد أن يصب في دخول النصارى إلى بلدهم. أما المحتال الآخر، وهو القاضي تارجهيست، فإنه لم يتعرض لأي سوء نظرا لبعد قبيلته، وسيقتل بسرعة بالغة. ولأنه لم يحرف كيف يستعمل النقود الذهبية الفرنسية التي اختلسها بجرأة، فإنه سيوظف سكرتيرا وسيبحث في رخاء، متعنا نفسه بكل الخبرات الموجودة بالقرب.

والنتيجة المثيرة في هذه القضية، هي اكتشاف السلطان لوجود منجم ذهب بقبيلة بني ورياهل، وهو ما كان يحمله من قبل. وبخريطة منع النصارى من الاستيلاء على هذا الكنز، سيبدأ حملة صغيرة من الجلود القنطاريين، في النقطة التي يسكن فيها استخراج المعدن، مع منع أي واحد من الاقتراب منها.

هكذا، فإن أهالي المنطقة الذين كان بإمكانهم من قبل، المتاجرة على قشاطر بيضا المعدن اثنين، لم يعد مسموحا لهم القيام بذلك. وانحازوا ما تمكنوا أثناء الليل، من سرقة بعض الأحجار القيمة القيمة والتي يبيعونها بثمن بخس. وبالجنوب، غير بعيد عن جبل بوهيار، نرى جبل الرصاص وهو يتوفر على منجم كبير للرصاص لا يستغله أحد.

ومن الغريب أن نجد في قبيلة عليفة مثل بني ورياهل، كما لا يهتم إلا بالموسيقى. وينطق الأمر ببني عروس الذين يمتنون الحرب. فالفن المتمثل في الموسيقى الآلية والغناء، يأخذ كل وقتهم. وكل مسافر بطأ أرضهم، يصاب بالقسم من جراء الضجيج القطيع الناتج عن قناري القصبي والطبول التي تصاحب زعيق هؤلاء الفنانين المتقنين لسلهم والذين يقومون بتكرير مضطربة قبل أن يحويوا الحفلات في القبائل المجاورة. وإذا ما كانت الموسيقى تثير قطباغ فإن الرقص يفسدها، وهذا ما يلاحظ على الأقل عند أيت عروس الذين تعتبر نسلهم راقصات بارعات ومتهككات في نفس الوقت.

ويتكون طعام الورياعلي من الحنص والحصى والقول والفواكه والسمك. أما المقلات الموسرة فمستهلكة في المناسبات الاحتفالية، اللحم المشوي أو المسلووق. وتوجد الطرقات بكثرة في القبيلة، كما تمنح الغابات بالمخازير وبساتين أوى التي يطارد بها فرعاء أحياناً بكائنهم.

### القرى الرئيسية ببنى ورياعلي

- لجهير، 1000 منزل؛
- نفارنت ( قفلس الصغيرة / المصطبة الصغيرة ) ( التسمية أمازيغية )، على ضفة البحر الأبيض المتوسط 500 منزل؛
- تارورنت ( الحجر )، ( التسمية عربية وأمازيغية )، 300 منزل. ويقام كل يوم السبت بفتحال الغربي من القرية، سوق خاص بالتماء فقط.
- أيت موسى وهر، 300 منزل، ويقام كل يوم الأربعاء، سوق بشرق القرية؛
- تيفرت، ( الحقل الصغير )، ( التسمية أمازيغية )، 300 منزل؛
- تاراهين، ( القاموس )، ( التسمية أمازيغية )، 100 منزل؛
- مولاي بطوب، 50 منزل؛
- بليين، ( ملكو الأرناب )، ( التسمية عربية وأمازيغية )، 500 منزل؛
- زاوية سيدي يوسف، ( التسمية عربية )، 500 منزل؛
- ليزمورين، ( أشجار الزيتون )، ( التسمية أمازيغية ) 300 منزل. ويحتفل القرويش في هذه القرية بعد الأضحي سنة 1890. ويقسم ولا غيس القرية إلى قسمين وأحياناً ما يضر مواهه بنفاتها البسيطة.
- الخميس، 500 منزل، يقام بها سوق الخميس.
- كسون، ( التسمية عربية )، توجد القرية فوق تل ويقام بها سوق كل يوم الأربعاء.
- زاوية سيدي بوحيلز، 100 منزل؛
- مشكور، 300 منزل؛
- إهلونين، ( أبناء حارون )، 150 منزل.
- القوى العسكرية، 40 ألف من المشاة؛ عدد السكان المحتمل 200 ألف نسمة.
- السهل متموج من كل جانب. وتوجد بالقبيلة مسالك عديدة. التعليم القرآني منتشر بكثرة. وهناك أكثر من 200 قرية صغيرة لم تمكن من معرفة إسمها. وتوجد العديد من المنازل بطابق واحد.

## قبيلة تمسمان

( القار والماء ) ، ( التسمية الأصلية )<sup>21</sup>

ينطلق القرويش من أيت موسى وعمر. وهو القسم الشمالي لبني ورياعل، ويستتبع طريقاً موازياً للبحر، فليصدا قبيلة تمسمان. هكذا، سيترك وراءه السهل الشاسع للكور الذي يمتد إلى ما وراء الحدود الشرقية، حيث سيأخذ تسمية أخرى.

ولسوء حظ الرحالة، فإنه سيقع من جديد في ورطة أخرى. فبعد أن عبر واد الحديد، وهو نهر صغير يحد كلا من بني بو دلوود وأيت موسى وعمر، تقامى إلى سممه صوت طلقات ناربية قوية. وكان رجل من بني ورياعل يجري بمسيرة ويقتز فوق أتربة البستان القليلة التي لم يمر على ساقها وقت طويل. وعند رؤيته للقرويش، توقف مستقلاً بأنه أمام فرد من قبيلته وأمر له بحث أن ما ينامز القملة من رجل ونساء أيت موسى وعمر، أرادوا الاستمتاع بهطيوخ الأخضر (دلاج) مسروق من أحد البساتين، خلال رجوعهم من زيارة قبر الولي سيدي شعيب ومفتاح، ببني دلوود (تمسمان). ولأن حارس البستان، وهو دلوودي، أراد منهم، فقد تم جرحه بطلقة بندقية. وها هم الآن مطاردون من طرف أكثر من خمسين ملكاً لبساتين بني دلوود الذين قتلوا ثلاثة أفراد من بينهم. ولم يضاف الرجل شيئاً، إذ من المحتمل أنه كان ذاهباً للبحث عن مساعدة وتابع جريه باتجاه حدود بني ورياعل، تاركاً القرويش مذهلاً من جراء الطلقات النارية التي كانت تقرب منه تدريجياً. وبرز شخص آخر، من بني ورياعل مطارد ومرعوب، بحيث مر أمام محمد دون أن ينتبه إليه. عتذرت لفتناً لرحالة داخل دهل الأشواك التي كانت تسمى جسده، غير أن القطار الثقيل للورياغلي سيكتشف مضايده وكاد أن يقتلته كلرب، لولا أن القرويش صاح: "تمهل، إني من بني عروس". ولم ينس الرجل بكلمة، بل تابع جريه. وتنافس القرويش لقصدها إثر ذلك، إلا أنه سيقع بين يدي ورياعلي آخر، سيستلبه أمتعته فوق أراضي تمسمان نفسها. وهذا الشخص الثقيل من أيت موسى وعمر، وقد أوقف القرويش زاعماً بأنه إسباني مثقور في زي أسباني، وأمره بإعلان شهادة أن لا إله إلا الله. وتجرأ محمد في البداية، حيث خرج من ملجئه وقال للرجل: "أعلن الشهادة بنفسك". وبالقفل، أعطاها هذا الأخير بأداة ثم صوب بندقيته

<sup>21</sup> - يلعب الأمازيغيون شبه العرقيين بالكلمات، حينما يتعلق الأمر بهذه القبيلة. فهم يقولون: "فمن ما قصص لمان (أينا لست - الأرض - تجد الماء)". والمقصود على التلاعب الجنسي بالكلمات، ويجب الربط بين الكلمة العربية ونسب الكلمة الأمازيغية لمان (الماء).

تجاه الدرويش الذي لم يحرك لسانه إلا أنه، محمد رسول الله، عطاها صباح الورياهلي: " لقد أرادت اللهكم على ما بين القصراني، من أين كنتم؟ " ولجابه محمد " من بني عروس ". ورد الورياهلي: " وهل أنت عروس رجل؟ " فنحن متخلصمون منهم ". فقال الدرويش: " ياعزيزي، إني ولدت ببني توزير، لكن والدي أرسلني لأتلمذ عند أيت عروس ". ولجابه الرجل: " حسنا إن كنتك. لكن لعل ثوبك وعلقتك. وحاول الدرويش مناقشة الأمر مع الأمريخي، غير أن هذا الأخير صوب بندقيته باتجاهه وفشور بطلعه من عينيه، مما اضطر الدرويش إلى خلع ثوبه في رمشة عين. ولم يبق إلا القميص الذي يستر عورته، إلا أن تهديد عنقه سيجبره على خلع. وبكل هدوء، سينزع الورياهلي ثوبه المبهلة وسيلبس الثوب الجديدة والنظيفة نسبيا. بعد ذلك، وضع الهندية على كتفه، بعد توقف طلاقات البناني، وألقى نظرة على الحقول والبيساتين المجاورة بلوتياح واتجه صوب قبلة بني ورياغل، دونما اهتمام بمحمد الذي ظل واقفا، عازيا مترددا في ارتداء أسمل الرجل المقرقة. وما كان يؤلمه أكثر، هو منظر الجالبتين من الصوف ليجد على ظهر ذلك اللص.

وكان انحوله إلى قرية سيدي داوود، واقع مؤثرا، حيث تجمهر السكان حول الدرويش القميص الذي كانت أسنانه تغطي عورته بالكاد. وكان منظره المرتعب، حائلا في تعاطف الحشد معه. إن ذلك، تهاقت الجميع من أجل استضافته وملا بطنه بالخيز والتين القويحي.

ومن مدخل القرية إلى المسجد، كانت المسيرة حامية فعلا، وكان الأطفال يجرون أمام محمد، وكان الرجال والنساء يحيطون به ويرفقونه. ومن جهته بالغ الدرويش في إظهار جنونه المزعوم رفقا يده إلى السماء ومباركا السكان المزج الذين اعتقدوا بأنه مغبول (أحمق) وسيستقبل بحفاوة من طرف الطلبة الذين أثارهم الصخب الحاصل بباب المسجد. وعلى الفور، منحوه ثوبا جديدة وتبادلوا معه أطراف الحديث في انتظار وجبة الحشاء. وقد أثار السلوك اللطيف للطلبة والمعلمين انتهاء الدرويش الذي قهبط بتولجده مع هؤلاء الناس الطيبين. بعد ذلك، قدم حشاء فاخر سيزيد من فتراج الزائر الذي احتفظ بأجمل الذكريات، ليس فقط مع سكان سيدي داوود، لكن أيضا مع كل أهالي تسمان الذين يختلف طبعمهم اللطيف والمرح، مع الطبع القوي لجيرانهم بالخرب.

ومن بعد، تبدو سيدي داوود كمدينة صغيرة لكن ما أن يقترب المرء منها، حتى تظهر له قرية كبيرة من أربع إلى خمس مائة منزل، على بعد ربيع ساعة من البحر. وتستخدم قرية الحيد الصغيرة نسبيا، كمرفأ.

وتعد قبيلة تسمان شمالا بالبحر الأبيض المتوسط وغربا ببني ورياعل وشرقا ببني سعيد وجنوبا بالقبائل الريفية المثبثة بالخرائط. وتبلغ مساحتها 40 كيلومترا من كل الجهات. ومثل بني ورياعل، فهي توجد كلية داخل سهل كبير، تسقيه ثلاثة أنهار صغيرة والعديد من الينابيع المائية. وفي كل مكان، تجد بساتين كبيرة، تتوفر فيها جميع فواكه الشمال الإفريقي مثل: أشجار التين واللوز والرمان والقوق والوحشي والمشمش والإجاص والتفاح والفوخ والعنب الخ... كما توجد في كل مكان، بساتين الخضروات حيث تزرع جميع الخضراوات التي لدينا في الجزائر. ولأن التين الوحشي والخضر متوفرة بكثرة فلها لا تعرض أبدا للبيع في الأسواق، بل تهدي للمحتاجين.

ونستحق تسمان هذا الاسم. فلنما حفرنا الأرض ينبع الماء. وفي جنوب القبيلة يكون الماء عذبا، صالحا صالحا للشرب، أما في الشمال فهو عكر ومالح بعض الشيء saumâtre. لذلك يتم جمع مياه الأمطار في خزانات كبيرة. وتستخدم ثلاثة أنهار وهي: وادي بني عثمان، وادي سيدي إدريس، وادي مرغني، لسقي البساتين والحقول. كما تسمح القنوات والجدول الموضوعة بظلية بوصول مياه الأنهار والينابيع إلى أماكن بعيدة.

لذلك، فإن المنطقة هي عبارة عن حقول خصبة مترامية الأطراف، تنتج لشجر والعنبر والبقول والحمص والفاصوليا والذرة الصفراء والبطاطس التي تستورد بذورها من الجزائر أو من إسبانيا. وبفضل السهل الشاسع، تبرز بين الغينة والأخرى، أشجار وفرة الظلال، تكسر رتابة المنظر. ونذكرنا هذه الأرض الخصبة والمزروعة بظلية من طرف ساكنة جيدة ومسجلة، بتلك المناطق الفرنسية التي يزرع فيها كل شيء، ولا يترك أي شبر من الأرض دون زراعة. فلماذا نهث بعيدا ونحت مناخ قتل، عن أشياء لا تساوي ما يوجد تحت أيدينا وبجوارنا، في منطقة رائعة، يستشق فيها إنسان شمال، الهواء المنعش المحيط والبحر الأبيض المتوسط.

وتتوفر تسمان على خمسة أقسام وهي: بني دلوود، تركوت (الضباب) بني ثعبان، لبت مرغني (أبناء كرمة العنب)، أوشان (بنات أوى). ويوجد كل قسم 4 آلاف رجل من المشاة، أي ما مجموعه 20 ألف رجل بالنسبة للقبيلة برمتها. وتطلب وداعة أملي تسمان والأمان السائد عندهم، العديد من الفرياء والطلبة الذين يلتون في أسواق ومدارس القبيلة. وهناك زوايا عديدة بالمنطقة، يدرس بها القراء والأحاديث القبلية ويطلق "الورد" الذي يتم تلقيه بالعديد من الزوايا الموجودة بالمغرب. وأكثرها انتشارا في الريف، هي زوايا سيدي أحمد بن عيسى وزوايا سيدي أحمد بن ناصر والزوايا الدركاوية. وتطلق ابتهاجات أقباع سيدي أحمد بنعيسى ويتم ترديدتها صباح مساء وحتى في أواخر الليل، كما يلي: "يا سيدنا يا رحيم، أقم علينا بمغفرتك. ما الذي نبتغيه من عرض حلقنا أمامك وأنت أعظم بها؟ إليك وحدك توجه دعواتنا يا من يرانا. فكن مجيرا لنا



من كل ظن". وضمن انتهاكات لزوايا الأخرى قتي أتوغر على نصها العربي. هناك انتهاكات رقة أسدي بها بعض الأخوة " الذين لم يجدوا أي حرج في كشف الأسرار المزعومة لزواياهم لأمسي.

إن الزوايا الإسلامية قتي تأسست بخوض نشر الإسلام، تسمى إلى اكتساب سلطة دولية علمية، تهيمن بواسطتها على كل شيء ويكون فيها الطمايون عبارة عن لا شيء. لكن عليها ألا نعتقد بأن منها الوحيد سياسي. فأغلب المستعصين المتعصبين ضمن حاته الزوايا، هم ورعون بشكل كبير ولا يلهون بما يحدث على أرض الواقع، لأن هدفهم هو تحقيق الانكشاف قدام قتي يرغب فيه كل الاكراهيين في الدولات الأخرى، وذلك عن طريق الصلاة والصوم والزهد.

وتعتبر الزاوية المسلمة من أخص الأتباء إلى الإدارة الفرنسية في مستعمراتنا الإفرقية الشاسعة. طبعاً، فمن لا زانا مثلاًرين بنكريات الحديد من الجمعيات السياسية السرية قتي عزت لوروا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد ساهمت مقاومة رجال الدين لكانوليكين إلى حد ما، في تشبيه الإخوان الجزائريين بالإخوان المسيحيين. وهذا التشبيه لم يكن مزمعاً بالنسبة إليهم. فالجماعات الإسلامية قتي كانت متفجرة هنا وهناك قبل سنة 1830، ستقبل دور الزراعة الذي أسد إليها بغير طمها، من طرف الناس توسوا على بنية بلفة وعادات الأهلي. والحدود من هذه الجمعيات، جعلت فرنسا تنفع ثمناً باعظاً مقابل هذه التضحية المزعومة بالذات وهذا التأثير المزعوم أيضاً. والحقيقة أن هذه الزوايا الإسلامية قتي لا حصر لها وقتي تعيش في صراع دائم فيما بينها، لا يمكنها تحقيق التقام مع بعضها البعض ولا أن تشكل كتلة منسجمة مهيأة للجانب، وفضلاً عن ذلك، فإن المعلم ليس في حاجة للاكتساب إلى أية زاوية كي يملك النصراني.

ولم يخطر ببال مؤسسي الزوايا الإسلامية خلق إطار سياسي. فقد كان هدفهم هو جمع الأهواء المطرقة وإرجاع الشعب الضال إلى الإيمان قبلاني الخالص. وإلى يومنا هذا، حينما يريد شخص طموح إشعال فتيل الثورة ضد الصلوي، فإنه يقوم بذلك، بمحض إرادته، دون مساعدة فعلية من زاويته قتي تكفي في غالب الأحيان بمباركة خطوته بالدعوات والصلوات .

وما قلته الآن بخصوص الزوايا الدينية بالجزائر، يمكن أن ينطبق على طريف وطى المغرب برمته. وغالباً ما يتم الخطأ حينما يتعلق الأمر بالمعالم الإسلامي، بين الزاوية الدينية المصنعة والجمعية السياسية السرية. وهذه الأخيرة توجد عند جيراننا بالمغرب. فتحت باقطة الذين، تسعى إلى تحقيق هدف سياسي، وستكلم عن ذلك في حونه.

إن وجود الإخوف، هؤلاء الأصليون المسلمون، بشكل كبير يتمسك، له ما يبرره. ففي هذه القبيلة هناك عدد كبير من "التماج" الضيقة التي لا يستطيع كل فرعا المتولين هدايتها. لما زلت منع الحواس والأطعمة الجيدة والموسيقى والألعاب والتيلي الطويلة التي يتم خلالها في تناول لكواب الشاي وسط الدخان الكثيف للكيف، تشكل التسليات المضطلة التمسكين. ورغم أن هذه بعض النساء والظلمن يظل مربيان إلا أنه لا يتجاوز الحدود المرسومة مع ذلك. ويرتدي الأعلى القابس الصوفي في الشتاء والحلب الخفيف في الصيف. أما جلابة الرجال فلونها أسود، ويجهزون في زيمه وسلاحهم بني ورياحل. غير أن الهندية ذات الطلقات المنكورة، لم توضع بشكل نهائي الهندية القاذورة (المكحلة). وككل قريتين المتولين بالسل، فإن التمسكين يسهون جهداً إذ نجد القكور من 10 إلى 15 سنة يتممون في البحر صيدا وشتاء. وقد يصبح بعضهم صيدا عند بلوغه من الرشد، لأن قسمة صياع كثيرا على قشاش وبالقابل.

وسنتخذ فرصة مرورنا بكثير قبائل قريش مرعا، للكشف عن حل هو من أكثر الحلقات اشتقاقا من طرف القريش ويدعى الكرنفال<sup>32</sup> ولا نجد شيئا له في الأجزاء الأخرى من المغرب، سواء لدى العرب أو لدى الأمازيغيين. وهذه القريش يعرفون ويمارسون المسيرة *mancarade*، إلا أنهم لا يجهزون بذلك خارج منطقتهم، لأنهم يدركون سببا بأن المسلمين الآخرين سيقتلون بنوع من القرف هذا اللعب القهريجي الغريب. فهل يمكن اعتبار هذه اللعبة استمرارا للألعاب القهريجية الرومانية *zturnales* ؟

كلما كان الحال، فإن الكرنفال القريش الحلي، يحافظ على تقليد قديم تلك المسولة إلى غير الأرمز. ويقام هذا الحفل الغريب ثلاث مرات في السنة: عند حلول السنة الهجرية الجديدة وفي العيد الكبير (عيد الأضحي) والعيد الصغير (عيد القنطر).

فما أن تشرق الشمس حتى تهرع الحشود إلى الشوارع منتظرة ظهور الأشخاص الخمسة الذين سيقيمون بلعبة المسيرة الوحيدة بالبلدة (وهذا الحد لا يتغير).

وفجأة، سيعلن صراخ الأطفال عن مجيء شخص متج على هيئة قانس. وسيجلس هذا الأخير فوق ركاب من زبل القماد هيء خصيصا له، منتظرا بهوء، على مقعد المقرز، حضور المتقنين، أي الأشخاص المقدمين، الآخرين الذين لن يتأخروا في المجيء. ويرتدي هذا القانسي

<sup>32</sup> - سأطرح هنا موضوعا مرجعا من القليلة الأخلاقية. ولولا أنني التزمت نفسي بهذا قول كل شيء وبشكل عن الحلات السنة والبلدة لتعب ما زل مجهولا، لكنت قد تغلبت عن وصف هذه الحلات القديمة والسنة التي ظلت غير معروفة إلى يومنا هذا. هكذا، فإن الإثوغرافيا تصنع أحيانا لصورات القصة.

الغريب بثلة من الخيش وتكون حباته من شبكة صيد صغيرة الحجم، كما يغلي رأسه بقية كبيرة خضراء أو حمراء مستعملة ومطبوقة بورق قلب السكر ثم التقلية من الزبدة. وهو لا يضع قناعا غير أن القناع الذي يلمح وجهه غير معروف. ومكان أنفيه توجد مسامات من بلح البحر ويضع على وجهه لحية وشاربا من الصوف، كما يمسك بيد عصا من الخشب وباليه الأخرى كومة من جلود الأرانب مستخدم كسجلات لحفظ بها أملاكه بثقة. ذلك هو الرجل الذي سلطه بإحدى أسرى الوظائف الإسرائيلية وهي: إصدار الأحكام على بني جنسه. وسنالك الحشد نظره من القلبي نحو الأنثى الأربعة الموقدة على القرية من الخارج والمكونة من: " باتيخ (رب الأسرة) وزوجته والصغار واليهودي المرافق له.

وإليك زي باتيخ: فهو يرتدي أسعلا ويضع حزاما من الحلقة حول خصره ويتعلل خطين مطويين ويكس سقاية بجلود الماعز، ويضع فوق رأسه قرية بامسة وعلى أنفيه ورقتين صغيرتين من شجرة القيقب القوي. أما الوجه فيغلي داخل بقطينة مطبوعة من الدفعل ومطبوقة في أماكن العينين والدم، وعلى جبهته الفم هناك ناهان لغزير حقيقي يخترق القناع ويرمز إلى أسنان قوحي المتفتح. وفوق البقطينة وضع جلد القنفذ بأشواكه، حيث يرمز إلى اللحية المطيرة. وبالجزء من ذلك خدير ومسح من الكوخ *serula communis* وبثنية من نفس الخشب مثبته بالكتفين بواسطة حل صغير من القوم. ومن الرأس يغلي عرق حصان أو نجل بقرة كرمز لضورة قشر الوطنية. وحول العنق، هناك قبة من القوم ملونة بالحصى ومسبحة تكلف حباتها من البرقال أو القيقب. وفي الأخير، ولتتمة هذا الزي الغريب، فإن قضيبا خشبيا سيمر بالإضافة إلى حبات من القيقب، إلى العضد القلبي لهذا الشخص المضطرب.

أما زوجة باتيخ، فمغطا شخص مثير الهوى، يلف جسده بلباس قديمة كلباس داخلية، ويكس قديم وطويل مصنوع من جلد الماعز هو بمثابة فستان (ملحقة). ويضع على صدره كرتين من القيقب، وأحيانا بعض الخرق القليلة المتهدلة، كرمز للثوبين الباهمين. أما عرق الأذن فهما من حذوتي القوس. وحول الفم حطت ثلاثة من مواقع الطرود المشدودة بحبل القوم. ويتشكل القناع من بقطينة موقدة من الدفعل ومطبوقة جهة العينين والقلم السماح للشخص بالنظر والقبض. ومكان الأسنان وضعت حبات من القيقب القوي. وقد حجب الرأس برداء وسخ من الجلد، ووضعت أساور حديدية بالمصمم وأطع مقوية من الحديد حول السوقان العلوية حتى الركبة، أما بالرجلين فوضع زوجة باتيخ خطين مستعملين وممزقين (بثلة) ولديها صندوق مليء بالقطران، مطوف بقضبان، مستخدم لطلاء أطراف الشركاء في اللعبة.

وحدة ما يمثل رمي ضخم الهيئة ونو قوة هوائية، دور الصار، لأنه يحمل عند الانتهاء، السد وزوجته، فوق ظهوره وسهات جلقا على أربع ممسكا بكل حارسه اليهودي الفيس الذي يخط متدحفا فوق القروب، بل قد يلقى ضربة مباشرة إلى الصدر. وعلى ظهره يوجد برعدة ملونة بالقبوب يبرز منها القتب، وهي مثبثة بحزام. وقد غطي رأسه بجلد قتبس الكبير الذي يهلق منه حردان من الدد يشكلاز أنثى الصار. ويمسك بين أسنقه بلجام من القطة، ويؤخره وضع نيل بأرد. أما بين الساقين فوجد آلة نهر سوداء لتسع فوهتها لتريجيا وحيتان من الفندجان كثر جحان وتسطنمان في حلبة اعتزاز دامة.

أما جد اليهودي فهو ملطخ بزق الصفاير، وعليه بعض الأسماك القشمة المنظر التي لا تترك حورته بالكامل، وتشكل جلابته من بقايا حصيرة من القطة، وتوضن آلة من النوم بها، كما توضع خصلات الشعر الطويلة المتهدلة فوق صدغ الإسرائيليين بزغب الخنزير الطويل أو بحرف مألوف من نيل حيوان ملبوذ. ويوضع على وجهه جلد تيس ثم حكة بخرمك المخلوط بخصلات الإنسان والعصلي بطوب راقب ويضع قطرات من الصل لطب القتب، مع ترك فتحات بالنسبة للعينون والشم، وهو يرافق سيده ويحمل بين يديه خنق مغززين، وبمسيهما عصا من القطن يستخدمها لإبعاد الكلاب التي يتم إطلاقها في أعقابهم. وقد خلق بطنه صندوقا كبيرا مثبتا بزئار يعرض فيه أمام الحشد السفن التي لا قيمة لها وغرخته ومرفاهة المكسرة ومنايق أعود الكبريت قنارعة وخصلات الفلز بدلا من المسك وأوراقه فوسفة وكل أثناء القديمة التي تحمل بها بشاعة اليهودي فرخيسة.

وما أن يظهر بالثوب وزوجته بباب القرية، حتى يهرع الحشد باتجاههما ويستطهما أرضا، جلها متظاهر يهودي بالتحبيب أمام منظر سيده المتدحفين في القروب. غير أن بالثوب سينهض وسيجري باتجاه الصار راقما عصاه. وطبعا فإن الضربة التي كان من المفروض أن توجه إلى الحيوان، تستقط على رأس العبري الذي سيأوي حلقه من الألم وسيستط أرضا. وستطلق الضحكات من الحشد الذي سبغت الإسرائيليين بكفاح قشتاقم وسيشجع الصاروسيده، وستنبج المجموعة لسيرو تحت وجل من الكلمات القبيحة، أي تحت كل ما ينضسه القاموس الرملي من كلمات دنينة ومنحطة، بحيث يطلق الحنان لهذه الكلمات بشكل تصاعدي، في جو من الصلح الشعبي الهستوري. وهنا يحدث المشهد الأكثر بشاعة، أو لنقل حدة المسرحية التي ينتظرها المتفرجون بقلق سبر. ذلك أن بالثوب سيظهر فجأة برغبة جنسية جامحة وسيقتض على رفيقته، إثر ذلك، تحدث معركة بينهما، وستستط المسكونة تحت زوجها الذي سيهبط فوقها، لذلك، تصرخ وتكلم وتشتفع بظف. أما بالثوب فإنه سوزج عنها الفيس الذي كان بمثابة فستان.

وسيلج عليه خيمة صغيرة محاطة لا يخرج الزوجة إلى داخلها. ولأن جموحه لا يقو، فإنه يستلج نحو كل الجهات ملصكا بالصعيد. ويصبح الحشد المتمسك : " ليس هناك.. بل فوق.. لا تحت.."

فذلك يستلج المهرجان بقوة، تارة بالملأخرتين وتارة بالوجهين وسيلجرون قوجه الشمس يرق المصالحير، بالقبلات المتدوية. وفي الأخير، سترفض المرأة اللزول عند رغبة الزوج، مشترطة الحصول على مهرها كاملا وعلى الهدايا وجمال العروس. ويصرخ بالشبح متعبا: "الحكم إلى القاضي". أثناء ذلك، سيدخل اليهودي كل ما في وسعه، رغم الضربات التي يتلقاها، ليبيع سلطته الرخيصة، إلا أن سجدته سجدته المميرة. وهو ما يقوم به، حيث سيجري بتجاهه، سراق قناب، نصف حار، تحت وابل من قروت. غير أن الحمار الذي كان يسلي الأطفال بفراقه سيرفض الإتيك إلى اليهودي. وأخيرا، ستلج المجموعة برمتها السور.

هكذا، سيتم اللؤلؤ أمام القاضي الجالس فوق ركاب زبل السمك وستصل إلى السماع نصيات بنفلة ومحاكمات غريبة. وهذه المباراة الكلامية ستلجح بمحاكمات الجمهور الذي لم يجد لمرجه حدود. ويصدر القاضي بكلام نصفه عربي ونصفه ليلاني، بأن كل رجل عدالة يحترم نفسه، لا يمكنه أن يصدر حكما إلا إذا ما تلقى طعاما مقدما من لغة 100 ليرة. وسيستمر بالشبح بأن الاقتراح طبعي جدا، لذلك سيلجح كهمه وسيلجح كمشة من الحمص وسيلقي بها على رأس القاضي صالحا: "أيها القاضي، اجمع طورك..". ومن جهته، فإن القاضي سيقنع بمباراة كل حصاة، حيث يسمح لسطحها برأيه الخيطين والضممتين المتوكلتين على استخدام المصبرات والفلس. إثر ذلك، سيعرض الزوجان في نفس الوقت، سبب خلافهما، عبر إشارات وتعليق بنفلة تجعل الحاضرين في حالة التهمة. وبعد أن يبدأ الصخب نسبيا، سيصدر القاضي الحكم التالي: "قبل أن ترجع إلى عش زوجة، على المرأة الفلاكية أولا أن تفضي لولة تحت سقف سعادة القاضي وذلك طبقا لمذهب ابن حصصان الشهير".<sup>33</sup>

وسيلج غضب باتمخ إلى الفروء نتيجة هذا الحكم. هكذا، سيلجح زوجته وسيركبها معا على ظهر الحمار، طالبا من اليهودي ولز مؤخرة الحيوان. غير أن هذا الأخير سيوجه إلى صدر اليهودي ركلة قوية سينقلب على إثرها وسيلقي برأيه أرضا فوق الزبقة. آنذاك سيحدث لخلط غريب وتشابه السيفان والأترج التي ترتفع إلى أعلى وتسطع بسرعة فوق الصدور والردوس والظهور. وهذا هو المشهد الذي يضاهي، بالنسبة للريفيين، أعمل عروضنا المسرحية.

<sup>33</sup> - وهو كائن من نوع الفيل، يذكر اسمه لتأكيد الأحكام الغريبة التي يصدرها طلبة الحقوق بالمغرب فيما بينهم. وحصصان مستمدة من قبل حصص أي ظهر في وانسة الفيل، وتقال بخصوص الحقيقة أو الحق.

وهي لحظة معينة، سيعرض الجميع وقد اطمحوا بالقرآن؛ لأن المروءة فرحت بسائل الزوج أثناء هذا الإختلاط الفطير، خصوصاً على زوجها وعلى القاضي. أما اليهودي الذي كان يتعين فرصة الإفلات، فإنه سيظل مشدوداً إلى الحصار الذي بكل له الركبات المولمة. وبين القبة والأخرى، كان يتنم من حذو بضربات عصا يمكن أن تصرع ثورا. وسيستمر الاحتفال المنفس بهذا وشكال، طواق اليوم والأيام التالية التي توالي الحفل الديني.

لكن ما هو الغطر ضمن هذه الحفلات، هو انتهاء المناسبات الذي سيقيم به هؤلاء الإشتاء الفضة، حيث سيسترون من شعائر الصلاة الإسلامية. فبعد حلول الظلام، يفت باتشيخ فوق ركاب من الأربال، مؤدبا دور المولدين حيث يتجه صوب الغرب مذابها : " يلحكم الله، لادعوا إلى قوم دون صلاة. وكل من يصلي لا علاج له ".

بنتيجة إلى مئات من الحفلات التي يستمتع بها العامة، ويشرع القاضي باعتباره إماما، في إقامة صلاة الجماعة، لكن باتشيخ سيحضر إلى نفس الأمر وسيتكلم عن حول بردعة الحصار التي يريد كل واحد منهما إقامة الصلاة عليها، مما سيؤدي إلى تمزيقها إربا. عندئذ سيولي باتشيخ وجهه جهة الغرب وسيلهم للصلاة صارخا: " لمن الله المفترجون. لهم لا تمنح البركة ولا الجنة لمن يذهب إلى المسجد ". في تلك الأثناء، سيتوجه القاضي صوب المروءة التي تتظاهر بالثوم وسيلهم فوقها، إلا أنها ستثور على ذلك وسيتشب عراك بينهما، إثر ذلك، سيدخل باتشيخ والحمار واليهودي ولتبدأ معركة مضحكة من جنود. وفي الأخير ستقام الصلاة جماعة، ظهرا لظهور وبقتلح، مع تموير لكلام القرآن بكثير الطرق مختلفة.

إن ما أثار دهشتي أكثر، عندما سمعت بهذه الوقائع الغريبة، هي لامبالاة الناس الجدد ( ويوجد العديد منهم وسط هؤلاء المتوحشين ) الذين لم يعضوا عند محالنتهم للمسفرة من ممارسة مجبلة، ونقص ذلك الصلاة المقدسة من طرف كل المسلمين. لفهمية الصلاة ترجع إلى كونها أحد الأركان الخمسة الأساسية للإسلام؛ وهي ممارسة مهيبة لأن كل مسلم سيحضر في بطارها باسمو فوق هذا العالم الفاني، فهو لم يصبح ذلك الإنسان المعرض للقاء ظهما، بل مجرد روح تغلظ الأرض لفترة ولا تقتل بما يحيط بها.

## القرى الرئيسية بالمحافظات

### قسم بني بوفلوة

- سيدي بوفلوة، 500 منزل.
- جعدة، 50 منزل.
- سيدي شعيب ومفتاح، 300 منزل، ويوجد عند مصب واد بني شعبان. ويحظى بزيارات كبيرة، لأن بهذا المكان يوجد قبر الولي القروطي سيدي شعيب ومفتاح، سيد القبيلة برمتها. وكل الأطفال والرجال قريبا يسمون شعبا Jethro .
- تلافين، ( اليابست)، ( التسمية أمازيغية )، 100 منزل وتوجد شرق سيدي شعيب على شاطئ البحر.
- أرياض احمد، 100 منزل.
- تاروت، (الصخرة الصغيرة)، ( التسمية أمازيغية)، 100 منزل. وكل يوم ثلاثة، يقام سوق كبير بالمحيط الغربي.

### قسم أيت مرغني

- سيدي إدريس، 300 منزل، عند مصب واد مرغين وتحت القبة يوجد ضريح الولي الكبير.
- بوجزون، ( العزيز)، 300 منزل على واد مرغني الذي يسمى عند المصب، واد بوجزون.
- أيت تاجر، ( الأبناء العبيدون)، ( التسمية أمازيغية)، على واد سيدي إدريس، 300 منزل.
- سيدي مسعود، 100 منزل، على واد مرغين.
- ثقبصت وادا، ( القصة المظلمة)، ( التسمية عربية وأمازيغية)، 500 منزل على واد مرغين. وينطقها التسمانيون أيضا: ثقبصت لولو وادا ( القصة القليلة).
- بشر تقيط ( قرية الأحد ) ( التسمية عربية أمازيغية )، 100 منزل وهو سوق يقام الأحد ويقبل عليه الناس كثيرا.
- ثقبصت نقي، ( القصة الطيبة)، ( التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل غير بعيد عن واد مرغين. وينطقها التسمانيون: ثقبصت تقيط ( القصة القوية).

- عين كافر، 100 منزل.

### قسم ترفوت

- هروضة، 50 منزلاً.

- ثغرت (المنزل) (التسمية أمزيغية)، 100 منزل.

- يفر والمغيس (حال المطرقة)، (التسمية عربية أمزيغية)، 300 منزل. ويحيط هذا

قسم بقم سوق كل يوم اثنين.

### قسم بني ثعبان

- أيت حلي، 100 منزل، على واد ثعبان.

- لغشاب لغفار، (أعمال الشيخ)، (التسمية عربية أمزيغية)، 100 منزل.

- يلفاسيين، (أهل فاس)، (التسمية عربية أمزيغية)، 100 منزل.

- تافوين، (المنابع)، (التسمية أمزيغية)، 50 منزلاً. ويحيط بقم سوق كل يوم

خميس، قرب واد ثعبان.

- إمزوررو، (الأول، القديم)، (التسمية أمزيغية)، 300 منزل.

- أيت ملقطن، (أبناء الفارسين)، (التسمية أمزيغية)، 500 منزل.

- بويطوب، 500 منزل.

### قسم فوشطن

- عين كافر، 50 منزلاً.

- إمزوررو، (الأول، القديم)، 100 منزل. ويحيط هذه القرية بقم سوق هام كل يوم

أربعاء.

وإضافة عن ذلك، تتوفر القبيلة على حوالي 40 قرية من 50 إلى 200 منزل، لم تمكن

من معرفة أسمائها.

قوى العسكرية: 20 ألفاً من المشاة، العدد المحتمل للسكان: 100 ألف نسمة. وتوجد

سهول والمسالك في كل مكان. ولهمت هناك أية قرية محصنة. القنوم القراني منتشر إلى حد

ما. القبيلة مستقلة، وتعين قيادتها بنفسها، كما ترسل من حين لآخر، بعض قوادها إلى السلطان.



## قبيلة بني توزين ( الوزن )

### وقبيلة تافرسيت ( استصلاح الأرض )

إن ظروف الترحال، ستفجع بالترويض إلى تحويل وجهته من البحر، باتجاه الجنوب، مطلقا أنه سيقتلي رجالا جندا وعائلات غريبة. ورغم أنه ليس جيولوجيا، إلا أنه سيلاحظ على الفور، بأن قرية بني توزين تشبه قرية تاسلمان وسلاط أيضا، دون أن يكون غارسا للأشجار، بأن هذه الأخيرة أجمل وأصلب من تلك الموجودة على الساحل. قرية بني توزين مبنية وحيطها صلبة، وهي أرض جبلية قليلة التلال تقوم القرية الفاتحة عن الأمطار الشتوية التي تجري على منحدرات أرض مفعوجة بشكل عام.

وقد وصل مصدا إلى بئر المولى ( الحقل العالي )، وهي قرية محاطة ببلدية كثيفة من أشجار البرتقال والمندرين وقصور وقنين وقصار والكرم المنطق ( الدالية ) والجوز الخ... ومجدد فرحلة حوالي خمسين طالبا أجنيا متجهين بالمسجد، أتوا ملته طالبا لإحسان الأمل والليل منهم من أهل القرية. وكان الاستقبال دينا. وعندما علم السكان بمجيء أجني آخر إلى المسجد أتوا بكفة لافر من الطعام المكون من العنيس والجزالة ( الجلبانة ) والبطوط المشوي والقولكة. ولم يكن ينقص الضيوف أي شيء.

وتشتهر بئر المولى بكونها عبارة عن جلمة صغيرة يتم فيها تعلم مبادئ الفصاح، وهو من العلوم المستحبة لدى المغاربة. ومساحة المسجد شاسعة كما أن صومعته العالية تتجاوز قمة أعلى الأشجار. وتشكل قبيلة بني توزين مساحة قدرها أربعين كيلومترا طولا وعرضا. وتتوفر على خمسة كسام وهي: بئر المولى<sup>34</sup>، بني حسان، تماروت، سيدي يحيى والتروسيت. ويقدم من كون هذه الأخيرة قبيلة قائمة بذاتها، إلا أنها تجمعة لبني توزين التي تقوم بحمايتها، لأن إمكانيةها المحدودة وصغر حجمها، تمنع عليها البحث عن دعم، وسط الجيران الأقوياء المحيطين بها.

ويمكن لكل قسم من هذه الأقسام، بما في ذلك تافرسيت، تجنيد 3 آلاف من المشاة أي

15 ألفا بالنسبة للمجموع.

<sup>34</sup> - بئر أملاء دلالة الكلمة. ولأن مولاي بسم وجهه، فإن بإمكاننا ترجمة الكلمة أيضا بـ " حقل مولاي ".

فإننا نوجد هنا دلفل بلد جبلي، مسطرى بالمغنيات الفلانة، حيث تكثر الأشجار القلمط والفلين  
والصنسل والفردار والكتوب. وتنتج هذه الأشجار الخمسة لمد الجبال، وعلى جنبات هذه  
الفيول والبوديان، توجد الأشجار الفولكة المنطدة، والقصوعة، ويحيطى شجر الزيتون على  
المسوحس بطنية خلقة. فمن طريق القلعات منجدة بهزاره، يحصل الأهالي على حبات طسمة  
من الزيتون، وبطسمة لحيوانات الغاية، فليذا نجد الفرد والخلزير وابن لوى والقطب والضمج  
والقيد، ويرافق هذه الحيوانات، أثناء النهار، فطاح الطرق المتماجدون بكثرة في المنطقة، وهو ما  
يشي أن الأمان في هذه القبيلة كل ما هو عليه في الفصل الأخرى فتي حرداهما، وهناك نقص  
حول القلعات تحكى في الأسسبات وترعب الأطفال والنساء، بل وعلى الرجال أنفسهم، ورغم  
الشجاعة الفلانة لبللاء الرجال، فلهذه بلادهم بهذه الفزعلات بحيث يمشون الجبل ألف مرة أكثر  
من لمسوحس القبل.

ومن بين الأسواق الأربعة بيلي تونين، فإن سوق ميسار الذي يقام كل يوم خميس  
يعرف إقبالاً كبيراً حيث تباع فيه الأغيار والماعز والحمير والبغال بالقلات، كما تكم المتاجرة  
بالحمير وزيت الزيتون والزيب والتمين والتماني والسكر الإنجليزيين والعلك والجلابة، فكل  
منطقات المنطقة تتولّد بالمسوق، ويطلب التماني والسكر والشموع والأثاث المنزلي من غلوا، إذ  
أن لبلال لريف الجبوبي تفيض من هذه العاصمة، في حين أن أهالي قسائل يشترون كل شيء  
قريباً من الإسبان.

وإذا أخذت البنادق الأوربية تلح الجنوب تدريجياً، على مرأى وسماع من القلعات وإسبانيا،  
فإن لى ميري هذين القبليين يستأجرون سفناً صغيراً هي في الغالب مراكب شراعية، وعندما  
يصلن المراكب من أخرى بالبنادق، ينطلق دون مشاكل من أحد الموانئ المتوسطية لتنه الجزيرة  
الإيبيرية، أو من مصب التاميز Tarniz متجهاً نحو المغرب، ويكون أهالي القلطين، سواء كانوا  
مترولين مع الأوربيين أو شركاء لهم، في انتظار مجيء المراكب عند نقطة معزولة بالسلاسل،  
حيث يتم إخراج حمولته الثقيلة ليلاً، وتوضع البنادق والخرطوشات المنقولة بطنية داخل صناديق  
صغيرة وتصل إلى غارب بقوده القبطان بنفسه، وسيلان صغير من نوع خاص عن القارب هذا  
القارب، عندئذ يهتج صوت بالإسبانية من القلطين: "هل أنت القبطان القلاني؟"، وسيدور  
حوار بين قائد المراكب والمسلمين الذين ستظهر خيالاتهم المخيفة بالكتريج، وسيقرر واحد منهم،  
عند ما يكون هو القائد، داخل القارب الذي سيحتد على قعر بهضمة أندر عن القلطين، إنذاك  
تفتح الصناديق ويتم فحص وعد البنادق والخرطوشات، وإلا ذلك يؤدي المسلم لمن البضاعة  
بلفلود قردلة deniers trébuchants، ثم يرجع القارب إلى القلطين لإكمال حمولته، وتصل

المصنفين مباشرة من طرف الأهل الذين سيختفون في ظلمة الليل، متجهين إلى منزل المهرب الرئيسي. ويرجع القارب إلى السفينة لوقت ما تبقى من بضاعة، حتى تنتهي العملية. عندئذ تمخر السفينة قشراعية "الزوية" عاب البحر، راجعة إلى الميناء الذي تطلعت منه، حيث ستجد فيه بضاعة أخرى، ويتم حملها وتسويقها. وفي تلك الأثناء، يكون الشركاء المشغلون داخل منزل المغربي، يذقون قبضات ولحسها بحذبة لائقة. ذلك أنهم مطلوبون بإرسال المئات منها في البلد، إلى هذه القبيلة أو تلك، وإلى السوق الذي يعرف إقبالا كبيرا للأهل. وقد تباع القبضات في عين المكان، عندما يكون البلد في حالة فوضى، وبمقابل الممول الرئيسي للعملية، توزع على كل شريك بعد البيع، حصته من النقود.

وقد أكد لي المهرب الرئيسي المجهز الذي قدم لي هذه التفاصيل، بأن الأرباح المجدية من هذه العملية تكون هائلة. فالمندقة التي تشتري في أوروبا بمئتين إلى ثلاثين فرنكا، تباع للمغاربة القبليين بمئتين إلى مئة فرنك، وإلى قبائل الداخل ما بين 120 و 150 فرنكا.

ويمكن البلد الذي يريد التعامل مباشرة مع السكان المغاربة المستقلين، دولما اعظم بالاحتياجات المصرية لشريف (السلطات) أن تروج بالمغرب، ما بين 500 و 600 ألف بنقلية على الأقل وملايين الخرطوشات. وبكل قبائل الشريف، بالشمال كما بالجنوب، فإن النقود الفضية تعتبر هي النقود المفضلة، وتلك النقود الفرنسية في المرتبة الثانية، وبعدها النقود المسكوكة من طرف صاحب الجلالة الشريف. أما النقود الإنجليزية والإيطالية والألمانية إلخ... فهي غير معروفة.

وبنظام إنسان بني توزين تملزيت خالصة ولا يعرف كلمة واحدة بالعربية، وهو دائم الحركة بحصده الممثل Trapu. وقد تبنى شاعر محلي بجمال لسان القبيلة، حيث أصبح قبيلتي التالي شلتا وهو:

بنات ملاح في ثلث قبيلات ﴿﴾ بني توزين تمسمن والقصبات

وتخرج النساء سكرات الوجوه، وهن يتمتعن بجرأة نادرة حيث يرافقن الرجال أثناء المعارك ويقمن بلتق الأعمال، إذ يحصلن ويشتغلن بالبساتين ويحطبن ويحطبن المياه من الينابيع. وهن يرتدين الحائك المصنوع من الصوف الأسود ويحطبن لكامبين بغطاء جلدي خاص بالسوقن يقوم مقام الجوارب ويشتغلن أحنية من الحقة. وهن عفيفات جدا وولودات جدا، كما أن حباتهن تقسم بالجدية، حيث يكرمن وقتن لثريبة لهنقين ويرضعنهم إلى حدود السنة الخامسة أو السادسة.

وفي أغلب الأحيان، تقام حفلات الزواج في الخريف، عندما تكون المخازن والمطامير مليئة بالمحبوب والفلوكة. وتظل العروسة بكرا مدة سبعة أيام في بيت زوجها، وفي اليوم الثامن يتم الدخلة. ويتمتع رجل في صنع البارود والرماس الذي يباع بالأسواق.

وتحتل الدراسات القرآنية بأهمية كبرى في الزوايا الثلاث الموجودة بالقبيلة. وتتميز زاوية سيدي بوجدون<sup>35</sup> عن الزاويتين الأخريتين بهنالكها الضخم وهبتها الكبيرة. وتمت هذه الأخيرة بركة جثمان سيدي بوجدون محاطا بقبور سبعة من أهلها.

ويأتي الزوار من كل مناطق المغرب للتبرك بقبر هذا الولي المكرم. ومن بعد، يبرز هذا الضريح فوق قمة الجبل مثل كتلة للبحر، وتظهر حيطته القريضة التي تطل على البحر كل سنة.

وما يجلب زوار هذه الزاوية الشهيرة على الخصوص، هي الحمة التي ساعدت مياهها السائلة جدا، في شفاء آلاف المرضى. وهي تقع وسط قرية وتجري مياهها بين المنازل، مشكلة هنا وهناك، بركا عميقة بعض الشيء. تملأ بعدد كبير من المصطوبين الذين يتم إطفائهم وإبرائهم سحانا من طرف الزاوية إلى أن يشعروا.

فأخريف على بالمياه المعدنية، خصوصا في الجبال الشاهقة بالجذب. وتشكل هذه المياه العامل الاستثنائي الوحيد الذي ينفع الأمهالي إلى أقصى. ويحصل الأشخاص حرارة المياه الحارة التي يمكنها أن تساق في ربع ساعة، الأجساد القائمة للساقنا الأوروبيات. وتربط الأساطير قريبة وجود هذه الحامات، بكرامة حصلت منذ زمن بعيد. لذلك أن ولها عظيما في العصور الوسطى، وهو مولاي محسوب، الذي كان يحب التجول بمناطق لريف على الخصوص، طلب الضيافة في إحدى القبلي. ولكي يكافئ الأمهالي الكرماء على حسن ضيافتهم، لجر بلرضهم لهما سلقا وعظيما يمكنهم استخدامه للاستشفاء والنظافة عند الحاجة. وكانت تلك هي طريقته في رد الجميل. وبذلك، فإن الحامات التي لم تكن معروفة قبل تلك الفترة، ستأخذ إسم حاتم مولاي محسوب<sup>36</sup>، وهي العبارة التي ستعطي كل حامات الملم.

لما الزاوية الثانية المسماة زاوية سيدي يحيى بيلي حسن، فتضم جثمان الولي المسعد سيدي أحمد بناصر. وتوجد الزاوية الثالثة بموضار، حيث يرقد جثمان سيدي محمد بوزيان. وهي تعرف بإقبال العديد من الزوار، لكن بدرجة أقل مما هو عليه الحال بزاوية سيدي بوجدون.

<sup>35</sup> - أكد لي بعضهم بأن جد هذا الولي من أبيه أو أمه، متكون في موضعين مختلفين، في تارة وفي بني توزين. وهذه الكرامة المتمثلة في العصور بملكان متحدة في نفس الوقت، مقترنة بكرة لدى سلحاء الإسلام.

<sup>36</sup> - هذه التسمية مستعمدة من طرف العرب والأمازيغ بالمغرب وبالأندلس وهران.

والسفن الخفيفة هي الخيز الذي يصنع بدقيق القوط الطو والعر. ويبدو أن القوط  
 العر يقد مرارته على القمو القلي: يتم وضعه بمخزن ويحلى باستمرار على مدى شهر كامل.  
 وبعد هذه العملية، يجفف ويصبح حواء ثم يطحن ويصنع منه الخيز بعد ذلك.  
 وقد كان بإمكان الأقسام الخمسة البني توزيع أن تمارس تجارة القطن، لأن غلبتها ملوحة  
 بهذا الخشب القطن. لكننا لا نجد أي مخد لها على الساحل كي تبعه للأوروبيين، أما مغربة  
 الداخل، فلا يمكنهم شراء، لأنهم لا يعرفون كيفية استغلاله، فلكل قوم أن يقيموا قلسا واحدا  
 كالمقابل لكل قطن العالم. حكم من القنرات تضع في هذا البلد الرائع. ومع ذلك، فإننا نرى في  
 بعض القبائل الجبلية بالقرب منقول غطي سقيا بالقطن المقطوع على شكل قواسم قبيحة المنظر.  
 ويبدو أن هذه السقفة متينة إلى حد ما، ما دامت تتحمل أحيانا الوزن الثقيل للثوب، في هذه الجبل  
 القريبة الشامخة ذات الشتاء القارس.

وإذا ما كانت القنرات الخفيفة قد ظلت غير مستغلة، فإن الطرقات بالمقابل، خضعت  
 لاستغلال منتهج. ففي الشتاء، عندما يكون الرجال بدون عمل ويقت رداء شهي سيك لوى  
 المنطقة الساكنة، يذهب هؤلاء الرجال إلى الغابة مرغوفين ببعض الأطفال ومكوهين بالكلاب التي  
 تحرس القرية. ويتم تطويق قضاء شامع ثم يقوم الأطفال والكلاب بضجيج صاخب. لذلك تطير  
 أسراب القمل وتهرب الأراب والأراب الوحشية Lijacs في كل الاتجاهات، حيث تسقط  
 فرسة القناصين. ونبدأ حينها مجزرة غلظية، فالريفي الذي يجد التسديد بسقط طريدة عند كل  
 طلقة. ويتم القضاء على كل الحيوانات، بما في ذلك الخنازير والقناص وقطط الوحشية والكلاب  
 والجرذان وبذات هرس قتي تولجت لسوء حظها، دلال الدائرة القاتلة. وبالقرية يتم توزيع  
 الطرقات بين أسر القناصين، دون أن ينسى الأعلى إرسال الجزء الأكبر إلى الطلبة المرحين  
 المقيمين بالمسجد.

أما الخنازير وبذات لوى والنسور التي يعتبر لحمها محرما، فترك هناك للكلاب التي  
 ستخرج تلك اليوم إلى القرية، يهبطون منتفضة إلى حد الانفجار ويسوفان منفجرة، وهي تخطو بوطه  
 شديد.

### القرى القروية البني توزيع وتفرصيت

- سطر نوايس ، 500 منزل، وتوجد عند مصب واد سيدي يحيى الذي يزداد حجمه  
 بالمياه المعدية لواد بني توزيع.

- قرية، 50 منزلاً، على واد بني توزين. وبالقرب من القرية، إلى الجنوب، توجد منحة كبيرة يقام فيها سوق الثلاثاء.
- قرية سودي بوجدين، 300 منزل.
- تشاروت، (الأطلة بالسكان)، (القسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل،
- سودي يحيى، 100 منزل، على سفح واد يصل نفس الاسم، قرب سفلة واحة من
- شجر القطن.
- ميخو، (وادي من المطر)، (القسمية عربية أمازيغية، وهي تعريف للكلمة العربية
- مطر)، وتعتبر عاصمة تافرسيت، 100 منزل، ويقام بها سوق كبير، يوم الخميس.
- قوى العسكرية 15 ألف من المشاة، عدد السكان المحتمل 75 ألف نسمة. المنطقة
- مليوية ومتنوعة. ويوجد سهل، شمال تافرسيت والعديد من القرى الصغيرة.

## قبيلة كزنلية

أصلها تسمى الزنانيا بإطفاء الحرف الأول عن قصد خبيت. ونحط من الشمال ومن الشرق بفائل ريفية هي: بني توزين، تافرسيت، لمطالصة، ومن الغرب والجنوب تسمى منطقة جبالة التي تتصل عنها في أقصى الجنوب وعلى مسلة صغيرة، عبر مغرولة. وهي تمتد على مسافة 80 كيلومتر تقريباً من كل الجهات. وأصلها الأربعة هي: القدير (صدر السراج)، سودي بنور، أيت طي، أيت دلوود. ويوجد كل قسم 3 آلاف من المشاة، أي ما مجموعه 12 ألف رجل بالقسمة لكل القبيلة. وقد فكر القرويش في ولوج أحواض الريف، لكنه لم يكن مطعناً وسط المراقعات المشجرة التي كان يعمرها فلما من بني توزين إلى سودي بنور.

لقد كان يبدو كثرهم وسط الأشجار الضخمة مثل: أشجار البلوط والظنين والكتوب والكستناء والأرز والمراجل والصفصاف والذلب والحوار والقستق والحراج وأشجار أخرى شبيهة في صقلتها بتلك المذكورة والتي تسمح جنوحها الضخمة بهزّاز تمرج السلك الغابوي الذي يتبعه القرويش.

وهذه المرة أيضاً شاعر بني توزين يفرض الوصول إلى قبيلة مغرولة. وكان يمشي إلى الأمام عازماً على روية جبلي أقصى الريف الجنوبي والذين لا يكف أعمالي الشمال من الحديث عن وحشيتهم.

وأول القاطنين الذين سلكوا بهم في البداية، هم القناصل الذين كانوا يجرؤون بسرعة،  
هائرين على ما يبدو من الوحوش الكسرة القوية منهم كالفهود والأسود إذ تشرع الأسود في  
الظهور عند هذه النقطة وتغشى النزول إلى السهول الشمالية الأمامية بالسكان.

وعند مساء وصل القرويش إلى سيدي باور، بعد أن عبر العديد من القرى التي لم يلق  
فيها قترحاب المألوف. وسذهب إلى المسجد الذي كان فارغا، بحيث لم يجد بدخله أي طلب ولا  
أي أجنبي. بل فقط أربعة جدران عارية وبعض الحصار القديمة فوق أرض محفورة. وسيلوي  
يركن في المسجد، سبطا رأسه بقوسوته، منتظرا بصبر لعشاء أو قنوم. وسلكي هذا الأخير قبل  
الأكل، وهو نوم قتل ومرجع بعد تلك المسيرة الطويلة خلال النهار. وعند الصباح يستيقظ من  
نومه وسيرفع القوسوة عن رأسه، ليجد مسطحا مليئا بكسكس الشجر، وهو ما سيجعله بالقبطة.  
ولربما جاء أحدهم بهذا الصبح أثناء الليل، وتركه بجانبه دون أن يوقظه. وبينما هو بكل بلهم  
هذا الطعام القشن الذي جعله الجوع لذيذا، إذا برجال ينظرون المسجد حاملين قبلدق على أكتفهم  
ويارتدون جلابات طويلة من الصوف الأسود. وسلكه رجل أسمر وقصير، يبدو أنه زعيم  
الجماعة: " ما هي الطريق التي سلكتها؟ وكأنت إجابة القرويش: "إنها الطريق المعروفة".  
وسلكه رجل ثقي: " كيف؟ وهل سمح لك الأسود بالمرور؟ " إلا أن القرويش المصم على  
المفارقة سيجيب بحكمة قللا: " ما هو مكتوب لا بد أن يقع ". وعلى الفور سيحظى بالة  
المحضور وسيلتصق منه البقاء بسيدي باور، حيث أن يلقاه شيء. وسيتقدم القرويش للأهلي وهذا  
غير محسوب المواقف، ينقل في تعليم القراءة لأطفال القرية. وهذا الالتزام غير المدروس، كان  
سجور عليه القويلا نولا هروبه من القرية بعد أيام قللك، ليتابع التجوال عبر القبيلة. وبأله من  
بلد جميل. فالجبال ذات القسم العالية، ترسم في سفوحها وديانا شامسة مزرعة، كما هو القشن  
في فرنسا العزيزة حيث تتوالى بساتين الخضار والفواكه المسقية بكثرة بواسطة المنابع العديدة  
التي تنبثق بقوة من المنحدرات العميقة للأطلس.

وباتجاه الشرق، سترز الحفلة مطلة عن قرب الغاريت، هذا القهر الرملي الصحراوي  
الذي حدد ملك الصحاري مساره، عبر الأراضي الخصبة للمغرب، حتى البحر الأبيض المتوسط.  
وتعتبر الحفلة، كما يسميها العرب، والتي ندعوها Stipa - tenacissima، كنبات ثمين يستخدم  
كغذاء أكثر واستمرار. وهي تنبت تلقيا في كل أفريقيا الشمالية ولا تستدعي أية عناية ولا أية  
زراعة. وتوفر منطقة هورن وحدها سلويا، أكثر من 200 ألف طن، لا تذهب إلى فرنسا  
للأسف، بل إلى إنجلترا، حيث تعود إلينا وقد تحولت إلى ورق جيد. ولأن الصغارة يجهلون  
الاستعمالات الجديدة لهذه القنبنة المصرية، فإنهم يكتفون بالصناعات التقليدية للنعال والقنف والجل

ومسحات الأظفار والمصانير والخرابيل. ويشتغل أهل كزناية في صناعة الأظفار. ففي أيام السوق. يلقى الفرد بمطوف طويلة تضم أكثر من 500 رجل أو امرأة. يصلون فوق ظهورهم شباك كبيرة ملينة بدمال الطقة الجيدة. التي تحتاج بكثفة بخسة لقلب الشمال والغرب. ويضع ربيع الجنوب من غار. وليس لديهم أي تعامل تجاري مع سكان الساحل. باستثناء شراء القنطري. القزناقي الذي يلتزم بيته دقما Camnier ينتظر مجيء القاعة المشجولون الذين يجلبون معهم منتجات الصناعة التي يحتاجها. وهو لا يثق في العرب ويعتق اليهودي دون أن يعرفه. ويتزوي في قرينته. حيث يكره الأسفار ويعيش حياة بطريركية وإن كان يمنح حرية كبيرة لأزواجه. إذ بإمكان النساء الخروج سفرات فوجوه والمشاركة في مناولات الجماعة. حيث يتسلل في كثير من الأحيان ولا يتخلين عن البهنية التي تستعمل من طرفين بشكل جيد. ويضفي طوبى لمهوسين الطويل. المصنوع من الصوف والمنسود بحزام عند الوسط ولبعين العربية الكبيرة. مطبوعا حربيا بشكل كبير.

وابتداء من من القائمة، فإن الطفل الذي كان يعيش داخل المنزل دون القيام بأي شيء، يصبح راحيا ليل أو النهار. تحت رعاية شخص يكره سناء مكلف بشطبه أسرار القمينة. ولا يجب على لطفان النهار والأبقار التي ترحى بالطراف القنابات. أن تغامر دنطها، إلا إذا كانت مرفوعة بحراس عديدين مشوهين بكتائبهم الجريئة ذات قشعر الأسيب والتي لا تهاب الخنازير ولا الضباع. ويحصل هذه الاحتياطات. فإن القهود والأسود نكرا ما تستمتع بلحوم الأبقار أو الماعز. لكن من المؤكد أن الخنازير الكثيرة بالمنطقة. توفر لها طعاما ينوق حاجتها.

وتعطي الأساطير قرينية أن سيدي عبد الرحمن المجدوب، ذلك الرجل الصالح وصاحب الكلام القلاذح، جاء من شواطئ المحيط الأطلسي بهدف زيارة الشرق، لكنه توقف بكزناية ورفض الذهاب أبعد من ذلك. بعد أن التأم من الطعام المنظر اسكن الجبل الرخين ومن لباسهم الوسخ المكسي دقما بشعيرات الطقة. وسوولي ظهره للشرق، أنظم هذا القول المأثور والقلاذح المنطق بالقبائل الجنوبية الريف وتحدثنا كزناية، والذي جاء فيه:

يا لثيف من بلاد الرّي والرّا ☞ وبلاد الطفا والطفلة

ولمخ لري لراحي الماعز القزناقي الذي يذبح قطيعه إلى الامام صلحا باستمرار لري. أما لرا فيكسد به الأهلي الذين يذبحون صيودهم صلحين باستمرار: لرا. وأعياد فإن الجزء المتبقي من القول المأثور والساعة، ينطبق على القزناقيين. وبالمثل، فإن هؤلاء الذين يصلحون



أخذية للآخرين، يمضون حفاة في بلاد تكثر فيه الحفلة. ويبنى سودي حد الرحمن بذلك، لأن سلمى الأخذية هؤلاء، لا يمتطون أي شئ بأرجلهم. وبذور، فإن الدرويش الذي اشتهر من طعم كزنية ومن حفاظتهم، أن يظل سوى عشرين يوماً تقريباً بالقبيلة. وسيواجه بعدها شرقاً، نحو أراضي لمطقة.

### القرى الرئيسية بكزنية

- سودي بنور، 100 منزل.  
- الخميس، 100 منزل. وقد بنيت على قمة جبل كزنية التي ينبع منها نهران وهما: ولد الدين وولد كزنية. وبالقرب نفساً يقام كل خميس سوق كبير وهو ما يصر تسميته بسوق الخميس. وهناك بالقبيلة 60 قرية منتشرة بأرجائها.  
- قوى العسكرية 12 ألفاً من المشاة عدد السكان المحتمل: 60 ألف نسمة. التعليم منجم. البلد جبلي وشابوي بشكل كبير والمناخ معتدل صيفاً وبرد شتاء. وتكثر الفلوج في الجبال عدد شهري جابر وبنابر. والقبيلة متوحشة بشكل تام ومستقلة. وهي لا تلبه بالسلطان بلعل موقعها الجبلي، فالجماعات هي التي تحكم فيها، إذا ما سمح لنا باستعمال لفظة حكم، في بلاد تعتبر فيه الحرية الفردية لا محدودة.

### القبيلة المطانية<sup>37</sup>

لم نر إلى حد الآن سوى سلكة مستقرة بأراضيها، لا تترك منازلها وقراها إلا مجبرة وتعمل على الرجوع إليها بسرعة كلما أمكن ذلك. وها نحن لأول مرة، نعط فرحال عدد أمازيغيين رحل. ومنفرد الجبل إلى السهل، حيث توجد صحراء حقوية وهي صحراء الفاريت. لن تبدل المناظر يحدث فجأة، دون تمهيد؛ وهو تبدل جزري يقع أمام عينيك، بفضل اليد اللامروية للصانع القادر الذي يحرك العوالم. وما أن نطأ قدمك آخر شوجات تلال الغرب، حتى يمتد السهل أمامك في شمسائه وفي الانبساط اللامتناهي لتمتلكه الصل. تجد نفسك فوق أرض

37 - وهي كلمة عربية تمزجت فيما بعد ووجب كتابتها: المطاسة. لكني حافظت على النطق المحلي فيما قلناه الثانية التي اعتمدتها. وفي العربية الجزائرية نطق المطاسة: "المطلة بـ" و "المفتحة تحت". وقد حرفت هذه القبيلة بهذا الاسم، لأنها على ما يبدو، كانت ممثلة بالأحباب الذين استقروا بها كفتحين متميزين.

حجرية، تكسوها الرمال، وتغطي أحيانا على مدى مساحات شاسعة، تحت أشغال خضراء من شجيرات الزرافوف *zizubier* وتحت أعشاب الحظلة الكثيفة. وعند الأفق تظهر قطبان الغزلان والنعام وكثلا أمام مشهد متحرك وأمام كثافات أسطوانية، نصفها إنسان والنصف الآخر حيوان، متقلدة ركابها وتترقب أطراف سطفا الصوفي ( البرلوس ) مع الرياح، وقد صويت بانقلها منحنية بعض الشيء إلى الأمام، لإصابة الهدف. نعم، ها نحن قد وسطنا إلى ذراع من أفرع الوحش الصحراوي، إلى امتداد صحراء أجاد، عند مدخل غاريت، على سطح هذا العمر القهري الغريب، المليء بالرمل، والذي ينطلق من أحضان الصحراء ليندس عبر الحقول المزروعة، في البحر الأبيض المتوسط، ما بين بحيرة بوهركا المالحة والحدود الوهرانية. القتل وداعا للريف الحقيقي والريفين أصحاب لهجة تامازيغت الفالصة. وداعا لهواء الجبل القوي والقثج ولاعتال المناخ وللايمان القوي والصلب لسكان الجبل.

وبله من بلد غريب وقاحل ! فكل شيء فيه يتسم بالجدد، الطبيعة والسكان، فالمطالعي يتحدثون الزناتية وهي لهجة أمازيغية بعيدة إلى حد ما عن تامازيغت . وهو نفسه زنتلي، أي ينتمي إلى فرع آخر من أفرع لإخوانه الريفيين، أصحاب لغة تامازيغت والذين يسمون أنفسهم أمازيغ ( جمع إمازيغن )، والمقصود بذلك الإنسان الذي يتكلم لغة تامازيغت، وذلك حتى يتم تمييزهم عن الزناتيين، أي الأمازيغيين الآخرين.

كما أن الحيوانات الأليفة هنا تختلف عن حيوانات المناطق المشحوة والباردة بالريف. فالحمار والبغل اللذان ينتميان في الجبل يندران في الرمال الصحراوية ويوضهما الحصان والجمل. ففي الفضاءات المنبسطة والعلوية يجب تتوفر على السرعة، إضافة إلى البساطة والبروز.

وكفارس شجاع، فإن المطالعي لا يفارق حصانه أبدا، متعلما لا يفارق بتدقيقه الإنجليزية أو الإسبانية التي اقتناها من المهرين بالقنولاي: الريانية. ولأنه يلف جسده بالحليك و " بيرنوسه " الخفيف، فإنه يبدو على هيئة عربي لولا نعاله المصنوعة من الحظلة ورأسه العاري وسطته الأمازيغية. وتعتبر صناعته الرئيسية والوحيدة هي الحظلة. فهو يتقدم في السهل، ممسكا حاصدته بيده وستوبها بزوجت. وعند كل نصف دائرة ترسمها هذه الآلة المغطفة على الأرض، تسقط الأعشاب الكثيفة التي تجمعها زوجته فتشجاعة على شكل حزم صغيرة مربوطة بعناية. وعند الرجوع إلى الخيمة، يشرع الجميع في قتل الحبل وصنع النمل والقثف والحصير والفراويل. وتتمتع النساء بحرية كبيرة، وهن مفلحات ويذهبن إلى السوق رفقة الرجال ويضعن بأرجلهن نعالا من الحظلة، وهن معجبات بأنفسهن لكنهن لسن شرسات، بل هن مستعدات للتكاف.

إن الأسواق الثلاثة بالقبيلة مزودة بشتى أنواع البضائع. وتتم فيها تجارة الأغنام والصوف والحلقة والخيل المصنوعة من شعر الماعز أو من الصوف الأسود، والزرابي والقشاي والسكر الإنجليزيين والبارود والرصاص والبنادق والحب والزيء والحسل. وسيكون من الخطير التطفل وسط هؤلاء الأشخاص المسلمين الذين يتراوح عددهم ما بين 15 و 20 ألف فرد دون أن يكون المرء محميا من طرف رجل من الأملي. ويمكن في هذه الحالة التجول في هذا الفضاء الشاسع السوق وهو مطمئن نسبيا.

وبالقرب، نجد بعض القرى الصغيرة المنطقة على المنحدرات الأخيرة للأطلس والتي يعتبر سكانها مسكرين sédentaires. أما باقي أملي القبيلة فيبحثون تحت الخيل ويغورون مخبئهم في كل مرة، يلحقين عن الكلا قطعانهم. وفي فصل الربيع، يصلون إلى صحراء أجداد، أما في الخريف فيقيم بصحران إلى الغاريت.

وتست القبيلة على مساحة شاسعة ( 80 كيلومترا من كل الجهات)، وتتوفر على خمسة قسم وهي: (بهدان، ( أصحاب الأندة)، ( قنسية عربية لمزيخية)، الخميس، ربع وانا ( قسم النطلي)، ( قنسية عربية لمزيخية)، سوليل، ككوت، ( الكريبط ) ( قنسية عربية)، ويوجد كل قسم 4 ألف فارس، أي ما مجموعه 20 ألفا بالقسمة للقبيلة برمتها، يحتلون جيادا رائعة ويحصلون بئادق لأوروبية.

وبالقرب، في الأجزاء الجبلية، يزرع القمح والشعير بشكل جيد، في حين تظل المنطقة بالشرق قاحلة وجافة، علما بأنها تفتقر من طرف نهرين مياهها مالحة، وهما واد مسون ( الموحل)، ( قنسية لمزيخية)، والذي تكون فيضاناته خطيرة في بعض الأحيان وواد ملوية الكبير الذي شوه اسمه بذكاء، من طرف الكتائب الأوروبية. ويحصل هذان نهريان مياههما الطهانية بمحاذاة الأرض المنبسطة دون منغاف، فالحين بصحرية مسلكا بالغاريت، تراع الصحراء هذا، الذي يتقدم بدمعة قوية، ساعيا ككبر أخير إلى ليصل أمامه الرملة حتى البحر. وبالقشال يتم استغلال جبل الملح بشكل مزدوج، فهو يوفر الملح الضروري للإستهلاك وكذلك أحجار الرحي الجيدة.

وكل الرحل، يعتبر أملي لمطالصة لصوصا بأرضين وقطاعي طرق متفرسين. وغالبا ما تحدث منازعات بينهم وبين عرب الدفرة. فإذا كانوا منتصرين، فيقيم بدهون كل شيء ويبدون الجميع.

وإذا ما كانوا مهزومين، فيقيم يتحصنون بجبالهم الشاسعة، وأحيانا ما يتحالفون مع بعض قبائل الرحل بصحراء أجداد، وهم يتسبون إلى زلوية درقلوبة ( سيدي عبد القادر ) .

وفي إحدى الأمسيات، التقى محمد بن الطوب الذي كان متجهاً بخيمة منجيهه، وسط  
دوار كبير، إلى مرور قافلة من 400 إلى 500 جمل، قعدو عند الأتق بمحاذاة القنطرة، وعلى  
القور، ركب 300 فارس مطلقين جهادهم وأغاروا على القافلة وبعد ساعتين رجعوا ومعهم  
قافلة بريتها. وكانت مكونة من 500 جمل محملة بالقصوف والقنطرة، بقودما حوالي خمسين فرداً  
من بني جيل *beni Guil* ، الذين تم نزع سلاحهم ودفعهم كأسرى مشياً على الأقدام أمام أعينهم.  
وقد قتل في المعركة عنصران من لمطافسة وآخران من بني جيل.

وتم تقسيم الجمل وحملاتها إلى خمسة أقسام، وزع كل واحد منها على قسم من القبيلة.  
وفي البدء، جاء الأمازيغيون المجاورون للمطافسة وأستقلاهم، طابئين عند الصلح. وقد قبل  
أهل المطافسة بإطلاق سراح الأسرى، لكنهم رفضوا إرجاع القنيطرة، إذ كان الأمر يتعلق بالقوام  
من بني جيل الذين سبق لهم سطوات من قبل، أن نهبوا قافلة لمطافسة كانت تعبر أراضيهم  
بطمأنينة. وقد حدثت هذه الفزوة تحت أعين القبيلة الذين يمكن أن يشهدوا على ذلك، عند  
الانقضاء. ورجع الأسرى من حيث لقوا، فرحين ببقيتهم على قيد الحياة.

### القرى الرئيسية بالمطافسة

- زاوية كركر، ( وهو اسم علم ويعني فتكزا)، ( التسمية عربية)، 200 منزل، ويوجد  
وسط القرية بئع صاف وعذب، يهلق منه ولد كركر الذي يصب في واد مسون.
- اعرفوب، ( قبل الصغير)، ( التسمية عربية لأمازيغية)، 100 منزل توجد بالمجال  
الغربي للقبيلة، فوق تل، في آخر منحدرات جبل كزناية.
- القوى العسكرية 20 ألف فارس، عدد السكان المحتمل 100 ألف نسمة، تقطع منضم.
- ويست السهل من كل جانب ، باستثناء الغرب، الاستقلالية تامة.

### قبيلة بني عمروث

( أبناء المنطقة الآهلة ) ، ( التسمية عربية أمازيغية )

سورهب القرووش في زاوية الشمال، خاضعا مرة أخرى لفزوته كرحالة وسيفندر  
لمطافسة وهو مسجون بالمشي على الأقدام، بعد جولاته الجنوبية على ظهر الحصان وقتي كان  
يجبر على القيام بها وراء الرجل، المتقنين بالسترار.

ومن بني توزين سيمر إلى بني حمرث، متوقفاً في شديدة عند قرية كبيرة تسمى  
 إيزاورو. ويوصل في وقت كان فيه الأهالي يعيشون حالة اضطراب، حيث كانوا يتجهون  
 يحصلون للتشروع في معركة ضد الكروا، وهي قرية محلية غير بعيدة. ويتوجه الرحالة بهند  
 نحو المسجد، همه الوحيد هو معرفة هل سيتعشى تلك الليلة، لأن عشر ساعات من المشي بمنطقة  
 مملوكة، فتح شهيتهم للكل. وهناك مسجد حواري عشرين طابقاً، وهم مسئولون، مرحبون على  
 القوم، ويقفزون في بيت الله ويصرخون ويضحكون ويغنون. ولأن من القرويش لا تسمح له  
 بمشاركة أكلهم، فإنه سينزوي بركن في المسجد. وكان يعرف بأن هؤلاء القليلين لن يأخذوا  
 في التحرك داخل القرية، لطلب قوتهم اليومي. وبالفعل، بعد مرور ساعة، وصل طعام لآخر  
 سيتقاسمه الجميع بروح أخوية، وهو ما سيؤكد القرويش بأن الطبقة يعرفون المثلثات المهيورة  
 بالقرية والأماكن المهمة التي تقدم فيها الصناعات بسقاء ودون تماطل.

وبعد أيام معدودة، سيستعد الرحالة للمغامر لونه وسيبدأ من جديد عبور البراري، ملأ  
 من قرية إلى أخرى، غير عابئين بما ينتظره في الغد، مثل عدم اهتمامه ببلده.

إن مساحة بني حمرث صغيرة ( 20 كيلومتراً من كل الجهات ) ويقسمها جبل شاهق،  
 وهو جبل بني حمرث إلى جزأين متساويين تقريباً، من الشمال إلى الجنوب. وعلى جنباته تتدرج  
 القرى على شكل مدرجات المسرح، وصولاً إلى السيل الذي تحيط به خضرة دقمة من أشجار  
 الأرز والبلوط والزيتون والصنم والحب. وبالسيل، تقوم أشجار اللوز، الغزو المستمر  
 لتين الوحشي. ولا تصلح الأرض الصلبة جداً إلا لزراعة القمح والقشور. ذلك أن تغير  
 المزروعات حتى نفس الأرض كي تحافظ على خصوبتها، غير معروف في هذه المنطقة التي  
 يظل فيها تقليد الأجداد، بمثابة القاعدة المثبتة من طرف الجميع. ويصلح أمالي السيل البارود  
 والرسائل. أما أمالي الجبل الذين يعيشون فقط من الغابة، فهم نجارون ولحامون وصانعو  
 القطران. ونهض كل عائلة ما تحتاجه من علم طب والخل. وينمو الكرم في كل مكان، حيث  
 تتسلق عروشه الأشجار المجاورة، كشجر التين والجوز واللوز والزعزوف. وما بين لوزهم وماي  
 تسقط أسطر خيزر، تساهم في سقي الأرض وملا المنابع. ويظهر الفلاح لآخر دجيزر، على قمة  
 الجبل الرئيسي للقبيلة، ليندوب بعد ذلك عند الأيام الأولى لفصل الربيع. وهناك حقول مخصصة  
 لزراعة الكيف والنشوق.

وتعتبر الجلابة الجبلية بمثابة لباس المستند، إضافة إلى السروال القصير الذي يصل إلى  
 الركبة. ويتم فوق رأس كل واحد، ضفيرة طويلة من الشعر، تنزل حتى الخزام. من الجهة  
 اليمنى للرأس القاري والمطوق. وما أن يبلغ الطفل سنة أو سنتين، حتى يتم ثقب شحمة أذنيه

وتربيتها بحفلات صغيرة من النحل، تخضع للتلميح بحفاة كي تظل برقة. وترقى النساء لباسا من الصوف، وعن عوفقت ويتجوزن سفرات الوجوه. أما الهندية المستعملة، فهي بندقية تاغزوت فقط. ورغم أنها محدودة التأثير مقارنة بالبنادق الأخرى، حيث أن جزأها المخصص للطلقات عتيق جدا، إلا أنها تظل مرعبة مع ذلك. فقد ساهمت كما هو معلوم، في حملات الثورة الفرنسية والإمبراطورية الأولى وحصدت بدون رحمة، أرواح كتائب بكملها ولدت إلى مذاهب فظيعة وسط الجيوش.

وتوجد بني عمريت أربعة أقسام وهي: ليت عبد الله، ليت سعيد، ليت بخزر ( ليتاء القدير)، ( التسمية أمازيغية)، ليت وذرار ( ليتاء الجبل )، ( التسمية أمازيغية)، ويوجد كل قسم ثلاثة آلاف من المشاة أي ما مجموعه 12 ألف رجل بالقصة لكل القبيلة. ويحين القائد من طرف الجماعات التي لا تعترف بلية سلطة أخرى.

ويسقى ولد بني عمريت سهل ليت بخزر وليت عبد الله. كما أن عددا كبيرا من القرى والبساتين يوجد على منطقتيه اللتين يجري الماء العذب والصفى بينهما باستمرار.

وقد حصل الدرويش بأعرقوب على وظيفة، حيث عرض المعلم الذي أصابه مرض. وسجنني من وراء ذلك، ودون تعب، عشرين سنة كما قُودى عن كل تلمذة، دون أن نحسب سلات الزبيب ولتين التي يتلقاها والتي يمكنه بيعها بالسوق. غير أن حادثا، كاد أن ينتهي بمأساة، سيبعده عن البيداغوجيا وعن قبيلة بني عمريت. فبينما كان ذاهبا في إحدى القبلي، إلى حلة زلفان بقرية أعرقوب ذاتها، فتحت نافذة وسمع صوتا يسأله: من أنت؟ أحقيقه طليقة نازية رهيبة، وقد اخترفت الرصاصات جلابة الرحلة دون أن تصيبه بأذى، مما جعله يصرخ على الفور: أنا طليق. وزمجر فرجل وهو يخلق النافذة صارخا: لماذا لم تطلقها من قبل؟

ووصل الدرويش المرعوب إلى منزل الحفل، معتق للون، مرتعد للفرائص، وكانت القبلة والنأي والطيلة تصدر ضجيجا قويا مرفوقا بزغاريد النساء والبهجة تعم المكان. وتخطر في الوجد الجديد في الحفل، ما يطنه بأنواع الأطعمة. وعند الفجر، وبعد قضاء الليلة وسط المحتفلين، ابتعد بصفة نهائية عن هذه القبيلة التي لا تسوي فيها حياة الإنسان حبة خردل.

### القرى الرئيسية ببني عمريت

- أعرقوب، ( لقل)، ( التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل على ولد بني عمريت.
- قرقوا، ( لسكن)، ( التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل؛

- أمزور، ( الأول )، ( التسمية أمزورجة )، 100 منزل  
 قري العسكرية: 12 ألف من المشاة عند المكان المحتل حوالي 60 ألف نسمة، التعليم  
 قرائي منتشر إلى حد ما. وهناك حوالي 60 قرية صغيرة من 10 إلى 100 منزل، موزعة على  
 السهل والجبل. وتوجد المسالك في كل مكان. وبالعكس لا توجد طرق واسعة.

### قبيلة بني مزوي ( أبناء تفاح الصنوبر )<sup>38</sup>

وهي قبيلة صغيرة تمتد مساحتها على 20 كيلومترا من كل جهات وتوفر على ثلاثة  
 أنهار وهي: تيزمورين ( أشجار الزيتون )، تازروت ( الصخرة الصغيرة )، أولاد علي. ويوجد كل  
 اسم 2500 من المشاة، مسلحين على الطريقة المغربية، أي ببنادق تاغزوت، ورغم عدم  
 القليل، فإن الأهالي يحظون باحترام جيرانهم الأتراك بفضل شجاعتهم وعري التضامن التي توجد  
 بينهم.

وبالشمال الغربي، في سهل الكبير لتيزمورين و تازروت، يزرع القمح والشعير  
 وخصوصا الشعير الذي يعتبر الطعام الرئيسي للإنسان والحيوان. ويكس جبل مزوي بالجنوب،  
 بأشجار الصنوبر الضخمة التي يباع خشبها لأهالي تاغزوت، من أجل صنع مقابض البنادق.  
 ويستلذ سكان القبيلة فاكهة الصنوبر التي يحصلون إسمها، كما تزدهر عندهم تربية النحل، بشكل  
 كبير. ويصعب أن تجد أسرة مهما بلغ فقرها، بدون خلية نحل. ويبيع الحسل الأصفر اللذيذ بفلس  
 حيث اكتسب شهرة كبيرة، ويتم نقله في جرات ضخمة على ظهور الحمير أو البغال. ولا يختلف  
 هؤلاء الجباليون الريفيون في شيء، عن جيرانهم بني عسوت. فلهذه نفس لزي ونفس الأسلحة  
 والعادات واللغة.

وهم أكثر عزلة من بني عسوت ولا يحجون للسفر، كما لا يريدون استقبال الأجانب .  
 ولأن محمد بن الطيب وجد في هذه القبيلة مجموعة من طلبة الجوانين مثله والراغبين في  
 معرفة البلاد أكثر، فإنه سافر بني مزوي وسعود مرة أخرى إلى مساجد كزنلية وبني توزين  
 وتافرسيت. واستغرق المجموعة المرحلة بأراضي تمسان، حيث سيأخذ كل واحد وجهته.

<sup>38</sup> - بتأليف يسمي الصنوبر تافحة وتفاح الصنوبر مزوي.

## القرى القرى القرى القرى

- تيمورين، ( أشجار الزيتون)، 100 منزل، وتوجد سهل راقع مغطى بأشجار الزيتون، وتتضمن القبيلة 50 قرية صغيرة، يوجد أغلبها على ضفتي واد تيمورين الذي يسمى باسم القبيلة.

القوى العسكرية 7500 من المشاة، عدد السكان المحتمل 37500 نسمة، تنظيم القراني محدود. الأرض متوجة. الإستراتيجية تامة.

## القبيلة بني وليشك

( أولاد الاستشاق ) ، ( القسمية عربية أمازيغية).

سيفارقي القرويش لصداقه القساميين ليعوض بقضاء الجنوب القراني. ولول محبة بلراضي بني وليشك ستكون هي قرية تاليون الكبيرة التي تحيط بها شجيرات كثيفة من الكين الوحشي. وبالمسجد مسجد الرحالة حوالي عشرين طالباً يقرؤون جهرا آيات من القرآن. ومع غروب الشمس، توقفوا عن القراءة وعطوا ألواحهم بالحائط دون أن يكتفوا أنفسهم عشاء مسح الكتلة العربية البارزة بحروف مائلة. وسأخذون القلف متوجهين إلى أزقة القرية، حيث سيتوقفون عند كل منزل صاخبين: " المعروف هـ". وسيرجعون إلى المسجد بعد أن امتلأت القلف بشئ الأطعمة، من كسكس ولحم وفولكه وصل وبطيخ الحضر ( دلاج ) وبيض مسلوق وسك ورؤوس الأغنام المشوية والطويات والزبدة وطبيخ اللحم بالبطاطس. وباختصار كل ما طبخته سيدات تاليون من أجل العشاء. وينت هذا الخطوط من المأكولات المتنوعة، من طرف الطلبة المغاربة بـ " المخطوط "، ( وهي تسمية عربية). وبشكل العشاء الطعام الوافر الوحيد بالنسبة للطلاب الذي يكتفي عند فطور الصباح بكسرة خبز يضمها بمرح وهو يفكر في مأبة المساء. وبعد أن نال محمد نصيبه من المخطوط، دخل في سبات عميق، في نفس الوقت الذي ظل فيه لصداقه الجدد يلعبون بالأيدي لو يروي بعضهم البعض الآخر حكايات خرافية. وعند القهر لبعض من نومه وغادر المسجد بهدوء، حيث وجد نفسه بالقبلة بعد ساعة خطوة.

وتحتل قبيلة بني وليشك مساحة صغيرة ( 10 كيلومتر من كل الجهات) وتتضمن أربعة أقسام وهي: تاليون ( الملتج) ( القسمية أمازيغية)، ربع قج ( الربع الأعلى)، ( القسمية عربية أمازيغية )، أيت سلم ( القسمية عربية أمازيغية)، ربع السبت ( القسمية عربية). ويجند كل قسم



2008 من المشاة مسلحين ينفذون ذات طققات متكررة تم شراؤها من المهربين الإسبان. وتغطي القنات العلية، القسم الجنوبية، وفي الشمال يغطي السهل تحت خضرة بسطين الخضروات القوي المسقية بواد بني ولشك. ويتغير اسم هذا الواد ذي المياه الصافية والمليئة بالأسماك، قبل أن يصل إلى حدود بني سعود وتمسكان، حيث يصبح اسمه واد سيدي صالح؛ وسيحمل إلى البحر، شرق سيدي إدريس، ما تبقى فيه من مياه.

وتغطي أشجار الزيتون الكثيرة التي تقاوم الزحف المستمر لأشجار الصبار، زيتونا رقا يتم تحويله إلى زيت بعصره تحت رحى ضخمة، بدقية إلى حد ما، وبشكل الزبيب للفخ من الكروم الجديدة التي تتسلق قمم أعلى الأشجار، أحد الموارد الرئيسية للأهالي، إلى جانب الصل. كما تسمح تربية الماعز والأبقار لمالكي القطعان الكبيرة، بوفرة العيش.

لذلك، فإن الفلاحين الكبار هم في غالبيتهم متعددو الزوجات، على عكس العرف السائد لدى الريفيين الذين يكتفون عادة بالمرأة واحدة. والشيء المثير للاستغراب، هو أن الاسترقاق غير موجود أيضا في الريف ولا يمكن أن نرجع ذلك إلى حساسية أمازيغينا الشماليين، بل يجب أن نرجعه حسب اعتقادي، إلى سببين محددين وهما: بعد الصحراء الذي يجعل ثمن القيد باهظا جدا، وكثافة السكان الريفيين، التي تعتبر كافية للقيام بالأشغال الفلاحية والمنزلية.

وبليس سكان بني ولشك الجلابة في الشتاء والحاك في الصيف. ورغم جمال المراك، فإنها تهمل في المقامات الغنية، لفائدة الغلام المساك. ولا تهتم المرأة كثيرا بالحقول؛ بل تبيع قط الحطب وتأتي بالماء من المنابع وتبيع طعام الفلاحين والحصانين ولطفاتها الكثيرين الذين لا تتوقف رغبتهم في الأكل.

### القرى الرئيسية ببني ولشك

- تالهايث، ( القلعة الصغيرة)، ( القسمية أمازيغية)، 300 منزل على واد سيدي صالح.
- تقيوين، ( المنابع)، ( القسمية أمازيغية)، 300 منزل؛ يقام بها سوق كبير يوم السبت ويقتل أهالي هذه القرية بوجود موظف مغربي، يسمى قائد الريف.
- القوى العسكرية 8 آلاف من المشاة. عدد السكان المحتمل 40 ألف نسمة. القبيلة مستقلة وتبحث أحيانا بعض الهدايا إلى السلطان . القنات القرائني محدود.

## قبيلة بني سعيد

لم يكن الدرويش الذي يتجول بدون هدف محدد وبحر الريف بنفس الطمأنينة التي نعيش بها الجزائر، مجبرا كباقي المسلمين على انتظار موكب أو قافلة للمرور من بلد إلى آخر. فأسفله كانت تساي جوشا ومظهره الخفيف كان يحميه أفضل من حماية القافلة له، وسرفته بالأمازيغية والعربية كانت أفضل ألف مرة من كل الترخيصات (الترمانات) وجوازات السفر المحلية.

وعلى عكس الرأي السائد في أوروبا، فإن الانتماء إلى زاوية إسلامية يتضمن من المميزات أكثر من الإيجابيات، خصوصا عندما يتعلق الأمر بعبور منطقة خطيرة كالمغرب. وهذا هو رأي الدرويش وبعض الرحالة المسلمين الذين رددوا على مسمي العبارة التالي: « في المغرب (المغرب)، العربيان عليه لسان الله »، وهم يقصدون بذلك أن الأسماك ليسها تعتبر قرعا بمرض الرحالة الذي يرتديها إلى الخطر.

وإن، فإن نموذج الأمان سيكون هو التجول في الإمبراطورية القشرية بدون لباس، بمعنى أن يكون المرء عاريا كما ولدته أمه. والصالح، أن بساطة الرداء هاته، لا تعفي من التعرف بعد على اللغتين العربية والأمازيغية اللتين لا يمكن لأي أوروبي إلى حد الآن أن يدعي معرفتهما. قد غادر محمد تالوث (الغلي الصخيرة) في الوقت الذي لم تعد فيه أسفله تغطي جسده. وبذل أن يمنحه أهلي بني ولشك القساء ثيابا فلبسهم كانوا ينظرون خلسة إلى لظفاره ولم يظفروا رغبتهم في اقتراحها منه.

لذلك، لم يهتم أحد بذعله في ليلة من الليالي متوجعا بفباح الكلاب التي كانت تودع طي طريقتها هذا الجوار الذي كانت ستمزقه إربا لو تمكنت من الخروج من المنزل. فالكلب في هذا البلد المتوحش، هو من الخطورة بمكان، لأنه يظل جالسا باستمرار. وهذا هو الوضع المعادي بالنسبة لكل كلاب المغاربة. فهذه الحيوانات الهنسة تضطر لأن تقتات من الفضلات، فهي تنتظر اللحظة التي يذخر فيها السيد المنزل ليجتزل في الحقل المجاور أو وراء الحائط وبعد انتهائها من هذا الطعام القذيع، ترجع إلى مكانها، في انتظار خروج عضو آخر من الأسرة. وهذا الصوم القديم يضاهف من هياجها ووحشيتها. وويل للغريب الذي يسمح لها بأن تلمق جسده، فهي إن تمضيه فحسب، بل ستقرسه وتمضيه إذا لم يأت أحد لإتقاده. وقد كشف لي رفيق يوما، عن بطة سافله أو بالأحرى ما تبقى منها، قائلا بأن الكلب الذي سبب له هذه العار، انضم بمضنة واحدة وحلا من اللحم، التهمه على الفور لأم أعين الضحية، إن لم تقل إنه لزرده في عملية بلع سريعة.

سيواجه القرويش إذن صوب الشمال، تاركاً بني واشك وراءه خط مستقيم دون مخرجات ودون حواجز متطاولا من تقاليث. وهذا الولد المستقيم هو عبارة عن شريط خطي تضلّه سماء صافية، تحفّذه القرويش مرشداً له، بحيث كان يمر على ضفته ببطء مصغبا أحيانا لدوي طققة بندقة أت من بعيد. ولم يكن راعيا في لقاء السكان، لأنه كان يطم بأفه من السهولة تلقى رصاصة أثناء المرور فيلا قرب المزارع والقرى الصغيرة.

وعند الفجر وصل إلى تازحين، وهي قرية كبيرة تكتدرج مثل مخرجات الممرح، على جانب تل. لقد حل ببني سعيد، وهي قبيلة بحرية ساحطة بتسمان غربا وبقلعة شرقا وبني واشك وبني بويحيى جنوبا. وتمتد على مساحة 20 كيلومترا طولا وعرضا، كما تتفرع على أربعة أقسام وهي: أيت أحمد، أيت عمر، أيت علي، أمزوج، ( قصة الجبل )، ( التسمية أمازيغية )، ويجند كل قسم 4 ألف رجل من المشاة المسلحين بهنادق حديثة تم شراؤها من المهربين الإسبان.

ولرائسي بني سعيد رملية وأيضاً صخرية ومجنبة ولا يوجد سكان على الساحل. وتنتسم القبيلة إلى شطرين يمحان بالقرى بفعل الاختراق جبل بني سعيد لها. وهو عبارة عن تلال متعاقبة تمتد على خط مستقيم من الغرب إلى الشرق. أما السهل فهو جانب تماماً، إذ لا توجد به منابع ولا أنهار، باستثناء ود سيدي صالح بالغرب والذي لا يبقى للأسف، سوى جزء ضئيل من المنطقة، لأن مجراه مستقيم وليس مخرجاً. وعلى امتداد هذه المساحة الشاسعة لا توجد أشجار، بل هناك فقط الحلفة وبحر متزوج من حقول القمح والشعير يمتد نحو الأفق خلال فصل الربيع. وكان من اللازم على كل منزل بناء خزان أو خزانين بشكل جيد وتعليط أرضيتها بالغرف. ومن تازاخين سيبر محمد إلى زقزوا، وقد أطلقت هذه التسمية على مجموعة من القرى الصغيرة جنوب القبيلة متعاقبة من الشرق إلى الغرب. وسكان زقزوا الوسطى هم من الشرفاء الذين يعيشون في رخاء، بفضل إيمان الأهالي الوريثين. وغير بعيد عن هذه القرية الكبيرة، تظهر قرية بطيوة التي يبدو أن أمازيغي أغزو ( بطيوة ) ينحدرون منها. وهو ما يؤكد الأهالي أنفسهم، وما يؤكد أيضاً سكان بني سعيد الذين يتّون إلى وهران للإشتغال في الفلاحة لدى المصمرين.

وأثناء مقامه ببطيوة، كان محمد يلتهم الفرصة للحديث عن الإخوة الجزائريين الذين جعلهم " مكتوبهم " للأسف، تحت سلطة النصارى. ومنذ سنين عديدة، ظلت المدلوة قائمة بين بني سعيد وبني بويحيى. ولا يمر شهر دون أن يؤدي تغلغل هذه القبيلة الأخيرة داخل القرى الجنوبية لبني سعيد، إلى النصر. ورغم أنهم أقل بأساً، إلا أنهم يقومون بشجاعة وينتهي بهم الأمر، بفضل تدخلهم، إلى طرد أعدائهم الشرسين باتجاه الجنوب. وترجع هذه المدلوة القديمة إلى سبب نقله في أحد الأيام وبينما كانت بعض نساء بني بويحيى يقفن بزيلرة قبر الولي سيدي عيسى، إذ أبين

يسمعن كلمات بنوثة نفوه بها رجل من بني سعيد ، حيث جاء على لسان هذا السائل عديم الحياة ما يلي: " هاها.. إنكن لا زلتن صغيرات.. ألا تخشين من مكروه؟ ما رأيكن في أن..؟. هذا بالإضافة إلى العديد من المحادثات التي يتكلم الناس العديمو التربية، في قولها بهللك. ولأن سيدي عيسى كان مكلفا مقدسا، فإنه من البديهي أن تعمل الشرائع الإلهية والإنسانية على معالجة المندسين. وعند رجوع النساء إلى بيوتهن، تشكلن إلى أهلن وأخبرن القربى بالإهانة الفظيمة التي سببها لهن السعدي. وعلى الفور نظمت حملة كبيرة، من طرف رجال بني بويحيى الأغوياء والبلاني القساوة الذين قاموا بغزو بني سعيد، ناهين ومبيدين كل شيء، حيث استولوا على المواشي وأغرقوا مخازن المبوب وأحرقوا المساكن. وبعد مجهودات جبارة، تمكنت قبيلة بني سعيد المهزومة، من نحر أعدائها خارج حدودها. غير أن الصراع الأبدى سيكرر كل سنة، مع تكاوب في النصر والهزيمة، حيث أن كل طرف كان يدافع عن كل شبر من أراضيه.

وبعدنا عن مسرح الحرب، يزول سكان ثلاثة خلجان صغيرة وهي: مرسى سيدي حسان، مرسى سيدي أحضري ومرسى سيدي عيسى، مهنة الصيد والملاحة الساحلية والقرصنة. وتضمحل قواربهم لهذه الأفعال مجتمعة .

تخلوا معي صيداا واقفا لمسلم. ألا يبدو لكم مسالما، منهمكا في عمله، هانئا عندما يأتي شبكته وسط أسراب السمك؟ في الواقع، علينا ألا ننظر بالمظهر. فعينه المادتين أبصرتا مركبا شراعي في الأفق. وعلى الفور سيغير رفاقه بواسطة الصلير، وينضمون إليه بسرعة بواسطة قواربهم . ولجأة سيصبح الصيد المسالم، قالا أسطول صغير escadre، لأنه أول من رأى الخطيئة غير المنتظرة. وإذا كان المركب المشار إليه كبير الحجم، فإن القرصنة أن يحلوا شيئا من المجهود الذي بذلوه في التجديف.

أما إذا كان الأمر يتعلق بسفينة أوروبية صغيرة أو بقارب من قوارب ريفي الشاطئ أو بزورق ناله وسط المياه، فإن أصحابنا لن يترددوا في مطارحته. وويل للقصارى إن هم سقطوا في قبضتهم، إذ يتم نهبهم بهرودة دم، وأحيانا ما يساهم إعلان الشهادة، في إنقاذ حياة الأوروبيين الذين تم أسرهم من طرف هؤلاء المتوحشين.

أما الملاحة الساحلية فتتمثل في نقل المسافرين إلى تطاون ( تطوان ) وطنجة وملياية. والمهنة الوحيدة بالنسبة لأهالي الداخل هي الفلاحة. وهم يستخدمون الحقة بكل تأكيد، لكن فقط من أجل صنع نعال عديمة القيمة أو الحبال.

ويوجد بالقبيلة سوقان: سوق الجمعة يزخرأوا وسوق الإثنين بالزوج. وهناك تباع كميات كبيرة من الشاي والسكر الإنجليزي والتي يتم جلبها من فارس. وقد أكد لي بعضهم بأن قلب

السكر من أربعة إلى خمسة كيلو غرامات لا يسوي أكثر من لترين. فما التجارية لتجارة هؤلاء الإنجليز ! إذ كيف يبيعون بشتن بشتن، مادة باهظة الثمن في أوروبا؟ إنني أعلم بأن التهريب الإنجليزي يدخل إلى المغرب كمية هائلة من البضائع. ومع ذلك، حتى ولو كانت هذه البضائع مهربة، فإننا نتساءل كيف يمكن أن نباع بهذه الأثمان البهسة<sup>38</sup>.. لماذا لم نلش من جانبنا أسواقا حرة بنمور Nemours وندرومة واللاصقية وتلمسان وعلى طول كل حدودنا الوهرانية، في كل مكان توجد فيه قرية أو قبيلة وحيث يمكننا أن نقوم معاملات تجارية ؟ إنها ستكون ضربة مدمرة لتجارة جيراننا لما وراء الماتش..

إن المعلم ، وإن كان أفضل من طعام الجنوب الغربي، ليس لدينا مع ذلك، إذ يتكون دوما من القبيسر ( كسكس الشعر مخلوط بالقول) وخبز الشعير الخشن وغير المطبوخ بشكل جيد. ويرتدي الرجال جلابية من الصوف ذات خطوط صفراء، بيضاء وسوداء. أما النساء المتكافئات إلى حد ما، فلا يتحجبن. وهن مولعات بالآثواب القطنية، الإسبانية والإنجليزية، التي يصلطن منها القصعة ذات الكمام القصيرة. وهن يهوين الاستحمام بشاطئ البحر، قرب سيدي عيسى وبعضهن يبحن السباحة. كما أن وضعيتهن الأسرية لا تثير الحسد مطلقا لا تثير الشفقة. فهي نفس الوضعية التي حددتها القرآن في كل بلاد الإسلام، أي أنها مقبولة بشكل عام وذات ارتباط وثيق بنمط عيش المسلمين. وعلى أية حال، فإن المسلمات لا يشتكين من هذه الوضعية وليس هناك داع لتغيير وضع اجتماعي رغم ثفرته، ما دام يتضمن على مستويات عديدة جواب أفضل من نظامنا. فبينما أصبحت المرأة عندنا عرضة للتفكك، حيث يجر كل طرف الحبل إلى جهته، ولم يعد هناك تقريبا ، أي امتثال للسلطة الأبوية ما دام النموذج فقط السائد هو المزوجة أو تحديد النسل، فإن الحالة المسلمة ظلت إلى حد الآن أبوية، مطلقا كان عليه الأمر في الزمن القوراني، أي قوية ومنحدة ومتراصة حول رئيسها المبجل الذي تعتبر مجرد إشارة منه، بمثابة أمر مطاع على القور.

ولا تعتقدوا بأن المرأة لم تكتسب في الوسط الإسلامي وضعا أسعى من الوضع المحدد دينيا. واستحضر هنا شهادة بعض المسلمين أنفسهم الذين أعطاهم بالقول: " لماذا لا تصرحون أبدا بالحقيقة ؟ لماذا لا تطلون عن ما هو حقيقي وما اكتشفته مرات عديدة، وأقصد السيدة المطلقة لزواجكم داخل المنزل؟<sup>39</sup> لماذا تتركون كل هؤلاء الرعايا السلطة الجاهلين يتخذون من وراء ظهوركم، وهم الذين لا يعرفون ولو كلمة واحدة بالعربية أو بالأمازيغية. ومع ذلك فهم

<sup>38</sup> - ) بما أنني لكتب من أجل الفخبة، فهل من الضروري أن أؤكد القول المثلثة التي تقولني، بأن هناك استقامات لهذه القاصدة، وفيه يوجد لدى كل الأعراف وفي كل عائلات المغرب أزواج سيوزون وزوجات سيكتن جدا؟

يستمدون معلومات من مجتمعهم، من الأوغاد لصحاب الشائبة ومن ماسحي الأذن في الساحات العمومية؟ \*

ولست مطالبا بالبحث بعيدا عن أسئلة حول السلطة المطلقة التي تمارسها المسلمات على أزواجهن المتواضعين داخل المنزل والمتبجين خارجه. لنأخذ إذا ما سمعتم، مثال الدرويش. فقد افتخر أُمامي بكونه يسيطر بيد من حديد على الأرملة التي تزوجها بعد وصوله إلى وهران بفترة قصيرة وبواسطة بعض الأصدقاء. والحال ، أنني كنت شاهدا في العديد من المرات على وضع الدرويش المثير للشفقة، أمام زوجته القهرية التي كانت تأخذ منه كل منفركته، فلما فلما، لتزوجه على أبنائها الثلاثة من زوجها الأول. وفي إحدى المرات، رأيتها تشد بخناق محمد بيدها المتشجنتين. فقد كانت ممسكة بتلابيب جلابته، طلبة منه فرنكين لشراء القهوة والمسكر اللذين حرمت منهما منذ يومين على حد قولها. وكانت تكذب طبعاً، لأن الدرويش كان يمددا بكل المال الذي يكسبه، أما داخل المنزل، فقد كان الأمر للفتح، إذ أن الأطفال الثلاثة المسمى لتربية والمأزرين من طرف أمهم ، لم يكونوا عطيين لأوامر محمد الذين يحتبرونه مجرد دخول عليهم. وفي أحد الأيام، رفع هذا الأخير يده لضرب أحد هؤلاء الأطفال الضلعين، لكنه تراجع مرهوبا أمام لظفر الأم الموجهة صوب عينيه. ولأن البنيس كان يعلم بأنني مطلع على مصائبه الزوجية، فقد روى لي مشاكله وأخبرني بأنه قرر الهروب من وهران وتركه هذه الأرملة المثقة عنده. ونظرا لأنني متمسك بإبقاء كتابي حول المغرب فقد تحدثت له خير نصيحة بقولي: \* لم تسمح لها بالمفعل، قبل أن تقدم على زواجك الأخير ( لأنه تزوج من قبل ثلاث أو أربع مرات)، بالحكمة العربية حول الأرملة والتي تقول:

نوصيك لا تفلح الهجاة ﴿ ولو كان خدما مشغوم

أنت تعلم خدمة الرجالة ﴿ وهي تقول الله يرحم المرحوم \*

ويمكنني أن أفكر بسهولة أسماء أخرى لأزواج مسلمين، خاضعين بالمطلق لأزواجهن القواني يفعلن بهم ما يشأن . فمن خلال أسفاري إلى تونس وعبر فليمانا الجزائرية الثلاث، التقيت في العديد من الأحيان، عربا وأمازيغيين يحبون زوجاتهم ويحترمونهن بشكل كبير، حيث لا يتخذون أي قرار دون مشاورتهن، وهم مخلصون لهن ويعتقون بهن ويطلقون بصراحة لأصدقائهم المحميمين، بأنهم يفضلون زوجاتهم على أطفالهم. ونحن نعتقد عكس ذلك في أوروبا، لأنه لا أحد من بين المستعمرين رفع صوته لمولمجة هذا الخطأ. فلو تمكن الكتاب الأوروبيون

الذين وضعوا مؤلفات حول العرب والأمزيغ، دون إلمام بلغتهم ولا بمعتقداتهم، من تلك هي الأخطاء الفظيعة التي ارتكبوها، لسارحوا بحرق النسخ المتبقية، المتكولة في المكتبات. وللأسف، فإن المستشرقين<sup>40</sup> قد سمحوا للجهالة بالسيطرة على هذا المجال المتعلق بالمعتقدات العربية وعبروا فيه كما أرادوا، بحيث لم يبق لهم بالمرصاد، أي معارض ولا أي نقد ممكن، يظهر لهم خواءهم. ويزداد هذا الشر اسطغالا كل يوم. فهؤلاء الأشخاص غير المسؤولين الذين شجعهم الصمت المتعمد للمتخصصين، ينتشرون باستمرار لخطيئتهم الضخمة بجمل جوفاء رنانة ومؤثرة. أما الجمهور الأوروبي الطيب، فإنه يتتبع هذه الجرعات حول المغرب والجزائر وتونس والمنطقة الإسلامية الأخرى. وأنا أعلم، بأن القسبان سوطال هذا الركن من القواعد التي يتجاوز فيها الاحتمال مع الأخطاء. وأنتم لها فكتاب الأوروبيون الذين تريدون الحديث عن العرب والأمزيغ وعن بلادهم، بشكل دقيق، اتبعوا هذه القسيمة: تعلموا أولا لغتهم الصحيحة بشكل لا يصدق، وبعد ذلك، اكتبوا عنهم، وما ستجزيونه سيكون جيدا.

إن قبيلة بني سويد تمتاز بتربية الماعز والأغنام والبهائم التي تناع في الأسواق مقابل نفود فرنسية وإسبانية. ولا يطرح أي مشكل بخصوص هذه النفود، فهي قابل على صلتها، سواء كانت قطعاً فنية أو ذهبية، مثقوبة أو مزودة المم لها فضل على النفود المغربية. وتوفر الأجراف الموجودة على شاطئ البحر مسطورا رحوية جيدة، يصنع منها الأواني رخي، يصنعونها بعد ذلك إلى كل الساحل الريفي حتى تولحي توطلون (تطون). وتوجد مستودعات كبيرة لهذه الرخي بالمسارات الطبيعية لهذه الأجراف.

وداخل المنزل، تعتبر الفولجن ملكية للنساء. وعن يمين الدجاج فقط. أما القبط والإوز والديك الرومي والحيشة، فهي غير معروفة. وينطبق هذا الأمر على الريف برمته. ويجري الدجاج في كل مكان بغناء المنزل بلحنا عن طعامه وسط فضلات الموائس. كما تستأثر ربة البيت بما تحصله من بيعها لمنتجات هذه الفولجن وتشتري بذلك مواد زيتتها (مشط، مرآة، خنقال، أساور، عطور).

وبالمنازل أيضا تربي القطط التي تملأ بطنها، ليس بالأطعمة اللذيذة التي لن يأكلها لها لحد أبدا، ولكن من خلال صيدها فنشط الفئران والسطحيات والمصطير إلخ... وفي الريف برمته، خصوصا عند بني سويد وتسمان واللعبة، تقام بمناسبة الوحدة<sup>41</sup> أو حفلات الزواج، مهرات

<sup>40</sup> - تكلم هذا عن أولئك الذين يمارسون اللغة العربية وأدبها. مسجوح أنهم لا يملكون، لكنهم على قلوبهم، مكبرون جدا في مواقفهم.

<sup>41</sup> - وهي حفلة إحصائية، تقام على شرف أولياء المنطقة.

لهذه، مخلوقة بألعاب شبيهة بالفلانتريا ، لكنها تلم بدون جلد. فبعد عشاء غامر مكون من اللحم المطبوخ بزيت تحرق اللحم بسبب القوايل القوية الموجودة بها بكثرة، يختار النساء والأطفال والرجال والفتوة مكافأ ملائمة خارج القرية، هو عبارة عن حلل للمناورة، يسمح للمتعاركين بالتحرك كما يشاؤون.

وسيجلس النساء والأطفال وعازفو الفاي وكازحوا الطبلية، القرفصاء على خططين متوازيين، ووسط هذين الصفين ستوقد نار تضئ المشهد. وتبدأ النساء، الفتيات والمجوزات، بإثارة ألسنهم بأصوات ترتجل في غالب الأحيان لهذه المناسبة. وتجيها نغمات الفاي وأصوات الطبول بضجيج يولفص الميت من فبه كما يقال. فهذه تقايل الموسيقى ويرتجل الموسيقيون بدورهم ألسناراً. وعندما يفتنون من آخر بيت، يستكفون من جديد القفخ في قصباتهم والضرب بقوة على الطبول المصنوعة من جلد الحمير. وعند الفجر، يوزع " المسمن " و " القريد ". وبعد هذه القوبة الخفيفة ينهيا المحاربون لمركة ومهمة، فيشكلون دائرة كبيرة ويبدل عشرون رجلاً من الجهتين، المتقابلتين للدائرة، عشرة من كل جهة، ويتقدمون باتجاه بعضهم البعض. ويحدث الالتقامي مركز الدائرة بالذات ، وهنا يرفع صوت سالما: *Aoukh ithid ! Aoukh ithid !* *a ifrakh* ( املوه.. املوه.. لها الأطفال )<sup>42</sup>. وستتبدل الكلمات الأخيرة وسط رشقات جماعية منة من عشرون بندقة، صويت فوهاتها نحو الأرض، مما سيؤدي إلى تطاير هبار كليل. وفي الوقت الذي يرجع فيه المحاربون إلى أماكنهم، تتصاعد زغرذات النساء الحادة وتقرع الطبول مساهمة في تحريك وجدان الحضور.

وستتقدم عشرون بندقة أخرى وسط الساحة لتقوم بنفس العملية بحيث سيستمر نفس المشهد حتى وسط النهار، باعاً لدى المتفرجين والقاطنين حماساً يصل إلى حد الهياج.

### القرى الرئيسية ببني سعيد

- غلزون ( الضفاف )، ( القسمية لأزينية )، 100 منزل، على المنحدر الشمالي لجبل بني سعيد وتوجد بها شجيرات القين الوحشي بوفرة.
- سيدي حسن، 100 منزل، على البحر الأبيض المتوسط؛
- سيدي محمد والحضري، خليج صغير، 100 منزل؛

<sup>42</sup> - المصود بكلمة لملوم هو الفلرو12 وهو منكر بلغة تلمازينيت.



- مجدي همسي، 50 منزلاً، دلتل الخليج، يؤمه الزوار بكثرة، وهناك قبر باسم سيدي همسي موجود بمضلي صغيرة وسط القرية. ويخترق هذه الأخيرة جدول صغير هو ولد سيدي همسي الذي يقف في البحر كمية قليلة من المياه.

- زقزوا القحطانية ( الخضراء القحطانية)، ( التسمية أمازيغية عربية)، 300 منزل.

- زقزوا القوقاية ( الخضراء القوقاية)، ( التسمية أمازيغية عربية)، 300 منزل بالقرن.

- بطيرا ( القصة)، ( التسمية أمازيغية)، 20 منزلاً، جنوب زقزوا.

- سوق الاثنين، هو مكان تسع غير مسكون، تجتمع فيه كل يوم اثنين حشود عاتلة ويمر واد الكرت شرق السوق، مشكلاً على مجرى مستقيم، حدوداً طبيعية بين بني سعيد والعمية. وتوجد لكتر من 200 قرية على منحدر جبل بني سعيد.

القوى العسكرية: 12 ألفاً من المشاة، عدد السكان المحتمل 80 ألف نسمة. السهل شاسع، باستثناء جبل بني سعيد القليل الارتفاع. التحصين القوي محدود. القبيلة مستقلة، لكنها تقبل مع ذلك تولد مثل الممزن بزقزوا، نظراً لقربها من الأسبان المتولين بطنية.

وهذا الشخص الذي لا يتوفر على أية سلطة، يمتنع لنفسه مع ذلك، لقب قائد الذي لا جدوى من رقبته. وكان إسم هذا الشخص أثناء مرور الدروبش بزقزوا، هو الحاج العربي قولشكي.

### **43 قبيلة بني بويحيى** ( التسمية عربية أمازيغية )

كانت روج قشربي تهب بقوة مساهمة في ذبول القشج فوق الرمال الحارقة القاروت الشاسع، هذا القشج الذي بنيت في مثل هذه الصحاري. وهناك رجل واحد تجرأ وغامر زقزوا في جو كهذا تاركاً البحر وراءه ليخوض في الجنوب بخطوات كبيرة. فهذا القبلان ان يكون عرضة للاعتداء، لأن أسلحة بالية ورأسه عار ورجليه حائيتان. وكانت القشج الإفريقية الحارقة ترسل أشعتها القارية على رأسه الحديدي. ومع ذلك، فقد ظل يتقدم إلى الأمام، غير أنه يديران

<sup>43</sup> - بالنسبة للمازيغيات وكل اللهجات الأمازيغية الأخرى، فإن الألف المقصورة التي تنتهي بها أسماء الأعلام العربية، تتحول في الغالب إلى ياء، مثلاً موسى بالنسبة لموسى ويحيى بالنسبة ليحيى.

الجماء ولا بأحراق السهل، وعند حدود بني سعيد، قرب سوق الخميس، يتميز الحيون القليلة القرويش من بعد، حوالي حشر جيد تسبق الريح ورأسها إلى الأمام وتثير زوينة رحلية بسبب سرعتها الجذرية. وتتوقف هذه الجراد على بعد خطوات منه، بعد أن شد لجسها من طرف رانكها. عندئذ تطلب شمس طويل القصة القرويش، من فوق رانكها ومحركاً عصاً طويلة مغطاة، متحدثاً تماريخت:

. أهلاً .. هل أنت من بني سعيد؟

. كلا، أنا من بني والشك.

. إنك تكذب، فأنت من بني سعيد.

ولم ح الشخص بمصاء المظوفة، متظاهراً بظن الجوال الذي لم يتوقف عن تردد: " أنا لست بمسديا، أنا طلق جنت هذا القروية ". وسأله الرجل بعد أن توقف عن جس عطفه بمصاء:

. طيب، قل لنا، هل تأتي قبيلة بني سعيد مهاجرتاً قريباً؟

. طبعاً لا، فأنت تعرفون أنني من بني سعيد وبغوتكم، فما الذي يمكن أن يؤوله القراطين

الجماء أن يعلو، أمام جياتكم؟

ولأن هؤلاء القراطين لم يطمئنا إلى تولدهم بأحد القبلة دليل أراضي العدو، فقاموا عدوا من حيث أتوا، وركب محمد وراء واحد من بين هؤلاء القراطين القاطن الطريق، ليورد الجميع إلى القرية الموجودة على مسافة قريبة، جنوب سوق الخميس. وللاحتماء بوصول الجوال الذي ادعى بأنه حشم كبير، تم ذبح خروف وطبخه في الحديد من القنور وأكله عن آخره. وسكنى الرجال ليلتهم في الخراء وهم يشربون الشاي ويحفظون فيما بينهم، ولأن محمد بن الطيب كان قليل الكلام، فإنه كان يكفي بالإكساب والملاحظة والظلم وكان موضوع الحديث يتعلق بالخرافات والعمليات الجريئة التي يشهدها أسماها شمر الصبيان.

وعند منتصف الليل عاد الجميع إلى النوم، وتم إشغال القرويش إلى خيمة واسعة، قسمت إلى جزأين بواسطة العصي الطويلة التي تستخدمها، على جهة تمام الأسرة مجتمعة بصف طويل، سيئس القرويش أحد أطرافه، وفي جهة أخرى تتواجد الجراد التي كملت أرجلها والجمال المطرسة التي شددت أرجلها بشكافة من الصوف. وبالساحة التي تحيط بها مائة خيمة بالقنور، توجد الخراف والساحز والأبقار التي تجتر بهدوء تحت ضوء النجوم. وقد تتحرك أحياناً بهدوء وبشكل جماعي أمام نهج حوالي مائة من الكلاب التي تغير من كل الجهات عند سماعها لأصوات بنات أو من العادة أو لأصوات الضجاج المتميزة. إن ذلك التعرض الخراف والساحز والأبقار لبعض الكلاب الباحنة عن مكان لها وسط القطيع، وتخرزو الخيمة وتكس وهي في حالة رعب على

الرجل القديم. وبالرغم من هذه الحجة، فإن الدرويش كان يستمر في شغوره مطمئنا، لأنه متعود على ما هو أصعب من ذلك.

وظل محمد يومين عند استقائه الجدد، ثم تطلق متجولا في البلاد، نائما في الدواوير، راتبا الحصان، مشركا في غزوات جريئة بدافع الفضول، ممسكا كفارس غير محظ غير يعرف حصان الصحراء "شارب الريح" الذي يلتهم الفضائل الثلاثة سريعا كالبرق ودون كل. وكاستراتيجي جيد، فإن الدرويش أقم موقعه الفرنسي بالكرت، وهي زاوية مخصصة لسبدي محمد بن قنور، ومنها كان يطلق نحو المناطق الأخرى ثم يعود إليها لاسترجاع قواه ولأخذ قسم من الراحة في هذا المكان المضيف.

توجد الآن بقية بني بويحيى، وهي قبيلة كبيرة من الرجل توجد بجنوب ليبيا. مساحتها 40 كيلومترا طولا وعرضا وتتضمن خمسة أقسام وهي: إغياقن (للصوم) بالشمال، ( التسمية عربية أمازيغية)، والفاروت ( الجافة ) بالوسط ( التسمية عربية) والتي تقسم بدورها إلى قسمين وهما: الفاروت وبني لعمدا الكرت ( الحجر ) ( التسمية أمازيغية)، ربع وادا ( القسم السفلي) بالجنوب ( التسمية عربية أمازيغية) .

ويوجد كل قسم 5 آلاف فارس.

وإذا ما استكننا جهة الغرب، حيث يوجد خط طويل من التلال يمتد من الشمال إلى الجنوب ويتحول بعض الشيء نحو الغرب، ابتداء من الوسط، حيث يسمى تارة جبل بني بويحيى وتارة جبل الكرت، فإن المنطقة برمتها هي عبارة عن سهل شاسع مكسي بالشج والحقلة، يقطعه واد الكرت الذي يحمل قطرات من المياه إلى البحر الأبيض المتوسط، غرب ليبيا. ويتوج جبل الكرت ببقلها غلبة لم يبق منها إلا الأثر بلعل الحرائق والرعي وقطع الأشجار الذي يتم بدون حد ولا تعقل.

وقد غزت الحقلة المنحدرات الأولى للتلال. وتساهم هذه التربة التي تحترق كل سنة، في تآكل الأشجار التي تشكل الواجهة الأمامية للغابات الموجودة بقمة الجبل. ويستعمل بني بويحيى الحقلة بطريقة أسيلة، حيث يصنعون منها خياما كبيرة ومقوية جدا. وهل من الضروري التأكيد بأن الأجنحة والجمال والحصائر وممسحات الأقدام والشباك والفريال المستخدم لطهي الكسكس، مصنوعة جميعها من الحقلة؟ لكن صحراء الفاروت لا تتضمن الحقلة فقط، فهناك حقول صالحة لزراعة الشعير وحتى القمح. لكن الثروة الرئيسية للرجل تتمثل في مواشهم. فترية الأغنام والحياد تسمح لهم بتحصيل مكاسب هائلة، إذ أن الصوف الأسود والأبيض المتميز بجودته، ورغم

لحمه البخر: ( 50 سنتهما فقط للجزء london ) هو بالقسمة إليهم مصدر ربح مؤكد أكثر من محاسن الجيوب.

طبعاً فإن الفترات، هذه الفزاح الغربية للصعراء، قد جفت ريفي بني بويحي رحلا، ورغم أن عاداتهم مغيرة لعادات إخوانهم بالشمال والغرب، إلا أنهم حافظوا على لهجة تاملزيغت الفلصة تقريباً. وهم يرتدون أيضاً الجلابة الرمادية في فترات الراحة، لكن ما أن يمشوا جيتهم حتى يرتكوا الحلبك الأخف والأقل مضايقة. ذلك لأن الأكمات القصيرة والضيقة الجلابة تمنعهم من استعمال مضطهم الخشبي بمهارتهم الممودة. والمضطام هو سلاح خطير، يمسك الرجل من عنقه أو ثيابه أو كعبه ويرفعه وقد حبست أنفاسه أمام مخاطفه الجالس فوق سرج الحمير، وفضلاً عن المضطام الخطير، فإن الفارس مسلح بسيف ومسدس وبنقوة، ويستعمل هذه الأخيرة ضد الغرباء الذين يريد القبض عليهم أو قتلهم. أما المضطام فهو مخصص أساساً لأسر أهلي القبائل الأخرى. المتحاربة فيما بينها باستمرار.

ويركب الفرد من بني بويحي حصاناً مسرجاً بشكل رائع على الطريقة العربية، وهو يبدو برأسه العاري ونسيته الكثة ورجليه وساقيه العاريين كمتوحش يتلفظ مظهره مع الطلي الذهبية والفضية التي تزين اللجام والسرج. ويهتق مثابحة الخيلان والتملم دون أمل في الإيقاع بها، بل للاستمتاع فقط بمسابقة الفرج ولفح هذه الحيوانات المسالمة حتى قهر. ورغم كل المضايقات التي تتعرض لها من طرف الإنسان، فإنها ترجع إلى ملأهاا بالربوح الخالية منفضلة لديها.

وتبدو علامات الذمة على أهلي بني بويحي ، وهو ما يمكن تلمسه من خلال ملابسهم الفاخرة والطي الذهبية والفضية التي يتوارون عليها. أما النساء فهن جميلات إلى حد ما، لا يتحجبن أبداً ولهن مقترنات. وهن يشاركن الرجال أحداثهنم كرهفات ولا يتصنعن الحفة بل فهن يفتنن لأكثر من واحد، دروساً في الحكمة والحس السليم. لكن حينهن الصغير الذي يشتركن فيه مع الرجال، هو عشقهن للشاي، وتحديداً للشاي المطى بشكل يثير الفتيان. فهن يكن أربعة رجال وأربع نساء أن يرتشفوا في أسية واحدة حوالي ثلاثين كلباً من الشاي لكل واحد، مستهلكين بذلك قلباً من السكر دفعة واحدة.

وتوجد بقليلة أربعة أسواق وهي: سوق الجمعة بقسم يهوان وسوق الإثنين بالكرت وسوق الثلاثاء بربح وادا وسوق الخميس.

وتباع البضائع هناك بأثمان بخسة، حيث تؤدي مبالغ زهيدة مقابل جبل من الصوف المجتر من ظهور الكباش قاروت فضضة.

ويتخالف بني بويحيى مع قبائل صحراء النجاد. وحيلما يقرر القول بغزوة من طرف القبايل الخمسة أو الستة بالقبائل المتحالفة، فإن كل قسم يقدم السدد اللازم من الرجال، وكل من أحجم عن القيام بذلك، سيتعرض لفريضة من 100 إلى 150 فرنكا. وتوزع الضريبة بين كل قبائل المشاركة في الحملة. وبطبيعة الحال فإن القبايل يحاطون ببعض الامتيازات أثناء عملية التوزيع.

### القرى الرئيسية ببني بويحيى

- ككرت ( الحجر )، 100 منزل؛
- سوق الخميس، 10 منازل؛
- سوق الجمعة، 20 منزلا.
- القرى العسكرية: 25 ألف فرس، عدد السكان المحتمل 125 ألف نسمة؛ الصحراء مغطاة بالحلقة والشبح. يتم تعلم القرآن بعض الشيء تحت الخيام. ويوجد بالقبيلة طابع مائل من الأعلام.

### القبيلة العسية<sup>44</sup>

#### ( تصغير لقلعة ) ، ( التسمية عربية لملاوية )

تطلقا من قرية الجمعة إلى الحدود الجنوبية لقلعة يمتد السهل دون وجود لأية شجرة ولا لأي نوار ولا لأي منزل. وفجأة تبرز تلال بني بويغور العارية والمكونة لجدار ممتد من الشرق إلى الغرب سيجر القارت ( الغاريت ) على التوجه يمينا نحو كبدقة وطريقة، وما أن يخرق واد كرت أراضي قلعة حتى تمتلئ ضفافه بالقرى. وإن يعود ألمانا ذلك الغدير الصغير بدون اسم، الذي كان يتفادى الشرب داخل الشقوق الجافة للقارت، فهو يجري الآن فوق أرض جافا، منتعشا بمياه الفيضانات التي يلتقي بها في مجرى. وتتوالى الحقول المزروعة بدون تقطاع، متناوبة مع كتل الصغار وبساتين الخضار والفواكه التي تستمد حياتها من مياه النهر. ومثل الأرض ، فإن السكان سيتغيرون هم أيضا . وإن يعودوا شبيبين يسكن الصحراء.

<sup>44</sup> - لا تستطيع الحروف الفرنسية، نقل التعلق الحقيقي لبعض الحروف العربية والأمازيغية، فكلمة قلعة مثلا، لا يستطيع الحلق غير المتدرب أن ينطقها كما يجب. لهذا كانت الحين مأخوذة لديهم ، فطرقها كلمة، وفي حالة الممكن فطرقها لكلمة Guelais.

إن القميين الأتداء الذين ما زالت طبيعتهم أقرب إلى الفوحش يحثرون مع ذلك أنسا مهذين نسبيا، بحيث يتولون الصدرة في لريف برسته على المستوى للتسلح الديني وعلى مستوى الحضاري. ولأنهم كانوا مرارا إلى الجزائر، وخصوصا إلى محافظة وهران، فإنهم لاحظوا كيف أن النصارى، وتحديدا الفرنسيين، يتفرون على مزنا ليست لديهم، وهم يحثرون بذلك صراحة. كما أن القرب من ميلة جعلهم واعين بأن النصارى ليسوا، كما يعتقد الريفيون الآخرون، أنسا لا أهمية لهم. ومع ذلك فلديهم ثقافة بأنه لا توجد في الدنيا أية قوة قادرة على مواجهة في إقنهم الصلبر. وسيكون هذا الاعتزاز بالنفس، المبالغ فيه إلى حد القلامقول، سببا في ضياعهم. فهم سيتحشرون في رفض مساعدة جيرانهم ضد الأسبان الذين كانوا في نزاع مستمر معهم ؛ بل سيحثرون بأنه لو توفرت لهم بعض السفن لكافوا قد احتلوا إسبانيا. ويبدو أن جيل الريفي يتجاوز هنا كل الحدود الممكنة. فكل الريفيين يقولون لي بأن دول النصارى تؤدي لجزية لسلطان القسطنطينية. وهم يشاطرون في ذلك ، رأي كل مسلمي العلم. والأمر الطريف لديهم هو تأكيدهم على أن فرنسا غير قادرة على إخضاع الريف. وهذا شرف تعظم به فرنسا دون غيرها من القوى الأوروبية. وبالفعل، فهم يزعمون بأن قبيلتين لو ثلاث قبائل ريفية، تكفي لهزم إنجلترا لو ألمانيا شر هزيمة !

وقد لاحظت مرارا كيف أن القميين يأخذون هنا كل مساولنا ويتركون جانبنا مزنانا. فبعد أشهر من الإقامة عند المعمرين الفرنسيين بالجزائر، يستهويهم الخمر فوشربونه حتى الشمالة وينغمسون في المذات ويقتنون في تلك ككل المسلمين غير الروعين. فالصلاة والصيام وكل الممارسات والمواظب الأخلاقية الجميلة الصادرة عن القرآن، تصبح موضوعات لسخرية دائمة من طرف هؤلاء الأشخاص ذوي النفوس القوية.

لكن حذري من هذا المسلم المنحرف! فمع تقدمه في العمر، يتعقل ويريد التوبة والتكفير عن الآثام والذنوب التي ارتكبها وخلف بها دينه. فما الذي يمكنه فعله لتهدئة الله تعالى؟ ما هو القربان الذي يمكنه أن يقدمه كتكفير عن آثامه؟ ليس هناك ما هو أفضل بالنسبة لهذا الإله الضور من قدم قلبي للرومي الذي سيجعل سلطنا تحت سيف المذهب التكتب الذي تحول بفعل الظروف إلى خبر مكلف بالأضاحي. فالمسلم الذي لا يلتزم بتعاليم دينه هو إنسان خطير وحثير، يلزم الاحتياط منه. غير أن مواطنينا غالبا ما يسمون هذه الحقيقة، معتقدين أن المسلم الذي يشاركنا بذاتنا هو أفضل من المسلم الذي يتبع تعاليم القرآن. وهذا خطأ كبير وشنيع، بل يمكن اعتباره سببا في كل الخيافات والاضغاثات التي تعرض لها مستوطنونا غير المجريين، منذ احتلال الجزائر.

إن محمد بن الطيب بذلكه الصلي والقيته الصلبة، لم يصفق أي شخص في المغرب،  
قد كان يعلم بأن المسلمين الورعين لمحتظون منه سلما محتظون من أي معلم غريب. كما كان  
يعلم بأن عليه التهرب من المسلمين غير الورعين. لذلك لم يرتبط بأي كان ، بما في ذلك المرأتين  
أو ثلاث نساء القوي تزوجهن صفة وطقين أو تظلي حين نفس اللامبالاة ملصقا لثناء  
التمويل للفتن.

وسجده الآن على ضفاف ود الكرت، حيث غادر بني بويحيى، متوجها نحو الشمال  
خلال النهار وموثقا بالقرى الصحفية للتهر لثناء الليل. وسجل في لسنتر، وهي قرية كبيرة  
تضم 300 منزل من طابق واحد، توجد قرب البحر على سهل رملي شاسع حيث ينمو الشعير  
والقمح وقتين فوحشي. وكان بعض الرجال جالسون بباب المسجد، مرتدين للجلابة السوداء  
واضعين يدايهم بين أرجلهم ويتفقدون في أمورهم بتمازيغت مطلقة بعض الشيء عن تمازيغت  
سكان الريف الأوسط. ولم يلقه أحد إلى الدرويش الذي سمر أمام المجموعة متمتعا بسرعة  
علاوة : " السلام عليكم " لينخل إلى المسجد حيث وجد هناك حوالي عشرين شاه، بعضهم يثو  
أيام لرقنية بصوت عال والبعض الآخر يخط قصبغا أو يرفع جوارب أو يرتق جلابة.  
والملاحظ، أن مهنة الخياطة في القرى المغربية وفي الريف، محفزة من طرف الطلبة. وهو  
صل جميل يضاف إلى مهام أخرى ، كحضور الجنازات وصنع الأحذية. ولا يقتلي سكان  
القرية بإطعام الطاب وإيواءه وتزويده باللباس، بل يلقه بكل أصال الخياطة التي يحتاج إليها  
أفراد الأسرة ويمنحه أجرا وبعض الهدايا مقابل ذلك.

ويتمي كل الطلبة الخياطين بقلية، إلى قبيلة صغيرة الجبلية وبالمقابل فإن الطلبة القسيسين  
لا يمارسون هذه المهنة، بل إنهم يكرهون. خارج ساعات الدراسة، على الرمال أو يمشون  
أباهم في أشغال الحقول.

وطبعا، فإن الدرويش سيستقبل من طرف الطلبة المهتمين فقط بمعرفة القبيلة التي  
سجلوا فيها بطونهم بشكل جيد. وسيقدم العشاء المكون من البصل والسمك والبيض المسلووق  
والزبدة والقمح. ويستحق خبز الشعير وحده، وقلة خلسة بسبب حجمه الذي يساوي ذراعا،  
طولا وعرضا، والذي يسميه القسيسون أنيكول Aneugoul . وهو يذكل بالبيض المطبوخ بالزيت  
والقوم الذي يضاف إليه القليل القليل. وفي كل منزل يستهلك الشاي الشديد الحلاوة بكثرة  
ويرتشف الطلبة في المساجد كمية كبيرة منه.

وبعد استراحة دامت يومين أو ثلاثة، غادر الدرويش أساور متجهولا عبر القرى التي يقضي بها ليلاته وملاشفا بأناء، هذه القبيلة الهلالية والرائحة في رمي كل إسباني ملوية في البحر.

وتتبع القبيلة على مسافة 20 كيلومتر من الشمال إلى الجنوب و 40 كيلومترا من الشرق إلى الغرب. وتحتوي على سبعة قبائل وهي: بني شوكر ( أبناء الشكر)، ( القبيلة عربية لمزيخية)، فرخلة ( الصغرى)، ( القبيلة عربية لمزيخية)، بني بوغمرن ( أبناء أصحاب المراق)، ( القبيلة عربية لمزيخية)، بني بوغمر ( أبناء الطوم)، ( القبيلة عربية لمزيخية)، بني سيدال ( أبناء الحواجز) ( القبيلة عربية لمزيخية)، بني بوبورور ( أبناء صاحب الخراف والجداء ( تحويل الكلمة العربية فرور)، مزوجا ( قمة الجبل الصمكة) ( القبيلة عربية لمزيخية).

ويظهر قسم بني شوكر من أكبر الأقسام مساحة وأكثرها سكانا. كما أن الأراضي في هذا قسم، أكثر خصوبة وأشجارا وأشجارا سنيا. ويساهم ود بني شوكر الذي يصب في البحر قرب ملوية تحت اسم ود فرخلة، في الحفاظ على الخضرة القليلة الموجودة بهذه الأرض الصغيرة المعذبة إلى حد ما، وذلك بفضل المنابع المائية التي تغذي مجراه. وتكثر مزوجا بدون منزع، تفرع القنملي الأخير للقرات ( الفاريت) الذي يمتد عبره خط من الأراضي القلطة والعلية، باتجاه الغرب حتى البحيرة المائية أبو عرافة. وإذا ما استقلنا بني شوكر الذين نجد لديهم بعض القبائل الصغيرة المتوجة قسم وجبات الجبال، فإن الأقسام الأخرى محرومة من الخضرة، إذ أن ثلثها جرداء متكلفة بفعل مياه المطر ومتكلفة بتأثير أشعة الشمس الحارقة. وحدها شجيرة القنم الوحشي تقاوم بنجاح الأرض القلطة والحرارة الملهية للشمس. وهي توجد في كل مكان، حول المنازل والقرى، حيث تنمو في أماكن لا يصلها الإنسان، وتقدم للجميع وخصوصا للفراء، لماكيتها الحمراء الطوة والشفافة. ففي كل المناطق الفيرة بشمال إفريقيا، نجد علاقات بأكلها تستلم للكسل وتؤدي الجوع، مائلة بطونها على مدى شهور عديدة بالقنم الوحشي. غير أن المصطون من كل الأزمنة والأمكنة لم يحترموا قوت الفير هذا، إذ أن الضرورات المزعومة للدفاع والهجوم، أدت إلى مسح غابات كاملة من الصبار. وهذه كارثة لا تعرض خطأ سياسي شنيع وقسوة مجافية، تجعل غالبية السكان الجائعين، يشعرون لمدة طويلة، بالحد تجاه القاتلين.

وبفضل القلعون بناء مساكنهم فوق الأماكن المائية، لكي يطلوا على الأراضي المحيطة بهم. وتتضمن أغلب قتال قرى عديدة، منها ما هو مطلق بقصها ومنها ما هو موجود بمنحدراتها. ولا تتوفر المساجد على صواعق، وهي تتميز عن المنازل بالعلم الأبيض المعروف فوق عمود تم تثليته وسط ساحة بيت الله.



إن مجاورة أراضي قلعية للقلع، أدت إلى عدم خصوبتها، وكلما ساحت القرصنة  
لأمازيغي المنطقة بتحدى هذا الوحش الصحراوي الذي يبتلع كل شيء، فإنهم يقومون بذلك.  
لهذا، فإن المرء يندعش عند رؤية حقول القشعر وبساتين الخضار، فوق أراضي كانت منذ قرون  
خلت، عبارة عن صحاري، ولربما كانت مغمورة بمياه البحر الأبيض المتوسط.

وبالفعل، فإن شيوخ قلعية يقدمون تقديرا لتكون الأراضي المنبسطة التي تحيط بجبلهم  
من مصب واد الكرت إلى مرسى مزوجا، جاعلة الأماكن العالية في الوسط، فهم يحكون بأنه في  
الأزمان السحيقة، كان البحر يغمر كل السهول، مستقيما لهم جبال الوسط التي كانت عبارة عن  
جزر متناثرة وسط المياه. وكان الإسبان قد سيطروا في هذا الزمن السحيق على هذه الجزر قبل  
مجيء الريفين أنفسهم. ثم بعد ذلك، انحصرت مياه البحر إلى حدود مليلية تاركة وراءها، على  
السهول، أرضا مالحة عند سطح جبل بني شوكر. هكذا تشكلت حارث، هي بحيرة بوعرف المسماة  
أيضا بحر مزوجا أو سيغة بوعسرون (بحيرة بوعسرون المالحة). ولا يمكنها أن تفرغ من مياهها  
الآن، لأن أعمالها توجد تحت مستوى البحر. وفي القديم، كانت هناك مساحة أرضية شاسعة، هي  
بمثابة محبر، تفصل البحيرة عن البحر. وقد استقرت فوقها عائلات بأكملها، منها، من يسكن تحت  
الخيام، ومنها من يحوش داخل المنازل بقرى صغيرة، وكان الجميع يشتغل بمشآت الملح الذي  
يصدر ويباع إلى القبائل الريفية الأخرى، كما كان الجميع يمارس الصيد في مياه البحيرة المليئة  
بالسمك. ولم ينته أحد إلى أن البحر يفوق تدريجيا تلك الأرض المتواجدة بين البحيرة والبحر.

وفي إحدى الليالي، وكان ذلك منذ خمس أو ست سنوات، وقع أول قتلح لمياه البحر،  
تحت بروق ورعود العاصفة. فقد اندفع البحر بأواجه القاتلة صوب الأرض المحاصرة بينه  
وبين البحيرة، مما أدخل الرعب في قلوب هؤلاء المساكين المشغلين بالملح وجرأت المياه  
للرجال والنساء والأطفال والمواشي، مثل فئات من العشب وقلعت الخيام وتلاصحت بها فوق  
الموج، حيث انتشرت كأحزمة من الصوف الأسود أو كجداريات قلعة فوق هذه المنصات  
المتحركة. وقد غرقت من جراء ذلك ثلاثة نولوير كانت هي الأقرب إلى البحر. وظل منسوب  
المياه يتصاعد مدة أربعة أيام وليالي مما أدى بالأمواج إلى قتلح البحيرة التي سيرتفع منسوب  
مياهها فجأة بعدة أمتار، مدمرة كل ما يوجد على ضفافها من مساكن ومشآت للملح.

هكذا، سخطت الأرض التي كانت موجودة بين البحيرة والبحر وسقطت تحت الماء مدة  
سنتين. لكن، منذ حوالي ثلاث أو أربع سنوات، بدأت هذه الأرض تظهر من جديد، بفعل تراجع  
البحر. وقد أصبح المكان صالحا الآن للمرور وعملت قوافل كبدقة وطريقة إلى استعمال طريق  
مليلية القديمة التي تجنبهم بدورة كبيرة حول السبخة. ومثل كل الأسماء العربية والأمازيغية

بالمغرب، فإن اسم هذه الأخيرة قد شوه من طرف الأوروبيين. ولهذا قسمت أعلاه، التسميات الثلاث التي اشتهرت بها البحيرة. وأشهرها هي سبعة بوعرف لأن الملح يحيط بها من كل جانب.

وقد حصلت الدرويش مغمورة صغيرة بالمعبر الضيق الذي يفصل البحر الأبيض المتوسط عن بحيرة بوعرف، إذ كان معها نحو سوقي الأحد بمزوجة رفقة طالب من القوية، وكذا قد غادرا رفقة معا، ويسيران بطمأنينة على شاطئ البحر. وعند نقطة يلتقي فيها هذا الأخير مع البحيرة القريبة، وجدا رجلا ممددا على بطنه. وكلفت جلابته نظيفة وحول عنقه كانت هناك مسبحة وبجانبه جبة مقلدة بالخرطوش وبالقرب منه بندقيته. وكلفت كل المظاهر تشير إلى أن الرجل نائم أو أنه تعرض لضربة شمس. ولأنهما كلما ككل المذارية، حزين من هذا الغريب لهما اختبا بحفرة موجودة على تلة. وشرعا في مخاطبة الشخص من بعيد. لكنهما لم يلتقا أي جواب ولم تصدر عن الرجل أية حركة. لذلك، سيقتربان منه ويخاطبانه بصوت عال بل ويسجلان على رعيه بالعصى، حيث أصابا الهدف مرتين أو ثلاث مرات. لكن الأمازيغي لم يحرك ساكنا. ومن المؤكد أن الرجل كان ميتا. وهذا من حسن حظ الطالعين. فهناك بندقية ولباس وربما ذهب أيضا. وكان من القزم الاقتراب من الرجل للتأكد من كل ذلك. ولأن الدرويش غير جريء بطبعه، فقد تقدم مرتعدا وهو يمشي فوق الرمال المغطاة بالدماء وشارك صديقه في تفكيش الميت وسبغ بعض كل الصلابة المعروفة لدى الريفيين، من القسوة وغطاء رأس وأحذية؛ لكنهما لم يجدوا ولو سقيما واحدا. وربما سبقهم آخرون وقاموا بنفس العملية التي يقومون بها الآن. ولأن القلمي لم يجد مالا فقد قرر نزع ملابس الميت. غير أن الدرويش اعترض على ذلك، مستكبرا كيف سمحت له نفسه بتجريد ميت من ملابسه. فالأمر لا يطلق! وإذا كان من المجاز أخذ البندقية والخرطوش، فإنه لا يجوز مس باقي الأشياء. وعندما بانر بحمل البندقية الجديدة من صنع إسباني، وفي الوقت الذي كان فيه مراقبه يقاب الجثة تلك حزام الخرطوش، سمعا أصواتا آتية من بعد، فتركا كل شيء ملتفتين صوب مصدر الصوت. وكان هناك حوالي عشرين رجلا قادمين من الشرق وربما من كبدالة، وكانوا يمشون بمحاذاة الشاطئ ويتحدثون بجمام مسكين بنادقهم بخطر. ولأن الدرويش ورفيقه المرعوبين معا، اعتقدا بأن هؤلاء الأشخاص سيتهملونهما بقتل الرجل، فقد ظلا واقفين بدون حراك، متخفين وضعية ذليلة، في انتظار ما سحدث. واقترب الأشخاص منهما، وبمنظرة سريعة أدركوا بأن الرجلين طالعين مسلمان. هكذا، مسمعون عليهما وسيلانر محمد والقلمي بالإجابة بأدب على الأسئلة المطروحة، مع المبطفة في إظهار علامات الاحترام. بيد أن الأشخاص الغرباء لم يحروا ذلك أي اهتمام وتهجروا صوب الجثة التي تعرفوا

عليها، صلتحين بذهاب: " لقد اعتال الكهيون ابن قبيقتا حذو. لكن سجدون ! إليهم يريدون منعنا من الوصول إلى مابلية. صفنا ! إنا نعرف ما سلفته ! " وإثر ذلك، رغبوا حذو المسكين . كاشفين عن صدره الذي اغترقه الرصاص ومزقه من كل الجهات. وريخوا بحزن: " أيها القحوس، ألم تجد بيتنا ولو شخصا ولحدا يرافقك في الطريق، عندما ذهبت وحكك لولاء، عابرا أرض الأعداء؟ وما نحن الآن عرضة لسفيرة كل أوغد قلعة ؟ "

وحملوا الجثة على ظهر البطة التي جلبوها معهم. وبعد أن ربطوها جيداً بحبال الخلفة وأخذوا بتنظيف الميت، خاطبوا الطائفتين قائلين: " نحن من كيدانة، رافقونا لتكروا بعض الآيات القرآنية على أيها المسكين، أثناء السير. " غير أن مصدا ومرافقه سيكتزان، مبرزين موقفهما بضرورة التحليهما دون تكبر، بموق الأحد بمزوجا. وذهب الكهنيون إلى حال سيولهم، أما الصديقان فكانا الصحاء واستمرا في السير بمحاذاة البحيرة فرحين بأن ما أصابهما من هذه المناسرة، هو شيء من الخوف فقط.

إن بحيرة بو عرف هي عبارة عن طبقة مائية طولها 12 كيلومترا وعرضها 7 لو 8 كيلومتر. وتشاطئي من حولها عار، حيث تكتشف العين شطا شامسا منحدرًا بعض الشيء، رماله ذهبية ولامعة، ذات انعكاس متلني. وقد تمكنت بعض الطيقات القصيرة والأدغال الصغيرة ونبتة المستنقعات بتثبيت جذورها في هذا " القفص " الأسفر الذي تحركه أدنى هبة ريح. وتوجد به آلاف المحارات والقواقع الوحيدة الصمام المعلقة بشكل حلزوني والمعتجة بالزبد ( Os de seiche ou sepie ) . وكلها شاهدة على الغزو الأخير لمياه البحر. والسبعة عميلة في الوسط وأحيانا ما تقوم العواصف برفع أمواج قصيرة ترتطم بالشاطئي. كما أن رياح الشتاء تكفع مياه المتوسط في بعض الجهات، فتصل إلى البحيرة، مانعة بذلك كل حركة على البحر المتولد بينهما. وفي أقصى جنوب بو عرف توجد كتلة عاتلة من الملح الخام في حجم جبل، تملح ثروتها لكل من يريد أن يستغلها. وقد كثرت في هذه البحيرة وما زالت تثلثني إلى حد الآن، وسامت بشاطئها كل القلعين الذين رأوها والذين كان بإمكانهم إسقاطي معلومات حولها. وإذا ما كنت لتراضيتهم مسبوحة، فإنه لا أحد غامر سباحة أو على ظهر مركب، فوق مياه بو عرف اللامعة والتي وإن كانت غير صوفية قرب الشاطئي، إلا أنها تشكل في الوسط حوضا يصل عمقه ما بين 15 و 20 مترا.<sup>45</sup>

<sup>45</sup> - إن الحديث المولم الذي رواه لي شاهد حياز قلبي هذه الأيام، هو خير برهان على حق السبعة. ففي حرب مابلية الأخيرة وجد فارس يسقي نفسه معزولا عن كتتيته ومحاسرا من طرف الأمازيغيين قبالة البحيرة. ولأنه لم يجد لأي منفذ عدا السطح الهادئ ليو حرق، فإنه اندفع باتجاهه مستغلا بأن مواحه ليست صوفية.

ويمكن قرب البحيرة من البحر أن يجعل منها مستنقلا مياها طيبيا رائعا لو بيزرت  
لغرى، لكنها أكبر بخمسين مرة من الميناء الجزائري، حيث يمكنها أن تكون مرسى لمدة لساعات  
لسفن الكبيرة.

وقد اعتبر محمد ومرافقه بأنه من الحكمة عدم الاقتراب من كهفاته، لذلك طافا حول  
السبخة ولحرا قضاء الليل بسوق الجمعة في أقصى الشمال الغربي من بوعرف. ويسمى هذا  
السوق ثائرة سوق مزوجا وثائرة لغرى سوق الجمعة. وهو مركز عالم للمعاملات التجارية يقع  
بالقرب من قرب البحيرة وسط القليلة إن صح التعبير. ويوجد السوق خارج القرية، ويمكن التعرف  
عليه بفضل قبة صغيرة تحمي خزنة بئر margelle. ويأتي آلاف الزبائن إلى سوق الجمعة من  
مناطق نائية أحيانا، حاملين منتوجاتهم معهم. كما تكثر البضائع الإسبانية التي تم جلبها من مليلية،  
مثل السكر والشاي والخرطوشات والبنادق والبرود والشموع والمصابيح الكهربائية ( يسمى  
الزبائن البترول بالغاز ويستخدمونه للإضاءة) والسكاكين والكلاوس والقفنجات. أما منتوجات البلد  
فهي تبرز من خلال ركاب هائل من الألبسة الجديدة أو القديمة المعروضة للبيع وجبال من  
الصوف والعديد من الأغنام والأبقار والصيود والخيول والقطيل من الجبال. وبالقرب، يمرض  
الكثير من الخضار والفنن والزيت والزبيب والقطاني والحبوب. كما يقدم الجزائريون بالهواء  
الطليق، شرائح من لحم البقر والظن، محمولة على ثلاث عصي مشدودة من فوق بحبل ومثبتة  
على الأرض. وعلى عكس ما هو مألوف في شمال غرب الأخرى، فإن النساء اللواتي يتجولن  
بحرية في الأسواق ويتاجرن ويشترين ما يحظن إليه ويتجولن سكرات الوجوه بمشية حزمة.  
وهن يحتكرن بيع البيض والدجاج والطاسات المصنوعة من الطين ( الزلايف) - وهذه صناعة  
محلية - وصحون الخزف المستوردة من إسبانيا والقدور والموائد الطينية المصنوعة بالقبيلة.  
ويضع تجار الأكواب والأدوية معروضاتهم تحت خيام من الكتان أو بدائل بيوت صغيرة مبنية  
بالحجر الهامس. وتحيط هذه الخيام والبيوت الصغيرة بالسوق مكونة دائرة شبه كاملة.

وسلف الزبائن مشوهين لمتعة المشاة التي سطح أمام أعينهم، غير مصمون على إلهاء هذا الرجل  
برخصة الرحمة وهو الذي سموت بعد قليل. ولأن الإسباني اعتد بأنه تخلص من أعدائه الزهين فإنه استمر في  
دفع جوفه إلى الأمام، طالما بأن الماء وصل إلى قسرج مما أدى إلى وقوع المصن. وهنا برز الحيل منظر مؤثر.  
فيلما كان القارس المنحرج بالسلاح يثبت بقوة بحرف المصن، تلكميا للفرق في البلوغ كان الحيوان يفتلي داخل  
الماء بليل الصل الثقيل، ومعه القارس. وكان الأساريون واليهود ومغربيون واثنين أمام رعب المشهد، متراخين  
الحل القهلي. وبعد ثوان محدودة ظهر الفريقان. وبرز القارس وهو يحيط رغبة الحصان في حلق يأس. ثم خرجت  
الكلبة من جديد، تاركة على سطح المياه بعض القموجات التي وصلت على القنطرة قرب أرجل الزبائن الصائدين.  
وبعد يومين، ستلقى البحيرة بالجثتين على رمال القنطرة. وكان القارس ما يزال متكئا برغبة حاصلة.

ويمكننا أن نكون فكرة عن قيمة كل هذه المتوجات من خلال الأكمة التالية؛ دجاجة: 50 سنتيما، البيض: نفس القيمة الواحدة وهذا اثنين بأعط إلى حد ما، نظرا لتواجد فرسان السمزن واليهود الذين يستهلكونه بكثرة. خروف جيد: 5 فرنكات؛ بقرة حلب جيدة: 50 فرنكا؛ بنتينة إسبانية 50 فرنكا، قلب السكر من أربعة أرطال : فرنك وخمسون سنتيما. وإجمالا فإن الأكمة تكبر أكثر ارتفاعا مما هو عليه الشأن في قبائل الريف الأخرى. ولعل السبب في هذا الفناء هو العالوف، يرجع إلى وجود الجمالرك السلطانية قرب مليلية وإلى بيع المتوجات سوريا إلى الإسبان وتواجد المشاة السمزنين بمليلية سلوان والذين يتلون بانتظام للتخضع من سوى مزوجا. وليس هناك مكان أفضل من سوق الجمعة لملاحظة مماليك الجنسين من القبيلة. فالرجل يرتدي جلبانة ذات خطوط بيضاء وسوداء في فصل الشتاء ويطلق رأسه عن آخره ويخلطه كلفة تقريبا بـ " شائبة " حمراء، تحيط بها من القاعدة عصاة قطنية. وفي الصيف يعض الحائك الجلبانة. إن القمعي يتجول طيلة اليوم، حافي القدمين، متوشحا ببنتيته وقد وضع جعبة الخرطوشات حول حزامه؛ ويتجانب أطراف الحديث بكثرة مع الآخرين ويشرب الشاي ولا يشترى إلا الشيء القليل. كما أنه يستطلع الأخبار من إخوانه في القبلة، القاصدين من القبائل الأخرى أو من الجزائر أو من إسبانيا.

أما المرأة، فإنها ترتدي ملابس كثيفة من الصوف وتمشي عارية لرأس حيث يسمع رنين خلاخلها وأسلورها. ويمرر على صدرها عقدان أو ثلاث وقد تم تزويجهما بنقود فضية أو نحاسية. وللأسف، لا نرى سوى النساء اللواتي تقدم بهن العمر واللواتي لم يجد جملهن القليل يثير فرغبات. أما النساء الجميلات جدا، فيمكن في المنزل حبيسات جنرقه، بنفس الصرامة التي تحبس بها المسلمات في المدن الجزائرية.

وكان موضوع الحديث الفرنسي ذلك اليوم في السوق، هو قتل الكبداني الذي وجدته الدرويش بمعبر بوعرف. فقد كان هذا القميص قائما من مليلية التي غادرها ومعه خمسة بغال محملة بالبنادق الإسبانية والخرطوشات والسكر والشاي والبتروول ( الفاز ). وقد اعتقد بأن أحدا لن يراه إذا ما سافر لهما. لكنه كان متبوعا بخمسة قطاع طرق من القبلة، أوقفوه بأضيق مكان بالمعبر لتالين:

- ترك لنا القبائل واتج بجلدك وإلا قتلك.

- ولجلهم الكبداني وهو يستد البنداقية على كتفه: كلا، وسأقتلكم لو قتني حتى.

وشرع في إطلاق النار لكنه لم يصب أحد منهم؛ لما كان على القصوص إلا أن يصعدوا على القور وأخذوا معهم البنادق وتركوا ضعتهم قرب بندقيته التي لم يحملوها معهم، خشية اقتضاح أسلحتهم بسبب الملاحظات الخاصة التي وضعها أمازيغيو الزيف على أسلحتهم.

وقد عرف الجناة قريبا. لكن لم يفكر أحدا في إلقاء القبض عليهم، بما في ذلك القائد نفسه. أولسا في باد الخيرات الذي ينهشه قتلة والقصوص والأوغاد في الأسواق السبعة لقمعة بصوح "فرايون" على القول: "لنحفظ التجار الغريباء والمتعاملون معنا بالسلام والأمن" وهي المعاملة المتبعة في كل المراكز التجارية بالمغرب، وإن كان كل واحد منهم هذا الالتزام المزعوم بطريقة. من جهة أخرى، سيعلم "البراج" بأن عيوبنا قائمة ستطبق على الإخوة المزيغين الذين قد يفرهم بيع الحبوب والقطاني لإسباني مليلية.

وبشكل عام، يتم الالتزام بهذه التوصية، لأن الحقد الدفين تجاه "الرومي" والخوف من التخريب الوحشي الذي تؤدي إليه خيانة من هذا النوع، يدفعان كل من يريد إعطاء الأولوية لمصلحته على حب الوطن، إلى التفكير قبل الإقدام على فعلته.

وتتوزع الأسواق لقمعة على الشكل التالي:

- 1 - سوق الجمعة بمزوجا؛
- 2 - سوق الأحد بمزوجا وبزغنة؛
- 3 - سوق الخميس ببني بويغرا؛
- 4 - سوق الثلاثاء ببني بوعاقر؛
- 5 و 6 - سوق الثلاثاء وسوق الأربعاء ببني شيكو وسط القبيلة؛
- 7 - سوق الإثنين بفرخانة، غير بعيد عن مليلية.

وهذه هي القبيلة الوحيدة بالريف التي قبلت وجود الجنود الممزرين؛ حيث يسكن فرسان الحكوم ووكلاء الجمارك المنطقة، بدار الممزن قبالة مليلية. ومهمة رئيس الفرقة الممزرية ليست إدارية، بل تتمثل في منع الأمازيغيين من مهاجمة الإسبانين. ويحمل القائد الممزيون العميون من طرف السلطان على اقتطاع الضرائب وخصوصا ضريبة الحرب، من القميين الساكنين الذين ترمق جيوبهم، كلما قاموا بهجوم على مليلية. ولا توجد بالقبيلة سلطة قضائية ولا إدارية؛ بل يسمح للزيغين بالاقتتال فيما بينهم ويضرب بعضهم بعضا وبالسيف، لذلك شأنهم، المهم ألا يهاجموا السجن القشتالي. وذلك ما يطلبه السلطان الذي كان يريد العيش بسلام مع إسبانيا.

وهناك حوالي 500 فارس نظامي كومي بقصبة قرخانة وألف من العشرة بقصبة بوعرو.  
 المسماة أيضا بقصبة سلون. وهؤلاء الجنود الحفاة بملابس مرقعة، ليس لهم أي عمل؛ فهم لا  
 يقومون بمنورات أو بتكاريب، بل يقضون أوقاتهم في رثق أسلحتهم ولا يتحركون إلا للذهب  
 الأهلي أو لتفويض أولامر رؤسائهم وأولامر الخواص الذين يرشونهم. وكجنود حقيقين فإنهم  
 يترهبون بالشخص العابر الذي يعتقدون بأنه يحمل الذهب. وبعد نهبه، يقتسمون الغنيمة مع قائد  
 الحامية ولرؤسا جوشه. وقد كرر القتلون على مسلمي في كثير من الأحيان، بأن جنود السلطان  
 هم سبب الهلاك الذي يحصل بقيلتهم. فهؤلاء الجنود يعيشون بالبلد ويقتطعون كل سنة، جزءا  
 كبيرا من المحاصيل الزراعية ومن المواشي. ورغم جشع موظفي الضرائب والجيش، فإن ظلي  
 النسبي لبعض الأسر، يسمح لها بالبقاء بالبلد وعدم الذهاب إلى هيران بحثا عن عمل. ومع ذلك،  
 فإن غالبية الأسر تبحث إينا بفرد أو فردين منها للاشتغال حيث يرجع هؤلاء العمال إلى منازلهم  
 وقد كسبوا قدرا هائلا من المال. يكفي للسماح لهم بالجيش عدة شهور دون أن يفلتوا شيئا.

وإذا ما كان الإسباني معقوتا، فإن السلطان ليس أحسن حالا منه، لأن أجداده متهمون ببيع  
 سجون الشاطئ الريفي للصلاري. وتحكي الأسطورة أنه منذ فرون خلت، وعندما سلم  
 الإمبراطور الخائن مدينة مليلية إلى الكفار، انسحب سكان القرى الخمس الواقعة في محيط  
 المدينة، أمام القوتين الجدد؛ بل إن أهالي قريرتين من هاته قرى سيحطون على السلطان  
 وسيهاجرون إلى سبتة حيث سيحظون بحسن الاستقبال من طرف الإسبان الذين سيحشون معهم  
 في ود وانسجام، إلى يومنا هذا. ولم يؤثر الضباب والبرد في لباسهم الأصلي. كما أن لغة  
 تلمازيغت الأصلية التي يتكلمها إخوانهم في الريف، ما زالت متداولة وسط هذه العلاقات المهمة  
 التي يتحضر المرادها دوما على الوطن المفقود. وبسهولة التعرف في سبتة، على قلمي الصغير الذي  
 يقطونه، كما يستخدم المسجد البسيط لهذا القمي، لتقامتهم ولتعليم أبنائهم. والحقيقة، يجب أن  
 نضيف بأن السلطان قدم لهؤلاء الأبطال تعويضا عن الأراضي التي سلمها للأجانب، مما سمح  
 لهم بشراء مساكن يقطونها حاليا بالمدينة الإسبانية.

ويسمى الريفيون مليلية : ثميريرت، أما بالعربية فتطلق كما هي: مليلية. وتعني ثميريرت  
 بالأمازيغية المكان الذي يتم فيه اللقاء. وهو إسم الفعل الريفي emrir ( التقى ) والذي يصبح  
 melil عند الزولوا، حيث تتحول اللام إلى راء في اللغة القلمية وذلك طبقا للقواعد الصوتية  
 الثابتة لهذه اللغة. ويحول التمسلمانيون اللام إلى دج : dj مثل: idjdji ( الفتاة ). أما بني  
 ورياغل فيحولونها إلى دال ، مثلا: iddi ( الفتاة ). وعندما يحدد أهالي قلمية موعدا بمليلية فإنهم  
 يقولون annemir ■ themrirth ( سلتقي بتمريرت أي بمليلية ). وأحيانا يشار إلى المدينة

بهذين اللفظين وهما: jnada ( مسكر)، من الجذر العربي جند، و Er-mjahden ( المجاهدون).

وتعتبر مليلية مركزا تجاريا هاما بالنسبة للربيعين، ولا يمنع الفصول إليها إلا على الأهالي المسلمين. لذلك لا يلتقي بشوارعها إلا بالمسلمين الذين لا يحملون بنادق ولا خناجر. وعند حلول الليل تسد المدينة أبوابها. لذلك يحول الأمازيغيون إنباء كل مشترياتهم خلال النهار للرجوع إلى منازلهم قبل غروب الشمس، إذ من الخطورة بمكان، عبور الزيف في الظلام. ويشتكي الأمازيغيون والعرب من السلوكات الجافة والقسوة لأسباب المدينة. فالإسبانيون من الطبقة الدنيا يضطرون بكثرة. وعندما يبرون بالقرب من أعتاقهم المسلمين، يصرون عن قصد بصرطات قوية وسط الشارع. تسم الجو وتزكم الأنوف بروائحها الكريهة، وهو ما يهبط الريفي الذي يمقت هذا الدوي المقلز.

ومن جهته، فإن محمدا لم تفته زيارة مليلية، ولأنه دخل المدينة بدون نفود، فإنه سفلجا عندما حان وقت الغذاء. بعدم وجود أي مسجد يستضاف فيه ويتم بداخله إسكات صاصلير بطنه الجائع. لذلك اضطر أبيع مظلة صغيرة بلبسين لإسباني، وكان يستخدمها للتكبير على أهالي القبائل وإدعائهم، بحيث كانوا يعتبرون هذا الشخص المجنوب، مختلفا عن غيره بسبب أطواره الغربية. وقد ساعدته قطعة الخبز الإسباني المستدير والتي سبلتھما أثناء سيره، على التخفيف من جوعه. وكلفت تلك أول مرة يشتري فيها شيئا بالمغرب.

وقد أكد لي بأنه نسي أثناء مقامه الطويل بالمساجد الشريفة، هذه الكلمة العملة وهي: الشري (بالعربية) وساغ ( بالأمازيغية)، غير أن مدينة أوروبية تكلفت بتكبيره بها.

وغير بعيد عن مليلية، يبرز فوق تل، قبر الولي الصالح لقمية، سيدي ورياش.<sup>40</sup> ويتعلق الأمر بشخصية شعبية من القرن السابع الهجري، أسسه من أولاد ورياش المقيمين بنواحي مبدو. وقد تميز هذا الولي الشاب ملاذ لعممة أطفاله، بصلاحه وتقواه وكرمه لكل ما هو غير إسلامي. وعاش كزاهد يحرر النواوير والبولادي والقرى، حيث كان يحظى باستقبال حماسي من طرف الأهالي المتمصين والمصحين نوما بالأولياء، سواء كانوا حقيقين أم مزيفين. وما أن بلغ سن العشرين حتى اجتاز المضيق لوجد نفسه وسط المورسكيين الإسبان، وقد نامض الاحتلال الخلفي العام لهؤلاء المسلمين الذين تشبهوا بالحضارة الغربية وتعودوا على رخاء العيش. ولأن أمدا لم

<sup>40</sup> - ورياش هي كلمة عربية تترجم وتعني ذلك الذي يقوم بتأخرات بالقد والمطبخ للقاء على شخص. وهي مشتقة من القبل العربي ريش أو رش ( العربية المغربية الجزائرية). ملحوظة المترجم: ربما قصد الكاتب لعل لعل.



يعره أي اهتمام فإنه سيعود إلى منطقة، قبل أن يلزوي وسط الريف، ذلك المعسكر المحصن ضد كل الهجمات. واستقبل بالتهليل في كل مكان، غير أن أهالي القبة كانوا أكثر اعتقاداً به، لذلك اختار هذه القبيلة وبنى لنفسه صومعة سيطر فيها عن قنوقته. وهذه الصومعة هي التي ستصبح فيما بعد. وبمستقاء الكرامات المتعددة التي تلمحها الأساطير إليه، وهي كرامات مماثلة لما نجده عند مدعي المعجزات thaumaturges في كل الأديان، فإذني لم أتمكن من جمع معلومات أخرى عن هذا المتعصب الغريب الذي يصحب كتابة سيرة حياته.

ويبدو أن بعض الجنود الإسبانيين نسوا خبره سنة 1893، وقد أكد العديد من الريفيين أن هؤلاء الجنود جازوا للبحث عن الماء بمنبع سيدي وريثش. فتجراً أدهم وتبول لدخل المزارع عبر شقوق الباب.

وكان ذلك انتهاكاً سيخاف من خطورته كون الماء الذي يخرق من أراضي القبة دون ترخيص، كان يستخدم لصنع الملاط الذي تستعمله إسبانيا لتشييد حصنها الجديد، قبلة سيدي وريثش على أرض متلحاح عليها، وفي تلك اليوم، دوت رصاصات الريفيين في أجواء المنطقة. ونحن نعرف أحداث مليلية ونعرف الصعوبة التي واجهتها الحكومة الإسبانية لنحر هذا الشعب الصغير الذي كان يقاتل من أجل دينه وبيته بدون مدافع ولا خطط حربية، حيث يصارع كل واحد على طريقة أبطال هوميروس غير خاضع لأي رئيس وراغباً مهما كان الثمن في نحر الكافر أو كسب شهادة، وتوجد في حملة مليلية هاته خبايا هامة، إلا أن التاريخ التقدها إلى الأبد، ولست متوفراً في الوضعية الحالية، على الوثائق الكافية لتوضيح أصناف هذه المأساة الريفية، وسأكتفي بذكر ملحمة بطولية لا تصدق، قام بها ثلاثة قساوين سباحة، وسط ظلام الليل.

فلما بضعة أيام، كانت سفينة حربية قشتالية ترسو على بعد كيلومترين من الشاطئ، وكانت تنذر حق الأهالي بإرسالها كل مساء، لأتوار كهربائية على المنطقة. وما أن يسلط الضوء على مكان تولد المجموعات حتى تنبهم القاذف المدافع. وفي البداية لم يتحرك الريفيون الذين كانوا غير واعين بالخطر، وكانوا يهزؤون وتصدر عنهم إشارات عديمة الإحترام تجاه العاكس المشع والذي كان يسمى عندهم بالمصباح الكبير (الفنار). غير أن موت بعض إخوانهم الذين حصنتهم القاذف الرهيبة، جعلتهم مقتنعين بأنه لا مجال للسخرية من هذا الابتكار الحديث للمصباح الكهربائي. هكذا، سيقفون اجتماعاً فيما بينهم للتشاور، متسلقين صفاً يمكن لطفه لتعطيم هذا المصباح المتطفل. وتقدم ثلاثة سباحين ليويا، مقترحين الذهاب سباحة إلى السفينة لإتلاف المصباح. وتمت مباركة خطورة هؤلاء المجاهدين ورفقت لكف الضراعة إلى الله من أجل سلامتهم. وبالفعل، دخلوا البحر عراة، حاملين معهم بنادقهم الإسبانية وبعض الخرطوشات.

وقد ربطوها على رؤوسهم فوق ركنهم من الأكواب التي وضعت لتجلبب الأسلحة والبارود البالي. واستمروا في السجدة بشجاعة، دون ضجيج تحت ظلال الليل، مقررين تدرجياً من فوحش الذي تقتصب كفتته السوداء على صفحة بحر عادي تماماً. وعلى ما يبدو فإن جميع بحارة السفينة كانوا قد دخلوا إلى القوم، باستثناء ضابطين أو ثلاثة ضباط، كانوا متواجدين قرب الماكس يرسلون من خلاله أعضاء منيرة على كل الجهات. ونجح السباحون في نسق سلاسل المرساة، انزلوا على ظهر السفينة. وفجأة سمع دوي ثلاث طلقات في صمت الليل، كانت لنتيجته تحطيم الماكس وإصابة ضابطين بجروح خطيرة. وكفز الزيفيون مجدداً إلى البحر، عاكفين بسرعة على النشاط. وكان الانكسار على أشده فوق السفينة ولم يخطر ببال أحد إزاح الزوارق لمنظمة هؤلاء الجريين. وتم إطلاق نيران البنادق بشكل عشوائي على سطح الماء، غير أن الأمريكيين الثلاثة، المسميين من طرف الظلمة، سيحصلون سالمين إلى البر. وأترككم لتصورون مقدار الاحترام الذي سيحظى به هؤلاء المقاتلون داخل قبيعتهم، بعد صفتهم حقه.

وإذا ما رجعنا إلى القرويش ، فإن فرحته كانت عارمة، عندما وجد بضريح سيدي وريش حوالي عشرين عدوياً أكثر إثارة للشفقة منه. وأظن بأن هذه الطائفة غير معروفة في الجزائر إذ يبدو أنها متواجدة في المغرب فقط. والهندوي هو جوال متسول، مقبول بفعل الكيف. ويتجول عاري الرأس حاملاً في يده حربة، كما يرتدي بعض الأسماك تخفي حورته بالكاد ويضع مسبحة بطنه ومحفظة صغيرة بجانبه، ملينة بالكيف ويدخلها خليون طيني صغير. وهو يزور مختلف الأولياء ويقفلات من الأطعمة التي يأتي بها قزوار الأوغياء، إلى أبواب الصلحاء بل يقدم نفسه كحارس لهذه الأضرحة، صائماً أحياناً، بعض الطوبقات التي يهديها إلى الجمهور الحاضرا وهو يظل مشدوها باستمرار، بفعل دخان الكيف. إنه باختصار كسول مغرب، يمارس أحقر المهن وهي: طهي الأضرحة.

وفي قرية العصرة بني بويغور، سيلاحظ الأهالي بأن محمداً يتהלون في أداء صلواته، بل لا يتوضأ سواء عند إقامته في الحالات الفائرة على الصلاة أو عند ثلاثته للقرآن وللأحاديث النبوية. لقد كان يقد سكان البلدة ولكن بما أنه كان أجنبياً، فإن هؤلاء السكان سيحتقون بأنه يهودي، وهكذا سيتعرض للشتم وسيتلقى الاهانات ، إلا أنه سيتحملها دون شكوى.

وبعد أن أحياء يتعرض لأذى هؤلاء الهاداء، أعلن في أحد الأيام للفتية وللطلبة عن حزمه على الرحيل. وظن بعض الطلبة بأنه يحمل معه نقوداً، فتبعوه خارج القرية حاملين مسدساتهم معهم. وفجأة اعترضوا طريقه وأمروه بخلع ملابسه. فرد عليهم محمد قائلًا: " لنذهب بعيداً، فلاننا قريبين جداً من الدور السكنية ". وقبل هؤلاء المسئلة الاقتراح، وأثناء السير تمكن الرحلة،

رغم أنه الممتنع عليه من رمي مخطئته بذلك صغير، وكلفت تحوي على حوالي ثلاثين  
 فرنكا كسبها عن طريق صنع الأحذية. ولما رأى هؤلاء الأوغاد بأن المسألة قد بدت ، استمروا  
 بضجيتهم وجردوه من كل أمتعتهم، بحيث لم يتركوا له سوى قميصه القطني ( السكندرية).  
 وككلوا يرغبون في نفقده بالأسلح، ولما لم يجدوها اعتلجوا وطلبوا منه، تحت تهديد مسنلتهم،  
 بأن يظهر لهم أين أنفى مخطئته. وأقسم الدرويش بحق سيدي وريش بأنه من أكثر الناس حوزا،  
 وإثر ذلك أطلق سراحه.

وبقرية القيس التي لها جبالها، منحه الأمالي بعض الألبسة، وبعد أيام كذلك، نقل بخر  
 شحود إلى المكان الذي رمى فيه مخطئته التي سجدتها هناك، سليمة لم يمسسها أحد.

إن اليهود يوجدون بكثرة بقبيلة كاسية، وهم يسكنون بالقرب الصغيرة ويمارسون مختلف  
 الفنون. فهم صنّاعو أحذية وإسكافيون وصانعو ألوفز وصناعة وصانعو كدورا ولا يوجد أي فلاح  
 بينهم. وهم يكترون منازل سكانهم، لأنهم لا يستطيعون امتلاك مسكن لهم، سواء بقعة في  
 خارجها. ويتضمن عقد الإيجار بندا غريبا وهو أن كراء منزل ليهودي، ينوم إلى الأبد، والملك  
 وحده الحق في طرد المكثري الذي لا يمكنه أن يتخطى عن المنزل من لقاء نفسه ولا أن يطلب  
 بأي إصلاح لمسكنه. ولكل يهودي مسلمة الذي يظهر ميلا له.

ويسافر الاسرائيليون القاصون لقضاء أغراضهم، حيث يكون إلى وهران وطنجة وإسبانيا  
 وإلى أي مكان يرغبون في الذهاب إليه؛ وهذا دليل ساطع على تعلقهم بحرية كبيرة. وهم لا  
 يشعرون بالتمساسة ما داموا يرجعون بطمأنينة إلى بيوتهم. ويحترفون بأن الأساتيزيين لا يملكونهم  
 لهذا بسوء. وقد سمح الاتصال القديم القوي، بتهدئة الأحقاد العرقية، مجبرا المسلمين على قبول  
 هؤلاء الرحل العالميين الذين يتكلمون لغتهم ويرتدون نفس زيهم، ولا يتميزون عنهم إلا بخصلات  
 شعرهم الطويلة التي تتماوج بشكل لولبي فوق صدغهم حتى تلك الأسفل.

إن سيدي وريش هو سيد القبيلة لكن هذه الأخيرة تتوفر أيضا على أولياء آخرين مجهلين  
 أيضا. لنذكر فقط من بين أشهرهم: سيدي بوصبر بيلي بويرر، سيدي محمد بن عبد الله بوزجا،  
 سيدي الحاج سعيد بيلي شير.

ولقاء زيارة قبور هؤلاء الأولياء، يندرج الفجاج والأهنام والماعز والأبقار. وهذه  
 الأضحية ليست مقدسة كقربان الأولياء كما نعتقد في أوروبا، إذ أن الأمر يتعلق بصلة من  
 أجل الفقراء، تمنح لوجه الله. وباتني هؤلاء المساكين إلى مثل هذه " الوعدات "، لئلا يطولهم  
 بالكسكس والقمل والطويات ثم يعودون من حيث أتوا وهم على استعداد لمعاودة الكرة من جديد

كلما سحبت الفروسة. ويغشى الأميون، المؤمنون بالثبوت، هؤلاء الأولياء. لذلك تراهم يتضرعون على قولي فور تولدهم بضريحه ويهيمون بالدعوات والفتوحات.

إن الطالب الذي يحوش في الخلق بالقرب من الأضرحة، وهي بنايات مجاورة للمسجد أو للمقبرة، يتكلم مع قولي الصالح ويشعر بنوع من الحميمية تجاهه، معتبرا إياه كقريب عظيم وطيب ومتساهل. لكن يقال بأن الصلحاء ينقمون أحيانا من الإهانات التي يتعرضون لها. وتعتبر الحادثة التي وقعت لمحمد بن الطيب خير دليل على ذلك.

فقد كان الدرويش مقبلا بضريح سيدي بوسبر منذ حوالي شهر يتلقى الدروس ويعرج ويتعارك مع رفاقه الطلبة داخل الضريح ويهري ويصرخ غير أنه بأي شيء. وبلاغتصار، كان يلقبه وأقواله ينتهك حرمة قبر سيد بني بويرر. وفي إحدى الليالي الدقيقة للخريف، خرج ليلتسم الهواء وسط شجيرات قتين الوحشي الكثيرة والمحيطه بقبر قولي. وفجأة أصابه الرعب من جراء أمر غارق لم يكن يتوقعه. فعلى بعد عشرين خطوة وراء ظهره، برز جمل ضخم وبهمة يندفئة، والنفخ باتجاه الدرويش وهو يصرخ بصوت رهيب. ولشدة رعبه، انطلق محمد جاريا كالسهم بين مسالك الشجيرات الشوكية قافزا فوق قبور بني بويرر الذين اختاروا مقبرتهم بالقرب من ضريح ولبيهم. وكان الجمل يطارد الجوال ويصدر أصواتا خشنة متتالية، تشير على أن غضبه قد بلغ حده الأقصى. وأخيرا وبعد أن طاف مئات المرات حول مقاهات شجيرات قتين الوحشي، وجد محمد بن الطيب نفسه. دون أن يدري كيف. أمام مبنى الضريح الذي دخله بسرعة، مطلقا الباب وراءه. وقد كان معظوظا بفعله ذلك. فلو تأخر دقيقة واحدة، لكان الحيوان قد قتلج قد مزقه إربا. وظل الحيوان يقرع الباب الخشبي ببندقيته، وهنا حدثت المعجزة، حيث صدرت عنه كلمة عربية وهي: افتح. وعند سماعه لهذه الكلمة، خر الدرويش أرضا بالقرب من رفاقه وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

وقد أجاب على الأسئلة الموجهة إليه، وهو شلعب اللون، ملطع الأنفاس، مرتد القرائص، قائلا بأنه كان عرضة للمطاردة حتى وصل إلى باب الضريح. وأعلن الطلبة بأنهم لم يروا ولم يسمعوا أحدا، وإثر ذلك نام الدرويش وهو على تلك الحالة من الانكسار. وعند منتصف الليل رأى في المنام، سيدي بوسبر نفسه الذي غلبه بالعربية الخارجة قائلا: " لو كان تعلمو تلعب كما لعبت في القبة، نرميكم إلى تحت الخلق".

ولما بزغ نور الصباح قام محمد من النوم، وعلى غير عادته اغتسل وأدى الصلاة لمدة طويلة. وفي المساء، خرج في نفس توقيت البارحة ونذهب إلى المكان الذي ظهر فيه الحيوان الرعب وبدأ يصرخ بأعلى صوته: " ليها الجمل، أنت الذي طاردتني البارحة، تظهر الآن ...".

ويبدو أن سيدى بوسيد كان قد جدا، لأنه لم يقرر التحول مرة ثانية لتقريب القروش. ولتقاء من تلك اليوم، أصبح هذا الأخير يكن أكبر الاحترام لكل الأولياء والأضرحتهم.

إن المسلمين الأتراك وخصوصا المتطعين منهم، يدرون في ألامهم أشياء عربية. فغلبا ما يترأى لهم أولياء وأقرباء، بل وحتى الرسول محمد (ص) الذي لا ييخل عليهم بنصائحه أو تنبيهاته. ويساهم الإيمان العميق للمسلمين في إثارة خلاياهم الدماغية ويجعلهم في حالة مستديمة من الارتجاج العصبي الذي يتجاوز حدود الإدراك. وسواء كانوا داعمين أو مستيقظين، فإن خيالهم لتشيط بهم إلى مجال الخوارق داخل عوالم رائعة، وفي المناطق الساحرة للعالم الأخرى الذي نقصى منه نحن الأوروبيون، بسبب جفاف الفكر الوضعي والعملية الحديثة، هذا الفكر العملي أكثر من اللازم ربما.

وقد بنت لي مطاردة الجمل أمرا لا يصدق وأردت فتأكد عما إذا لم يكن القروش ضحية حلوسة أو حلم مزعج. وادعش محمد كثيرا من إلحامي وعدم تصديقي متصاعلا: ألا يقوم الأولياء بالمعجزات ولو بعد مماتهم؟

والخلاصة التي توصلت إليها من جراء هذه الرؤيا الغريبة ومن جراء رؤى أخرى حكيت لي من طرف أبحاح الرسول محمد (ص)، هي أن المسلمين وخصوصا الورعين منهم، يتعرضون لهلوسات خاصة والاضطرابات الدماغية مميزة لا علاقة لها بأي شكل من أشكال الجنون. والمثير في حالتهم، هو السور المنتظم والمستمر لهلوساتهم التي لا يحصل فيها لقطاع، بل تظل قائمة لديهم مدى الحياة. فهي قد تولدت لديهم منذ نعومة أظفارهم تحت تأثير اعتقاد قوي جدا وهو: الإيمان الديني! وهي لا تتوقف بالنسبة لغالبية المسلمين (إلا بعد الموت).

وعلى مستوى آخر، يعتبر شرف المرأة بقلية، أمرا بالغ الجدية. وستأكد ذلك من خلال الحكاية التي سأسردها بعد قليل، وقد رواها لي شاهد عيان، وهو طالب ريفي شهم، طرده أحد زوجة أبيه من منزل هذا الأخير. وهو شريف بن شريف، وبفضل زرع كروم للمعمرين الوهرانيين بدل العيش دون عمل، تحت سيطرة المرأة الشريرة التي تكبر كل شيء، وحدها في البيت. وهذا الطالب الذي ألح على عدم ذكر اسمه في هذا الكتاب، علمني لغة تملزجت، وهو معروف لدى القاصيين الذين يقدرونه ويحترمونه كطالب وكشريف.

ويدين له أحد أصدقائي، وهو ضابط صف في البحرية، يحمل حاليا بسفينة الأميرال بودان baudin، ببقائه على قيد الحياة. وهذا البحار مهتم باللغة العربية بشكل كبير، وهو أمر نادر. وأثناء زيارة الأسطول البحري الأخيرة لوهزان، سارع بالذهاب إلى حي الأمالي لتطم الحديث بلغة العربية وكان قد تعرف على صاحبنا الريفى، الذي كان للإشارة، يتحدث العربية بصحوبة.

وأثناء تجولهما بالأزقة الوسغة لحي المسلمين، حوالي الحادية عشر ليلا، حاصرهما أربعة لصوص يرتدون المعطف ويحملون الهراوات وتلك يمرض سلبيهما ما معها. وقد دفع الشريف بهمسلة عن مراقبه الذي كانت معرفته به محدودة. رغم أن إفرقة في الملة رددوا على مسامحة: " أتركنا نسلب هذا النصراني الكلب ما يملكه، وسنقتسم معك ما أخذناه"، إلا أنه رفض العرض ووجهه بشجاعة ضربات عصي هؤلاء اللصوص وتمكن من تخطيص الفرنسي من بين أيديهم. وعندما سيقرا مواطني هذه القصور، وقد كان منذ عدة أيام، يتابع دروسي بانتظام، بكرسي العربية بوهزان، فإنه سيتعرف بسهولة على هذا الريفي القزبي الذي سئمته الكلمة الآن، ليروي لنا بلهجة تامازيغت الخالصة <sup>47</sup>، المشيد الهمجي القلي، المؤثر بشكل كبير وعلى كل المستويات .

وهذا كل ما هناك. لكنني أعلم بأن سديقي باسي Basset مدير المدرسة العليا للأدب بالجزائر، يهيء صلا حول النحو والمعجم المقارن لهجات لغية وبني ورياحل وبقيوة وتمسان وبني سعيد وبني زلشن، مرهوقا بالخصوص. وأخيرا هناك يظهر خلاف هذا الكتاب إعلان عن مؤلف بعنوان: " بحث حول تمازيغت والحكايات الشعبية بالريف "، وكان من الممكن صدوره لولا اشتغالاتي الحالية. من جهة أخرى، فإنني تقدمت كثيرا في إنجاز " المعجم الفرنسي - الريفي". وعندما ستكشر هذه الأعمال، فإن لهجات الريف، ستفصح لنفس مصير هذا البلد المتوحش الذي مازال مجهولا والذي أصبحت بعض ملامحه تظهر الآن بفضل تصريحات الدرويش والرحالة المسلمين الآخرين.

<sup>47</sup> - إن اللهجات الأمازيغية معروفة بشكل قليل لم غير معروفة تماما. والبلطون الذين ظفروا لهذا النموذج، لجزوا الأصل التمهيدية التالية:

- *Hanotanu, Grammaire Kabyle, un conte en tamazir'it de Galiya.*

- R.Basset :

+ *Manuel Kabyle.*

+ *Note de lexicographie Berbère.* Le 1<sup>er</sup> chapitre, de la 1<sup>re</sup> série, est consacré au Galiyen ; dans les séries suivantes, les dialectes du Rif sont pris comme point de comparaison.

+ *Loqman Berbère, plusieurs fables en tasmamanien.*

+ *Etudes sur les dialectes Berbères. Notes grammaticales sur différents dialectes Rifains.*

+ *Les Noms des métaux et des couleurs en Berbère.*

- *Oueden Feldt, Eintheilung und verbreitung der Berber vllKerung in Maroco* ; s'est occupé aussi des dialectes du Rif.

- *Missions évangélique de Londres ? Les Évangiles de St Matthieu et de St Jean en galiyen.*

Rih' Kakh en

فيها حكاية ٤٨

Ijoum goumgaz yemrech oufin taked

رجل متزوج بوخت مع

Iecht en tem'art temrech

امراة متزوجة

III dehar in at- sid'ar

بقرية بني سيدال

Di thek'bitt in k'eraiyin

بقبيلة القطين

■ oumougus, citour'a

في السنة الماضية كان هناك

Ij oungoumgaz ٤٩ yemrech R'ares

رجل متزوج، وكان له

Ijjen rāyarnst; larr ed r'arer

بستان، وضع فيه

Tharja oungouman ٥٠. lehd'a

قناة الماء. وهذا

I tsessou rāyarnst enni

يسقي هذا البستان

Thous ed

وأنت

R'ares ijjen temr'art temrech

بالقرب منه امراة متزوجة

Ek'kimen aya Ked'onya. lehd'a

وجلسا معا. وشرع

Itek'k'out s eddon ijjen

في موافقتها تحت

Oearthou

شجرة التين

Iezan ithen

ورآها

Ij outharras; ysekkar Khaf

رجل، وأثار حولهما

Sen ethr'onyyith.

الصيحات (نادى على كل الناس)

Moune d

ولم يمتنع

Khaf sen loud'an at't'ns.

ضدما الحيد من الناس، وامراة

Thamghart

٤٨ - اعتمدت كتابة هذا النص بهذه الطريقة، حتى أصلي لجميع الأكتب الغربيين، فكرة دقيقة حول لغة وأسلوب

الريفين.

ملحوظة المترجم: بدوري سأحافظ على تركيب اللغة الأمازيغية الريفية كما وردت في النص وكما ترجمها مولاي بريس إلى فرنسية. ولن أضمعها لتركيب لغة الحربية.

٤٩ - عن الحركات الأنفية voyelles nasales، توجد بلغة تامازيغت وهو ما ينطبق على oun التي يصعب النطق بها فعلا، لكن يمكن التوصل إلى ذلك بصور وألف.

٥٠ - الحركة الموجودة فوق حرف النون (n) يجب أن تنطق (gn) مثل: montagne.

Tarower. Ed'farenteth arbà en  
loudan, car'lateth s thasponnia <sup>51</sup>

R'arsen as addia s  
Thasbont <sup>52</sup>

Oujlateth d'i barra

ed'rinteth

S'ijj ouh'sch.

Arghaz enni, thania , yarower

R'ar ijjen taddart tekhrn

Yek'k'en khafé thaououarth  
aouarn

As,

Ed' farent id' yaoud'an, ettazren

Aouarn as, echabents

Erbaroud'

Arami loud'ef thaddarth, yebd'a

Yachchathithen d. ranta,

Zeg icht tebouarjet jaar'a

D'nisen schà.

Bed'an youd'an enni  
ettaryen

Akh terak'k'a. k'eddaàn  
tih'anin

Entezak'k'a, arami kañ

Snouk'k'eben. Louiyen d  
tizizoua

D'i ther'aracin.

هربت وتبعها أربعة

أقرب، وقتلوا بواسطة التنفق

وشقوا لها بطنها بالسيف

وتركوها بالخارج في العراء

وغطوها

بحايكة.

والرجل هذا ، أيضا هرب

باتجاه منزل خير مسكون

وأطلق عليه الباب الخلفية،

هو

وطارده الناس وجروا

وراءه هو، وضربوه هو

بالبزود ( أطلقوا عليه النار).

وعندما دخل إلى الدار شرع

في ضربهم، هو أيضا ( أطلق النار

عليهم)

من النافذة وقتل

من بينهم سبعة

وشرع هؤلاء الناس في الصعود

على السطح، ولزموا روافد

السطح، إلى أن ألقوا فوقه

ثقلها و حملوا القتل

في الخلاء

<sup>51</sup> - كلمة thespanniout ( بنطية ) تعادل كلمة espagnol، منطوقة باللغة العربية. ويحول القومون قدام الموجود

في لسان الكلمة إلى ثاء أو طاء (T).

<sup>52</sup> - مأخوذة من الكلمة الإسبانية espada



Farrer'en khañ thixizoun.  
 Ek'k'eden  
 Timessi d'i thesonnadh  
 oangouari  
 Bed'an set't'aren khañ thimessi  
 Akhkhani  
 Enni lechekour s thixizoun  
 d'ed Dekhan.  
 Thixizoun ettemonnet ■ ouargaz  
 Enni, zañfent d'ain.  
 Jed'ouer ouar  
 Itouiri ouar ad' ijjen a errih'ath  
 Bed'an yload'an  
 Net't'onen d khañ zi thezek'k'a.  
 Et't'fent. ek'k'arnenn as lissen  
 R'ar d'effar. Essoufer'ent id  
 R'abarra, r'ad'erent r'ar  
 themmou Arth.  
 Bed'an ek'k'arer  
 As ath àmmis :  
 " - etta d'ergerait ennech àin  
 Khat'er echekou ouar lissamen  
 Areddif ennech. Etteged  
 Errib d'i tharouna àmmich "  
 Nithenai ek'k'aren  
 As ammon, aitheni etk'ecce  
 Dais s ermonas  
 H'add itk'ecceith  
 Zi thekherkhamin en fassen

ورموا عليه التحل وأنسطوا  
 القل في حزم الحلقة.  
 وبدؤوا يرمونه بالقل  
 والبيت  
 هذا، امتلا بالتحل  
 وبالخطان  
 والتحل هجم على هذا الرجل  
 وفرسه  
 وأصبح هو  
 لا يرى شيئا ( بسبب التحل )  
 وشرع القلس  
 في القفز عليه من السطح  
 وأنسطوا به، وربطوا له القيد  
 من الخوراء. وأخرجوه هو  
 إلى الخارج، وأنسطوه هو  
 على الأرض  
 وشرحوا يقولون  
 له أبناء عمه ( أبناء القينة ) :  
 " هذا هو جزائك أنت ، لأن  
 أنت، لمست ذكيا  
 رأسك أنت ( أنت بلود ) أنت رميت  
 القبيب على أبناء عمك أنت".  
 وهم قالوا  
 له ذلك، وهم يقطعون  
 لأشياء بالسكاكين  
 واحد قطع  
 له المعصمين وواحد

H'add itk'ecceith zi ther' ammar  
 Enr'adden, h'add itk'ecceith  
 Zi ther'arent.

Netta iddar àd, ouar ler'ouyyou.  
 Ouar isiouir.

Tek'ecceit Tania zeg Fadden.  
 bed'an tek'ecceit dais  
 S ermonas zi àra m kour  
 Amchan arami ouar dais k'as  
 Ek'k'imen id'ammen. K'ecceit as  
 Abrouer eanes, eggin asitha  
 Ouk'emmmoum.

Ious ed ijjen zeg ath àmmis.  
 Yekkez d takhed'mechth. yegg  
 Ast d'l thit' , ik'erna As ted  
 làouad'as itbennedhuit, ik'erna  
 As t ed amekchoor.

Netta iddar àd' , isah'rath.  
 Rikhdenni rouk'en. Yioniyen  
 D timemi, farrer enteth khañ  
 Arami yaoungoua.  
 Rikhdenni ouryen taddarth eanes  
 Hed menteth, seh'ark'enteth.  
 Rih' ouaïj oufin d'l thaddart  
 N ouenni, k'as, ouenn ioufi

بتر له من المرفقين  
 الذراعين، وولد بتر له  
 من الكتف.

وهو حي مزال، ثم يبد  
 ولم يلق شيئا.

وقطعوا له أيضا من الركينين  
 وشرعوا في تقطيعه من الدلفل  
 بواسطة السكين، من كل الجهات  
 حتى يدلفله، لم يبق  
 أي دم. وقطعوا له  
 إرمولة وضوءه  
 دلفل فيه <sup>53</sup>

وجاء ولد من بين أبناء صه  
 وأخرج سكيناً ودفله  
 في عين ونزعها منها  
 ولم ينفس الشيء مع الأخرى، ومنها  
 نزعها مثلما يخرج  
 حلزوناً من القوقعة.

وهو حي مزال، يشرح  
 عنقه ذهبوا ، وجاوزوا  
 بالثر وسكبوا فوقه  
 إلى أن شوي.

حنطه صعدوا إلى دونه  
 وهموها وأحرقوها.

والثيابه التي وجنوها دلفل دثر  
 هذا الشخص كلها، فالذي وجد

<sup>53</sup> - قُرأت هذه القطاعة مرات عديدة من طرف الريفيين، أثناء الأحداث الأخيرة بمطايبة. قد شوعت جثث الجنود  
 الإسبان قتلاء بهذه الطريقة المبرقة، على تسكن فرجة والفضلة الأسبانيون من الإسكاف بهم.

Chan, h'achcheth lechsit,  
 Ettour'a r'ares thratha en  
 Tsurfin en imendi echria d  
 Imendi enni marra, endarent  
 R'a barra zeddaant. Ouar th  
 louyen, r'er iz oua r'ar leddi  
 Cha, r'er lmezrad'ith yioniyen.  
 Thammouarth ennes, thezzenz  
 it tak'bilt ik'eriya  
 Far'k'enteth akh techouchai  
 Ennen.<sup>54</sup>

شيئا لم يمتنع من لطفه.  
 وكان له ثلاثة  
 مغارق من الشعر، ولغفوا  
 هذا الشعر كله ورموه  
 بالخارج ونثروه ( في كل الجهات)  
 ولا أحد لطفه، فقط ذلك الذي  
 لا يملك شيئا، فقط الفقراء  
 الذين لطفوه. وحطه هو  
 باعته قبيلة القنعين  
 وقسموه ( أي ثمن البيع) على القرويين  
 بينهم

وبسبب هذا التعذيب الفظيع، فإن هناك قليل وقليل جدا من الريفيين الذين يستطيعون  
 الإخلاء بالحياة الزوجية. ذلك أن قرب القرابتهم سيكونون هم أول من يجرهم؛ وإذا لم يقوموا  
 بذلك، فسيعرضون هم أنفسهم لأفظع الممارسات الانتقامية.  
 ويعمل شبان الذين هم في غالبيتهم رعاة الماعز أو الأغنام أو الأبقار، على تجاوز  
 أسوأ العزوبة وذلك بإشباع رغبتهم الجنسية في الحقل، عبر اللجوء إلى الحوافات التي  
 يرعونها، وتتم الأمور بهذا الشكل في الجزائر والمغرب وفي كل البلدان العربية والأمازيغية.  
 وهذا السلوك المقبوض مقبول ومسلم به ومسموح به ومعروف لدى الجميع.  
 ويتم قتهامس بشكله في المجتمعات الإسلامية الريفية، كموضوع للسطرية والضحك.  
 وبالرغم من أن الأشخاص الوريين في الإسلام يلعبون هذه الأخوات الشعبية لدى  
 المسلمين لشباب العزبين، إلا أنهم يجدون الأعداء لهذه الحوافية، مطلين أمام الجميع، بأن  
 المساكنة من غير زواج concubinage والزنى والبناء، هي جرائم لفظح ولانتهاك للقوانين  
 الإلهية والإنسانية بشكل أكبر.

<sup>54</sup> - أحفظ في صلي العقول، وعولاه: " بحث في لهجة تامازيغت وحكايات ريف شعبية "، بالملاحظات التي  
 كان من الممكن أن تقوم بها هناك حول النمر والاشفاق الخوي.

ورغم الاختلاف الكبير بين لفردهما، فإن أخلاق العقائد القومية تظل سليمة. وتعتبر الأم هي سيدة الدار وقد رأينا من قبل كيف أن زوجة الأب تنفق الأمرين لربيعها حتى ولو كان رائدا. فالأزواج الذين يسودون بالفخار يكونون وديعين داخل المنزل. والمرأة بدورها تصبح كقنا ضميما ما أن تتجاوز أسوار مسكنها. وتقتضي العادة أن تدير وجهها إذا ما رآها غريب. وهي نادرا ما تخرج إذا كانت جميلة، وتعيش في منزلها منتظرة باستمرار اللحظة التي تزور فيها ليوبيها وهذه الزيارة لا تتم إلا مرة أو مرتين في السنة ، إذا كان المنزلان متباعدين.

وقد حاولت البعثة الرسولية mission apostolique لبريطانيا العظمى، مدفوعة بحملين ديني لا تخفى دوافعه السياسية، دعوة سكان الريف إلى المسيحية. ولأنها تفوقت من تعرضين مبشرين، الذين سيحرقون على الفور بسبب لكتهم البريطانية، للذبح من طرف أهلي البلاد المتوحش ، فإنها حاولت تجاوز هذه المشكلة بترجمة إنجيلي القديسين مرقس ويوحنا إلى لغة تاماريخت.

وليكم كيف استقبل الريفيون هذين المتنوعين للثقافة الإنجليزية. ففي أحد الأيام ، ذهب الشريف الشاب الذي روى لنا ، قصة التعذيب القوي المتعلق بالزنى، إلى ملوية لشراء بعض الحاميات. وهناك، التقى في زاوية أحد الأزقة، مع رومي لشعر ضخم الجثة، تبرز ضحكته العالقة صفا من الأسنان القوية. وبشكل غريزي اتخذ الريفى وضعا دفاعيا . لكن الأوروبي لم يثأر بذلك ودرس في يد الأمازيغي عشرات الكتب الصغيرة، داعيا لبقاء لقراحتها وتوزيعها فيما بعد على أبناء ملته.

وعند وصوله إلى المنزل، أدخل الحمار إلى الإسطبل وبادر بفتح أحد هذه الكتيبات التي لم يلهم منها شيئا، كما سيحترف لي بذلك. وفي الليل رجع أبوه، وهو فقيه، إلى المنزل. وقد تم إخباره بما وقع، فانتظر الانتهاء من تناول المشاء ليرى ما تتضمنه هذه الكتيبات الغريبة. ولأنه أدرك من الأسطر الأولى بأن الأمر يتعلق بدقيقة غير دينية، فقد أصابته نوبة هياج وصاح بالعربية: "لمن دين والديهم الكافرين".

وعلى الفور، وضع كومة من الحطب بغناء المنزل وأشعل نارا عظيمة. وعندما صعد القهلب عليها وأضاء المحيطان الأربعة للدار، مثل ضوء النهار، مخترقا كثافة ظلمة الليل، لقي لفتته بهدأيا الإنجليز، في تلك النار الحامية، وهو يرفقها بأقطع اللعنات. وبينما كانت عملية إحراق كتب القديسين تتم بتلك الطريقة الساخرة، كان إخوة وأخوات الططب الثمينة ، يركسون حول حطب المحرقة وهم يرددون قول الأب. "لمن دين والديهم الكافرين".

وهذا هو المصير المحتوم لكل المحاولات الهادفة إلى تحويل المسلمين عن دينهم. فمن الجبل دعوتهم لتخلي عن إيمان آبائهم، هذا الإيمان الراسخ الذي لا تقصم عراه. فكيف وصل بنا الجبل بمعتقداتهم إلى هذه الدرجة من قوهم؟ ألا ترون على فمكس، بأنه كلما قتل أو تكلم الإسلام مع المسيحية، كلما كان هو الفرجح؟ ويمكننا في هذا الإطار أن نتذكر حشدا من المرتكبين المسيحيين الذين أصبحوا مسلمين، لكنني لا أعرف مملما ولحدا تخلى عن دينه ليتقلب إلى صف عبدة المسيح.

إن شبه جزيرة القبة تشبه مخروطا ناقصا، تطوره ثلاثة تقوآت متباينة الأشكال، اثنين منها يمثلان عند الأطراف رأس العجوز بالغرب ورأس الشوكات الثلاث بالشرق. وبشكل هذان الطرفان، القنطريون الشماليين الأبعد في الريف. وهناك خديران يستقران شبه الجزيرة هاته وهما: واد الكرت الذي ينبع من زاوية سيدي محمد بن كنور وواد بني شيكر الذي يوجد كلية داخل القسم الذي يحمل نفس الاسم.

## القرى الرئيسية بقلعية

### قسم بني شيكر

- إهزاقن، (الأعزاء، المكرمون)، (القسمية عربية أمازيغية)، ما بين رأس العجوز ورأس الشوكات الثلاث، على شاطئ البحر. يوجد بها حوالي 50 منزلا ويمارس السكان الصيد والفلاحة، وخصوصا الصيد.
- أيت سلفال، (أبناء المروج المصطنعة)، (القسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل، قرب واد بني شيكر. وبالجانب يوجد سوق الثلاثاء.
- تاقوليت، (القمة الصغيرة)، (القسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.
- أيت فكتال، 100 منزل.
- سيدي الحاج سعيد، 100 منزل.
- إعمونن، (عبدة الله)، (القسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.
- الأريهام، 500 منزل، يوجد بها سوق الأربعاء الكبير.

### قسم فرخانة

- أيت موسى، (القسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

- جنة، ( المسكر )، ( التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل قرب وادي بني شوك الذي يأخذ انطلاقاً من هذا الموقع، اسم واد فرخانة.
- فرخانة، ( الثبان الصغار)، ( التسمية عربية أمازيغية)، وهو خليج صغير يسمى بنوع من المبالغة مرسى فرخانة، ويوجد بالشمال قرب ملوية.
- القلعة، 100 منزل، جنوب ملوية.
- القنور، ( الراصد)، ( التسمية عربية)، وهو ميناء يقع على البحر، 100 منزل.

### قسم بني بوشلفر

- تلي، ( ممر جبلي)، ( التسمية أمازيغية)، وهي قرية كبيرة وسط القلال، غرب شبه جزيرة القلعة، 300 منزل، وتتضمن مجموعة من القرى الصغيرة.
- عزيزان، (الأعزاء)، ( التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، عبارة عن قرى صغيرة مجتمعة.
- زودة، ( القشقة)، ( التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وهي مجموعة من القرى الصغيرة المبنية فوق أراضي متوجة وصخرية.
- حنينان، ( المطولون )، ( التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وتشمل خمس أو ست قرى متقاربة فيها بينها.
- بنجوا، ( سمك القد )، ( التسمية عربية أمازيغية)، 30 منزلاً.
- تيمزغونت، ( شرفة السطح)، ( التسمية عربية أمازيغية)، 50 منزلاً، قرب البحر.
- لولاء الحسن، 20 منزلاً، على واد بوشلفر وبحلولب هذه القرية الصغيرة يوجد سوق الثلاثاء.
- تيفلصوع، ( قبرسيم)، ( التسمية عربية أمازيغية)، 50 منزلاً، قرب البحر.
- بوحمزة، 100 منزل، على واد بوشلفر، وقد اعتقل الدرويش بعد الأضحية سنة 1889، بهذه القرية.
- مرسى بوشلفر، خليج صغير.
- بني بوشلفري، ( أبناء لب التصوحية لو الذي يمتلك بنائق تطوالية)، ( التسمية عربية أمازيغية)، وهي قرية صغيرة على شاطئ البحر.
- لاسفر، ( المكان المشمس)، ( التسمية عربية أمازيغية)، 300 منزل، وهي قرية مهمة.

- شمالة، ( المربعة في السابق)، ( أو هبلد الذي ينتج أحسن أصناف شجر الزيتون، المسمى أشمال)، ( التسمية أمازيغية)، 100 منزل.<sup>55</sup>
- تلافنية، ( قرعي)، ( التسمية عربية أمازيغية)، مشتقة من الكلمة العربية غنمة)، 50 منزلا.
- مهيبتن، ( المون من فصيلة addar nasomaculatus وتجمع أيضا مهيات )، 100 منزل.
- أولاد حمر، 10 منزل.
- بوهوي، ( الماجز )، ( التسمية عربية)<sup>56</sup> . 100 منزل، غير بعيدة عن الضفة اليسرى لواد الكرت الذي يسمى انطلاقا من هذا الموقع واد بوقاقر.
- إهيل ومضغار، ( القلة الملتوية)، ( التسمية عربية أمازيغية)، 500 منزل.
- ليت علي، 100 منزل.
- إجواون، ( الزواوا)، ( التسمية عربية أمازيغية)، 100 منزل.

### قسم بني سيدال

- ليت سيدار، ( بني سيدال بالعربية)، في هذه القرية وقعت المأساة التي رويناها أهلا، 200 منزل.
- يمن أوياسين<sup>57</sup>، 300 منزل، أهم مركز ببني سيدال ويوجد به مسجد وزاوية ومجموعة من الطلبة .
- إجواون، ( الزواوا) ( التسمية أمازيغية)، 100 منزل.

<sup>55</sup> - انظر كتابي: " أساطير وحكايات رائعة من القبايل الكبرى"، الجزء الثالث الحكيمة 23، وهذا البيت a thalek'k amth ouchemlal، والملاحظة المتعلقة بهذه الكلمة الأخيرة.

<sup>56</sup> - يمكن أن تعني لها حواء أو المكان الذي وجدت فيه حواء. وتبرز أسطورة القصة هذا المعنى الكتابي، إذ يحكي في الزيف، أن لم البشرية استرعت فترة بهو حوى أثناء مرورها بقلعة. ومن هنا جاءت تسمية القرية.

<sup>57</sup> - تقرا ياسين، وهو عنوان السورة 36 من القرآن ونعيا كما يلي: "يمن والقرآن المحكم". وقد حاول شارح هذا الكتاب الربط معنى هذين العرفين لكن بدون جدوى.

### قسم بني بويالروور ( بني بويالروور )

- سيدي بوسيرا وهذا نعت مبالغ فيه إذا ما تذكرنا غضبه الشديد على محمد بن الطيب.
- وهو سيد بني بويالروور ويحظى قبره بزيارات مكثفة، 100 منزل،
- زخائن، قرية هامة من 500 منزل، على الضفة اليمنى لود الكرت،
- القزوية، 100 منزل ، على واد الكرت،
- الصلوة، ( الصعوبة )، ( التسمية عربية )، 100 منزل،
- سوق الخميس، 300 منزل، وهو سوق علم،
- ثلاثة، وهو سوق الثلاثاء الكبير، 500 منزل.

### قسم مزوجا

- سيدي موسى، في الطرف الشمالي لبحيرة بوعرف، 100 منزل،
- مرمي بوعرف، وهو شرم صغير يفصله عن القرية السابقة، ممر رملي ضيق يقع بين السبخة والبحر.
- ثاقوبين، ( المنابع )، ( التسمية أمازيغية )، غير بعيدة عن بوعرق، 100 منزل،
- الجصة، 100 منزل،
- بزخنا، 300 منزل، جنوب سوق الأحد.
- قصبة سلوان، يفر فيها واد بوعرف الصغير ، الماء الضروري للحامية المخزنية.

### قسم بني بوغمرن

- بوغمرن، 50 منزلا ، غير بعيدة عن منابع نهر صغير، وهو واد سيدي موسى الذي يصيب بلفناصور. وقد أُلغى أمالي هذا القسم بوجود أطلال حامية أشرت إليها بالخريطة، ويسمونها ikhraben iroumien ( أطلال القساري ). ولربما كانت تشكل آثار مدينة قديمة، نسي اسمها في البلاد.
- ويوجد عدد كبير من القرى الصغيرة التي تتكون من ثلاثة أو أربعة منازل فقط وخصوصا بقسم بني شوكر الكبير.
- القرى العسكرية : 22 ألفا من المشاة، عدد السكان المحتمل 110 ألف نسمة، لتنظيم القراني منتشر بشكل كبير.



وتعتبر ملوية بمثابة المستودع الكبير الذي لا يتوضع منه القطيون وحدهم، بل كل أهلي  
الريف الشرقي والندرة حتى فجيج، وكل الجزء الشرقي من جباله. ولا يمكن مناقشة هذه  
المنطقة الخطيرة إلا بخلاف أسواق حرة على طول حدودنا مع المغرب. ونأمل أن تقوم الحكومة  
عاجلا بضرورة خلق مثل هذه الأسواق.

## التيبة كبدانة

( أصحاب الأئمة ) ، ( التسمية عربية أمازيغية ) .

توجد كبدانة داخل صحراء القارث ( القارث )، وهي قبيلة زناتية تتحدث لهجة أمازيغية  
تسمى الزناتية . ولا يتوقف القارث عن الامتداد رغم وجود مجرى مائي من أكثر المجاري أهمية  
على الشاطئ الإفريقي للمتوسط بعد النيل، وهو نهر ملوية<sup>58</sup> الذي يجتازه دون أن يحصره،  
متوقفا فقط أمام شساعة البحر، بأسطبا بكبرياء وأمام الصلغة الزرقاء ، مصبه الذي يمتد على  
خمسين كيلومترا، وهو مصب مترامي الأطراف، يمتد من بحيرة بوعرف إلى الحدود التونسية.  
وقبل مغادرة القبة للتوجه إلى قبيلة كبدانة، لرنأي محمد بأنه من الأفضل أن يتحدث مع  
التجار الكبدانيين الذين التقى بهم بسوق الجمعة لمزرجاء، حيث أتوا لبيع الشعير والماعر والخبز.  
وقد تعرف عليهم بسهولة من خلال جلابتهم الزمالية ولختهم الزناتية المختلفة كثيرا عن تمازيغت.  
وجلس بجانبهم فوق تكليس " مقلوب مليء بالشعير، ليبدأ الحديث معهم.

وبعد أن تكلموا عن أشياء مختلفة، أعلن الجوال عن رغبته قائلا: " أنا طالع، أريد أن  
أرفقكم، كي أدرس القرآن على يد فقهاءكم الذين يقال عنهم كل خير". وأجابه هؤلاء الناس  
الطيوبون: " مرحبا بك، في موطن الإسلام"<sup>59</sup>. وبما أن الوقت كان ظهرا، وكانت هناك مسافة  
طويلة تنتظر الكبدانيين ليصلوا إلى ديارهم، فقد جمعوا أمتعتهم وأركبوا الدرويش على ظهر بخل  
وأنطلقوا سافرين على جنبات البحيرة في البداية، ثم على شاطئ البحر فيما بعد. وأسرعت القافلة  
الصغيرة المكونة من البغال مشيا دون أن تتوقف ولو مرة، إلى أن غربت الشمس، هكذا، اجتازت

<sup>58</sup> - ملوية ( الملقبة ) ( التسمية عربية). ويدعوها الأورويون Molouya لكن يجب أن تطلق Moukoulia .

<sup>59</sup> - ملامت كل قبيلة تدعي بأن إسلامها أفضل من إسلام الآخرين، فمن أن تنسب من وجود لوطن للإسلام في  
هذه الزاوية الإسلامية الثلاثة المسماة المغرب

منطقة منبسطة والمالحة، متحدة لحد من الأماكن المأهولة بالسكان، كي لا تقتل مجموعات من القبيلة أو لاد ستوت التي كانت كهدية في حالة حرب ضدها.

وبعد حلول المساء، وبعد هذه المسيرة الطويلة والمتعبة التي نال فيها القنص كلا من الراكبين وبغالهم، وصل الجميع إلى قتال الأولى لجل كهدية. وهناك تهدد الخوف، للصوص قنصت بجهود السهل ويسلمون أمتعة المسافرين الذين يحترضون سيولهم. لكنهم يحاطون من المخامرة وسط الجبال المنيمة التي تشكل فيها كل قرية، قلعة صغيرة.

ونزل محمد بأول قرية توقف فيها أحد رفاقه الطريق. بعد هذا السفر المضني على ظهر حيوان يتعب راكبه، مما ولد له الأما بالظهور. وكان اسم القرية الصغيرة التي تتضمن عشرين منزلا هو: الزاوية. واستضاف الكهداني الرجل الغريب في منزله، حيث أعطه بيتا لا ثالث فيه، وجلب له حصيرة من الحلفة، تمدد عليها محمد حتى الفجر. وبعد ساعة، جاء المضيف بصحن من الخشب يرتكز على قاعدة طويلة ويسمى "المزود" عند العرب. وكان من اللازم لقاطط الدرويش الذي شعر بالسرور عند رؤية الكسكس والطعمة اللحم الكبيرة الموضوعة فوق حبات السميد الصفراء. وأتى الرجلان اللذان لم ينوفا الطعام منذ الصباح، على الطعام كاملا، تاركين في عار الصحن عظما فط، سمنه محمد للطفل الذي كان يسقي فرجلين. وبعد ارتشاف لخبائين أو ثلاثة فجاجين من الشاي، غاد الجميع إلى النوم.

وعند الصباح، استعمل الجوال الرحيل عندما علم بأن الطلبة يحاطون بتكريم خاص بقرية بوغقود. وبالفعل، فإن هذه القرية الكبيرة المكونة من 300 منزل، تكرم ضيافة الطلبة الذين يكونون لتعلم القرآن بمساجدها. وبها كان محمد يتناول وجباته، بعد جولاته الطويلة داخل القبيلة.

وتعد كهدية شمالا بالبحر الأبيض المتوسط وغربا بقلية وبني بويحيى وجنوبا بأولاد ستوت وبني يزناسن وشرقا بطريفة. وتتوفر على قسمين وهما بوغقود (التسمية عربية) وإزخاين (التسمية أمازيغية)، ويعد كل قسم 2500 من القبائل، أي ما مجموعه 5 آلاف مقاتل بالنسبة لكل القبيلة. وهم في غالبيتهم مسلمون ببناني إسبانية.

ويعد جبل كهدية، وهو عبارة عن تلال صغيرة متتامة، مكسوة بشجيرات الفستق (الندرو)، إلى داخل قسم إزخاين. وحوله وأمامه يوجد القنص، السهل الصغير الحار، الذي يتوفر مع ذلك على بعض الشجيرات قرب الساحل.

ولهذا، فإن كل الأهالي استقروا بقتل الجبلية بالجنوب، حيث الأرض غير مثقلة بالرمال والحصى، وأصلح للزراعة من أرض الصحراء القاحلة وعلى القسم، تتولد قرى الصغيرة بكثافة وقد جُمعت على رؤوس جبلية pîlons بإمكان صلبة الصور، محاطة بشجيرات الخن

الوحشي. وعلى طول الأودية حتى السهل، تقوى حقول الشعير على مدى البحر. لكن يوجد بها قليل من القمح، أما الحنظل فلا أثر له. وتكثر الأرتاب البرية والحمول وبذلت أوى برمال القنارات، ونادراً ما تتعرض المطردة.

إن كبدانة تشكل جزءاً من اتحاد أُنجاد. وفي الفترة التي زارها القرويش كان يحكمها السيد اسمه بوصفية. وهو رجل ديناميكي، ذو نفوذ وخبرة في السلطة، وهذا أمر نادر في الزيف. ومرد ذلك في الحقيقة إلى كون الأهالي حكميين في تصرفاتهم ومجددين في عملهم وغير ساهيين. وهم يهتمون بتربية الظن والماعز والأبقار والحمير والبهائم. كما لهم ورعون ويكنسون كل ما يرغبون من قريب أو بعيد بالدين، ويقيمون ذبائح كثيرة لجلب الفقهاء المشهورين إلى القرية. ويطلق كل طلب الحفاوة في مسلحهم الحديدية. ولأن الطلبة الفرحين يدركون المعزة التي يحظون بها، فإنهم يتهافتون على هذه القبيلة التي يسمونها "جبل الدقيق". وهي التسمية التي أعطيت أيضاً لجبل بني زلمان وبني سلوس (بدائرة تلمسان). لأنهم يلقون الكثير من الدقيق الذي يصنعون منه خبزهم بأنفسهم ويبيعون الباقي الذي لا يمكن استهلاكه. ورغم بياض الدقيق، فإن الخبز يكون دائماً مائلاً إلى الأخضرار.

هل يرجع ذلك إلى غياب الشمس؟ حسب المعتقدات الشائعة، فإن هذا اللون الغريب الذي لا يفتح الشبهة، راجع إلى دعوة أحد الأولياء الكبار المكسرين بالباد، وهو سيدي إبراهيم الذي اقتنع بأنه من المستحيل جعل البشر سعداء بالكامل، طلب من الله أن يلبس كل رعاياه أهالي كبدانة، وأن يسبب لهم بالمقابل متاعب مخيفة مع الخبز الأخضر. ووضع هذا الطلب سجماً وهو كما يلي:

بكبدةنة نيتكم ما تغيب ﴿﴾ وخبزكم ما يطيب

وعلى ساحل البحر، قبالة الجزر الجعفرية المحيطة من طرف الإسبان، قائم الأهالي مركزاً يتواجد به حوالي مائة رجل لمنع أعدائهم من النزول إلى البر. وكل رجل قادر، مططب بالقتيل بالحراسة. وبدخل الأراضي، جنوب المركز الأمازيغي، تتوزع منازل قرية البرج فوق الرمال التي تكسو السهل. وقد كانت الجزر الجعفرية التي يدعواها الفريغون حجرة كبدانة غير محتلة إلى حدود سنة 1849. ولادت فرنسا السيطرة على هذه الجزر الجرداء لتشكل موقفاً استراتيجياً أساسياً بمصب ملوية، على بعد كيلومترات قليلة من الحدود التونسية. لكن السفينة التي أرسلتها لهذا الغرض، وجدت نفسها مسبوقة بهضبة ساحات

قطر من طرف بلجة تشالية، مستعمر موطنينا المحيطين بأن السلية قد تمت باسم الحكومة  
الاسبكية.. وكان من اللازم الخضوع للأمر الواقع. فقد انتظرنا تسعة عشر سنة قبل أن نقرر  
وضع العلم الفرنسي فوق هذه الصخور القاطنة التي لم يكن أحد يدعي لاحتلاكها، وعندما عزمنا  
على إنجاز هذا العمل البسيط، وجدنا المكان محتلا، إنها قصة الحديثة للمكتشفين. ونتمنى من  
إلى ألا ينتقل منا المغرب، كجوزة طيب صغيرة، مثل تلك الجزر الجعفرية التي كانت قريبة جدا  
من الساحل الجزائري.

ومثل كل قبائل الموجودة بالقلاوت، فإن كبدانة تكون حارة صيفا بفعل الشمس الحارقة.  
وتهب فيها رياح شرقي بنفس قوة وعنف رياح السوم simours الصحراوية. ولا يؤثر ذلك  
كثيرا على السكان الفولانيين الذين يحشون في هذه المناطق القاحلة. وكفما كان الحال، فإن  
مناخ البلد صحبي. فصل الشتاء الممطر والمعتدل جدا، يملح القوة للأعالي كي يولجها حرارة  
الصيف الحارقة.

إن الكبدانيين يأتون إلى أسواقنا الحدودية لبيع مواشيهم وصوفهم. لكن منذ استقر  
الاسبان بالجزر الجعفرية، لم يعودوا يشترون منا أي شيء، مفضلين قضاء ما يلزمهم بالقرب  
منهم وبشأن بفس. ويمنع عنهم بيع أي منتج إلى جيرانهم بالجزر، من الفساري الذين  
يمتثلونهم بشكل لا يمكن وصفه. وكرحل حقيين، فهم لا يحبون ركوب الفس ويكرهون الفس  
الذي لا يستطيعونه أبدا ولن تجد عندهم ولو قاربا ولحدا. بالمقابل، فلهم يقيمون على الأسفار  
البرية الطويلة، حاملين على بغالهم وحمارهم الشعور الذي يبعونه لأوروبيي منبتي نيمور  
ومطيلة. وهم يفضلون المدينة القليلة على الأولى، لأن كل ما يحرص فيها لصن ولهيس ثمنا.  
ويشترون مطيلة ما هو ضروري لهم، من سكر وصابون وشاي ولحواب قطنية وبترول وسكاكين  
وبنادق وخرطوشات الخ..

والموردان الأساسيان للكبدانيين هما: ثروتهم الرعوية والحظرة التي يصنعون منها الفحل  
ومساح الأقدام والخرابيل لصنع الكسكن والفيلم والحصائر المسطحة، وهي منتجات تباع  
لغرب الجنوب. وهناك نهران بالقنبلة، الأول هو واد سدي إبراهيم، وهو جاف باستمرار، والثاني  
هو نهر ملوية الذي يكون ممتلئا على الدوام. ويقسم واد سدي إبراهيم القابع من جبل كبدانة.  
القنبلة إلى قسمين ويتجه نحو الشمال الشرقي حيث يلغذ في أسفل القرية التي يحمل اسمها،  
تسمية أخرى وهي واد البرج. وتمتدح قرية سدي إبراهيم وقلة خاصة.

فالنبى قنوراتي الذي يعتبره العرب جدا لهم، يتوفر على ضريح في هذه المنطقة القليلة  
من شمال إفريقيا. وهو مبنى عظيم، لكن لا علاقة له بضامة ضريح أرتميز Artemise .

وتحيط به المنزل لتزويد من ضفائته، مشكلة حزاما خريبا من القبائل الحانية والمعوجة biscomues التي تنفتح على لوزة منحرفة ملونة بأحجار البناء وبالحصى. وتوسط قرية سودي يراهم منزلا ملونة على قاع قنيل ذاتة. وعند رؤية المنبع الجميل الذي ينبثق وسط القرية، نفهم لماذا اضطر الأهالي إلى الانزواء بذلك المكان، إذ لا يوجد في أي موضع داخل القبيلة، منبع يشابهه غزوبة ووفرة ماء بل على العكس، ففي كل مكان، لا تشرب سوى مياه الخزانات.

من جهة أخرى، فإن نهر ملوية يخترق قبيلة كدافة بمضى قشبي. ويزرع أولاد الحاج المتواجدين بالضفة اليمنى بأنه يشكل حدود قسمهم من جهة الغرب؛ وهذا نزاع قديم سبب في العديد من المأسى وفي إزالة الدماء. وهذا النهر الهادي يجري هو أيضا منذ عدة أروون داخل رمال السهل وسط ضفاف غير مرتفعة، حمالا مياهه الحمراء الطويلة العميقة. وفي فصل الشتاء يفيض عن حده ويغطي سهل القنات القنات، الذي يصبح غسبا بشكل مؤقت بفضل الطمي الكثيف الذي يستغله الأهالي ويحولونه إلى بساتين الخضراوات، ما أن تتراجع مياه النهر. ولا يوجد أي سكن على ضفتي هذا الأخير، فكل ما هناك شجيرات الحومر ( المسماة عند العرب شجيرات الطرفة)، وهو النبات الوحيد الذي ينمو في هذه المنطقة البليسة. وعند حلول الظلام وحتى الفجر، تأتي الوحوش المربعة التي تسكن هذه الأماكن الموحشة، لتروي عطشها في المياه ذات اللون القلبي. فالنهر بالنسبة لها هو مرشد أمين، تسير على جنباته حتى البحر وتتصد مجراه بعد ذلك، بعيدا نحو الجنوب، لتتوسط الطرقات التي يرغبها العطش على المجيء إلى النهر.

ويؤكد المسافرون المسلمون بأن منبع ملوية يوجد بقبيلة القنادسة، ما بين تافيلالت وغوروار، أي بمئات الكيلومترات عن مصبه. ويرسم النهر منحى كبيرا حتى تدنو، متلقيا من كل جانب مياه الروافد التي تملأ جنباته وتجهل منه ذلك النهر الرقيق الذي يمكن رؤية مصبه لربما من الجزر الجعفرية. ووسط الرمال المغطى للقنات وبعد أن يكون قد فقد نصف مياهه بسبب مجراه الطويل، يحتفظ النهر مع ذلك، وفي شهر يوليو، بمائة متر عرضا ومترين عمقا. وفي الصحراء، يكون مستواه في الغالب هو نفس مستوى السهل، ونراه وهو يجري دون ضفاف متميزة فقط عن التراب الأصفر للقنات بالشريط القلبي والشماس لمياهه. ويمكن عبوره في الصيف القلظ، عند بعض الأماكن المعروفة لدى سكان البلاد. ويحكى أنه بعد هزيمة يسلي، لم يرد الأهالي تعيين معابر النهر للأمير عبد القادر، وقد غرق العديد من رجال هذا القائد العربي، عندما حاولوا عبور النهر بجيادهم.<sup>60</sup>

<sup>60</sup> - وقد حقت هذه الفلمجة بالضبط، ليلة 21 ديسمبر سنة 1846، أي بعد أكثر من سنتين على وقوع معركة يسلي.

والشراء المثير هو أن أملي كهدية وطريقة لا يفلون بل ويحفظون السمك ولا يصطادونه أبداً ولو ألبسهم إلى الأملي المقيمين بعيداً عن النهر. لذلك تعتبر ملوية من الأثبات الأكثر توفراً على السمك في المنحدر المتوسطي للمغرب.

### القرى الرئيسية بكهدة

- الهرج، 300 منزل؛
  - سيدي إبراهيم، 100 منزل؛
  - بوعفود، 300 منزل. ويوجد سوق الثلاثاء بالجنوب الشرقي لهذه القرية.
  - إيرقاتن، ( السود)، ( التسمية أمازيغية)، 50 منزلاً؛
  - برككلا، ( المكان الذي يوجد به السود)، ( التسمية أمازيغية)، 100 منزل، جنوب غابة صغيرة من شجيرات القسطنطين.
  - سوق الأحد، وهو سوق هام؛
  - الزوينة، 20 منزلاً.
- القرى العسكرية: 5 آلاف من المشاة المسلحين جميعهم تقريباً يبنون إبنانية. عدد السكان المحتمل: 25 ألف نسمة. السهل قائم في كل مكان.
- البلد قاحل وجاف. التعليم القراني منتشر بكثرة.

### قبيلة تريفنة

( التي تحيا في الترف)، ( التسمية عربية ) \*

غادر محمد عبد القدر، قرية سيدي إبراهيم وسط كهدة ووصل إلى ضفاف ملوية مع طول المساء. ولأنه لا يعرف السباحة، فقد اضطر إلى قطع النهر على ظهر حصان وضع رهن إشارته من طرف مراقبيه من أولاد الحاج الذين رجعوا من حيث أتوا. وقبل أن يغرقوا الدرويش دصوه إلى أخذ المحطة والحذر من هجرة الذين يجهلون المنطقة والذين أعلنوا الحرب على جيرانهم بالمغرب، وأجابهم الجوال، وهو يشير إلى أسمائه قلائد: " الحويان في القفلة، عليه أمان

\* - ملحوظة المترجم: يمكن أن تطلق أيضاً طريقة من الطريقة.

لقد: بعد ذلك، توغل داخل السهل دون وجل، وحيدا وبهدوء، وهو على علم مسبق بأن أي أحد لن يمس رجلا مسكنا مثله. وبعد نصف ساعة من المشي، سقط في كمين نصبه له أفراد من هولة. وصاح فيه بعض فرسانهم: "أنت أيها الكلب، من أي بلد أنت؟". وتوقف الدرويش عن المشي منتظرا مصيره، وأجاب بالقتضاب: "أنا مغربي". فتوجه فرسان هولة نحوه وجعلوه وسط جيادهم، عاملين على ترعيده، عبر تهديد جيادهم الرقيقة التي تقف على حوافرها الخلفية وتحرك الأمامية في الهواء، مباشرة فوق رأس محمد. وسأله مرة أخرى: "طبيب، قل لنا كم عدد الرجال الذين يتوفر عليهم المغاربة<sup>61</sup> لمواجهةنا وستسلم عن الموت". وأجابهم الدرويش ببساطة: "إني معلم بزاوية سيدي رمضان"<sup>62</sup>. وكان يعرف التأثير السحري الذي تمارسه هذه الكلمات البسيطة على العرب. وعلى الفور، تراجع الفرسان، موسعين الدائرة حول الرجل الذي أصبح قويا في ضلعه؛ بل إن أفرادا منهم ترجلوا وتقدموا باحترام نحوه وقبلوا رأسه قائلا: "اسمح لنا أيها الفقيه<sup>63</sup> لقد كنا نعتقد بأنك من الغرب. وبما أنك تنتمي إلى الزاوية، فطوبك أن تركب الحصان وترافقنا إلى ديارنا".

وللاحتفاء بالغريب المبجل، وضع رهن إشارته حصان جموح، يصلح ويكف على حوافره الخلفية باستمرار. ولم يستطع الدرويش الذي شعر بالرضى، أن يطلب منهم مطية أقل جموحا، لذلك ركب الحصان الهائج الذي كان فردان من هولة يعملان على تهدئته. وما أن امتلئ الحيوان حتى أحس بنفسه مثل ريشة تتلاعب بها الرياح، بلطل الوثبات غير المنتظمة للحصان الذي يريد طي المسافات. ومباشرة بعد أن أصدر رئيس المجموعة صوتا مميزا تحرك الفرسان سريعا، راجعين إلى الدوار.

وعند وصولهم أوقدت النار قهيبا نشاي، وبعد ذلك قدم الطعام، وهو عبارة عن خروف مشوي تفتتله عصا طويلة لتسهيل شيه على الفراء ولأن الفرسان وضيفهم كانوا جالعين، لقد ألقوا على الخروف بأكمله.

وعند الصباح توجه الدرويش إلى قصبة شراة-حومن الأمور التي كانت شائعة لدى سكان المنطقة، أن "مولي الساعة"، وهو بمثابة شهدي منتظر منذ قرون، ستكون انطلاقته من شراة. وإن يستقر الجوال سوى يوما واحدا بهذه القرية، ليهتوجه إثر ذلك إلى القعة، وهي قرية واقعة

<sup>61</sup> - يقصدون بذلك، أولاد الحاج، جيادهم بالغرب.

<sup>62</sup> - وتوجد بقسم بني مشوش، قبيلة بني زللان.

<sup>63</sup> - وهذه التسمية هي بمثابة لقب متكلم، يوزع بدون تمييز، على كل من يحرف القراة والكتابة.

قرب سوق المحلّي الحدود الفرنسية، بجانب واد كيس . ويهيمن على هذه بصدقة لطيفي قرية .  
قدحرو سدي عبد الرحمن الذي أصر ضلالتة .

إن مساحة هذه القليلة البحرية الموجودة بالمسي شرق الريف، لا تتعدى عشرين  
كيلومترا، طولا وعرضا. وهي تحد شمالا بالبحر الأبيض المتوسط، وغربا بكندلة، وجنوبا بني  
زنانين وشرقًا بالبحر وهران. وتتضمن خمسة أقاليم وهي: أولاد الحاج، حويزة ( المهدمون)،  
أولاد الصغير، أولاد منصور، بني مخلوش. وتجدد الأقاليم الأربعة الأولى 1500 فارس في حين  
لا يجدد القسم الأخير سوى 50 مقاتلا.

وتوجد قرية كنية داخل سهل بنهج الشحر والقصح بوفرة، مما يسمح بطلب لطحين قاعز  
والأبقار والأغنام والحبوب والبقول. وتظل هناك مساحات شاسعة غير مزروعة، تغطيها شجيرات  
الفرافرة *fraxinus* . وبالإضافة إلى واد كيس، يوجد نهر صغير يحمل معه القليل من الماء  
إلى هذه المنطقة الجافة، وهو واد شراعة الذي ينبع داخل قبيلة بني زنانين، حيث يأخذ اسم واد  
بني وكلان.

والفرافرون هم عرب رحل يعملون تحت الغمام، لكنهم لا يتجاوزون حدود قبائلهم. ويبدو  
أن هذه الأخيرة قد قسمت إلى قسمين يمثل رسم الحدود الفعالة. وأساس التقسيم عديم هم  
التسكن والجزء الصغير، كما هو الحال في كندلة. وبسبب ذلك الثاني المسمى بكثرة. أما الأرض  
فتمتد مباشرة بواسطة الجبال، بعد سقوط الأسطر الأولى للريف.

إن قرية تشكل جزءا من اتحاد أجداد، وتعرض أحيانا لقرصن بني زنانين ولصهبة في  
مناطقها الجنوبية، أما نصفها الشمالي فيخضع لسلطة قائد سميدة *Saida* . وقصبة سميدة ، كما  
يطلق عليه إسمها، هي عبارة عن حصن صغير يقع على شاطئ البحر بمصب النهر الذي يشكل  
رسما للحدود مع المستعمرة الفرنسية. ولثناء حور محمد بن الطيب للمنطقة، كان هذا الحصن  
الصغير يلقي العديد من جنود المشاة والفرسان النظاميين. وقد عين القائد القواربي المعجول  
هناك، منذ أكثر من عشرين سنة، وهو يعيش الحياة الرعوية القبلية القاموس الممزول داخل قصره  
الرفيع *maison* ، حيث لا يوجد ما يشغل سوى منظر الأراضي المنبسطة والسطح المائي  
بالشمس.

ويوجد سوقان بالقبيلة وهما: سوق الخميس وسوق الأحد. ويقام الأول قرب قرية شراعة  
مرتفع في الأموج. يومى الخميس والاكين. أما الثاني، وكما يشير إليه اسمه، فهو يقام يوم الأحد  
، ويتواجد عند طرف قرية القلعة بشطره واد كيس إلى شطرين، حيث يوجد نصف السوق  
بالأرض المغربية والنصف الثاني بالأرض ( الفرنسية). والمثير في الأمر أن تجد الأماني



مسلحين بينهم في الجزء الغربي ومزودعي السلاح في الجزء الشرقي. فمن جهة، هناك الحرية  
للأمنونة والغلب قدام الحكومة وسيادة قانون الأقوى والقوضى العارمة التي تعم ملايين  
الأشخاص الذين لا يجمعهم سوى شيء واحد، هو الإيمان بالإسلام.

ومن جهة أخرى، هناك الحضارة الأوروبية التي تمثلها سلطة عظيمة وقوية، لا تفرق  
بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير، وتتبع قانون بين أرباب ملوكون من الأشخاص  
الخاصين لإدارتها والذين تختلف معتقداتهم، لأنها كبرت ليمانا جديدا وهو: الإيمان بالوطن  
الفرنسي.

إن تربية الواقعة بالخصي شرق القارت، هي منطقة فقيرة وجافة. ومع ذلك، فهي تتوفر  
خلال فصلي الشتاء والربيع، على مراعي جميلة ترتادها قطعان القبائل المهاجرة. وهذه الأخيرة  
التي تتوفر على قوة أكبر، تسيطر على المنطقة الصغيرة بالسلاح وتزبل كل القبائل الموجودة  
بهذه المروج الجميلة التي تختلف في كل الأحوال، مع هدايات الأولى للقبيل حيث تستبدل  
الأرض الخضراء بلرؤى جرداء مصنوعة إن يثبت فيها شيء على مدى ثمانية أشهر. فمن  
أربل إلى نوفمبر، يظل القارت عبارة عن جحيم تسطح فوقه شمس حارقة.

ويقال بأن أعالي ترفنة ليسوا كرماء ولا يحبون استضافة الغرباء. ونسألوهم أحيات وعن  
يخرجون بملابسهم، أما سلوكياتهم فملها بعض المؤلخات، ويرتدي رجال اليرنوس شتاما والحيك  
صيفا، وينتطون " القبلة " التي تجلب من الممان. وفي الأسواق، ترى المقاتلين المسلحين والنساء  
السفارات يتنضمون ويتكلمون عاليا ويتشاجرون ويسلومون في أمان الحوكلات والقصوف  
والمواد المصنعة. ونظرا لقرب هذه الأسواق من قنراب الفرنسي، فإن صلتنا الذهبية والفضية  
تغطي بالأولوية مغارة بالمصطنات الإسبانية والمغربية الثرية.

وقد ساهمت مجاورة القبيلة لنا، في رفع أمان منتوجاتها المصدرة إلينا، كالماشية بكل  
أنواعها والصوف والزبدة والبيض.

ويطلق الفرنسيون إسم مرسى ملوية على الخليج القاتم بمصب النهر الكبير، بواسطة  
الطريقين الموجودين برأس الماء Cap de l'agours وبقنابس الموجود غرب مصبة سيدة.  
ويمكن لمصب ملوية الخليج أن يكون في المستقبل، عبارة عن ميناء حربي وتجاري رائع.

## القرى الرئيسية بتريفة

- قصبة شراعة وتوجد على واد يحمل نفس الاسم. وهي قرية صغيرة، يؤمها العديد من الزوار الذين يأتون إليها للتبركة بوليين صالحين معروفين وهما: سيدي ميمون وسيدي منظور.
- واد بنيت المنازل فيها بالطين المزوج بالطين، وهي حالية وغير متينة.
- قصبة هورة ( المهيمون ) وتأتي هذه القصبة بمضى الجنود المغاربة المخطئين دوما وراء أسوارها. وهي عذو مهجورة في السنين الأخيرة.
- الزوايب، وتحتوي على حوالي خمسين منزلا.
- القلعة، وتوجد على الحدود مع فرنسا ( الجزائر ).
- القوى العسكرية: 6 آلاف فارس، عدد السكان الممثل، 30 ألف نسمة. المنطقة سهلة وتوجد بها دولابز متقلبة في كل مكان . لما الأهمية فهي عامة تقريبا.

## قبيلة أولاد ستوت

### ( أبناء المرأة الثرسمة أو الغولة )، ( التسمية عربية )

نجد أولاد ستوت بالجانب الغربي لتريفة. وهي قبيلة من العرب الرحل الذين يسكنون الخيام. وتتلف من حوالي خمسين من الدوابير الشاسمة التي يحش سكانها في التباقي المنبسطة للقرات المسطحة على المنطقة، حيث يخطونها برده الأصر الرملي. ونجد بالغرب بني بويحيى وبالجانب بني وكيل ( الدهرة ) وبالشرق بني زناسن وبالشمال كهدفة.

ويجري نهر ملوية بمنعرج صغير ، جنوب القبيلة. أما واد قارت فيتخرج من الشمال إلى الجنوب حاملا مياهه ذاته المذاق المالح ( شلوق ) ولتقل الحموضة، إلى أن يلتقي مع ملوية عند شمال بني محيو. ويمنح هذا النهر الحياة لكل تلك المنطقة القاحلة. فبدونه لن يتمكن الرحل من الإهتمام عن ضفاف ملوية ولن تكون قطعان الماشية بمثل تلك الجمال. والماء ذو المذاق المالح ليس هو ما قد يحقده سكان المناطق الباردة. فهو ممكن العطش بشكل جيد ويجعل من يتلوه بدينا ، وأهم ما يميزه بالنسبة للسكان الرحاة، هو مساعدته في تسمين الحيوانات التي تشره.

وهذا على الأقل هو رأي الرحل.

والأقسام الثلاثة لأولاد ستوت هي: أولاد زهير بالشرق، القلوت ( الجاف ) بالوسط  
 ولبناس ( المنكرون ) بالغرب. وعلى طول امتداد القبيلة ( 20 كيلومترا طولا وعرضا ) لا نجد  
 قرية ولا منزلا، مع استثناء واحد بالشمال على حدود كبدلة، حيث تبرز قلعة صغيرة بلوي إليها،  
 في زمن السلم، القرويان المنزليون الذين أرسلهم سيدهم لممارسة السلب أينما حلوا دون أن  
 يخطئوا أحدا. إنها قصبة ملوان، أي ملجا والسلاون بالنسبة لأولئك المحبوبين المقيمين بها.  
 وفي فصلي الشتاء والربيع، تقيم أكثر من 500 خيمة أجنبية بأراضي أولاد ستوت،  
 وتشمل العائلات ومواسمها. وتستغني الخضرة سريعا تحت أسنان الحيوانات المجترة التي ترضى  
 بكل حرية في المروج الشاسع جدا. ويتمشش أولاد ستوت، باعتبارهم رحلا، مع قوافل الجند  
 ويراقبونهم شمالا وجنوبا، عندما ينفذ الكلا بأراضيهم. وتتحرك الحشود العظيمة باستمرار،  
 متوجهة دائما إلى الأمام، حيث تكتفي على كل ما هو أخضر وتلتزم صفوفها بالأهالي الذين نفذ  
 الكلا بمراهم أيضا.

وعبر نهري القلوت وسحاري أنجاد، تتمازج قبائل الرحل فيما بينها والتحالفات والتماثل.  
 فالمعرب يجتمعون فيما بينهم وكذلك الأمازيغيون. ولدينا تكتفي الحشود من العرقين، عندئذ تنشب  
 المعارك بسبب مجرى مالي أو من أجل امتلاك مرعى متنازع عليه منذ القدم.  
 واليوم، وبعد لزوم من الصراعات القديمة أصبحت أراضي قبور محددة، بحيث تمكن  
 كل عرق وكل قبيلة من تجديد سجلها الخاص إلى جانب المتألمين الآخرين، الأغوياء والضطاء.  
 ويتم احترام هذه الحواجز المصطنعة التي تظل قائمة بفضل الخبرة المأخوذة من المعارك القديمة  
 واحترام التقاليد المتفق عليها.

إن أولاد ستوت لا يعضون لأي أحد، فهم أناس خطيرون، نصوص ولطاح طرق،  
 لنكهاه بشكل كبير وحائنون. فحسب رؤية زوج من الفحل الجديدة أو غنم يلمع أو ثوب نظيف  
 إلى حماء، يلهب طمعهم وينضمهم إلى ارتكاب الجرائم. ويصل بهم الأمر إلى حد سلب بعضهم  
 بعضا، لأنهم مستعدون للذهب على الدولم ويتحنون الفرصة للتكساف على فرسهم.

وهم يشتركون فيناطق الإسماعيلية والبضائع من ملوية. ويسمح لهم القبطيون المتصلحون  
 معهم، باحتياز أراضيهم مع أخذ الاحتياط مذهبهم والمستوى عري اللغة والملبس. وهو يتكلم لغة  
 عربية خالصة، بل ويستعمل عبارات منتقلة. وهناك في قلب الصحراء، وفي أنابي السيط تحت  
 سماء صافية، يحدث تلقى خاص بالصلاحة وحذاري من أي خطأ نحوي Solécisme .  
 فالمسكين الذي يرتكبه، يتحمل وزره مدى الحياة، إذ سيشار إليه دوما أثناء الحديث، بالكلمة التي  
 شوهها. وقد رويت لي حالة شخص معروف تحت لقب قلاعي، فهذا لشخص السيئ الحظ أخطأ

في لطف كلمة القوع ( اشرعة السفن). وقد حاول تدريك خطفه وتبرئة نفسه، لكن بعد فوات الأول، بحيث كان محط سفيرة الدوار كله وبقي القلب مكتونا به.

وكما كان الشأن في عهد الرسول (ص) وفي المرحلة الزاوية لما قبل الإسلام، فإن البدو كانوا هم سادة اللغة وكانوا خطيبين راقعين. لذلك، كان من اللازم الإكتمال بينهم لدراسة أعلى اللهجات العربية وأكثرها جاذبية وصعوبة. والمستوفي الوحيد الذي تمكنت من استشرافه حول منطقته وحول المغرب، كان يتكلم عربية فصحة. وقبل أن يودعني أشد الأبيات قتالية، بخصوص هذا العمل الجبار الذي أقوم به؛ أبيات يمكن نراعي متوتري من عشر سنوات أن يلهمها لأول وهلة، وهو ما لا يمكن المستعرب الأوروبي أن يتوصل إليه ما لم يقض سنوات عديدة في دراسة العربية وسط البدو. ونقول الأبيات:

|                               |   |                             |
|-------------------------------|---|-----------------------------|
| تظهر الأنفاس بالقلعة والفرديد | ⊕ | وسط الهم الفخار ملجون سفونك |
| ما قصد مرمى تلجأ رواح الفيد   | ⊕ | وميد الفجع غيظ فيها سهره    |
| نحيا كل نهار على إقليم جديد   | ⊕ | مكتم ذا المشقة فلاح سفونك   |

إن السنوتى المنطق والمحتال لا يكتفي بكونه لصا وشاهد زور، بل هو أيضا ناعم وسفري وقح. فهو لم يعد يتذكر العبارة القصيدة للرسول محمد (ص)، القلاء موكل بالمنطق (بالعربية في النص الأصلي).

ويتهكم لقاء حديثه، على الجميع وخصوصا على الأساقطيين الذين يدرك عيوبهم بدقة. وهو لم يسبق له أن رأى نصرانيا أو يهوديا، ومع ذلك فإنه ينسب إليهم كل رذائل الدنيا، فكلمة رومي هي شتيمة خطيرة؛ أما لفظة اليهودي فهي حقيرة وبمثابة (معلقة قلعة، لا توجه إلا للحيوانات القذرة ولا يمكن أن توجه أبدا إلى حيوانات محترمة كالحصان أو السلوقي مثلا.

وهؤلاء الرجال الذين يعيشون تحت الفيلم ليست لديهم مبادئ ولا مدارس. وتقول المجلات الميسورة على مرين، تقتصر معرفتهم على القرآن الذي يتم تحفيظه للأطفال دون تفسير.

وأرسان القناد مقبولون بالقبيلة. وقد التفتحت العدة أن يستقبل الفارس الذي أرسله سيده إلى الدوار من أجل مهمة؛ استقبالا لائقا. ذلك أن كل عائلة تقدم له يوميا وبالقنوط، دجاجة ورطلين من الدقيق ونصف رطل من الزبدة ويضع غرامات من قشاي ووجبة من الفخير

لحصانه. ويصلح له تعويض يومي من خمسة فرنكات، على حسب ذلك أو أولئك الذين كانوا سببا في مجيئه إلى القبيلة. وتتم الأمور بنفس الشكل تقريبا في كل دوائر وجند.

إن توافل القدرة المتوجهة إلى مليحة لشراء البنادق والبرود والخرطوشات والسكر والشاي والملابس القطنية، تمر عبر الحدود الشرقية لأولاد ستوت وتصل إلى تريفه، ثم تتوجه بعد ذلك إلى قلعة القشتالية مرورا بأراضي كيدانة والعبه. ويمكننا أن نتصور أهمية المعاملات التجارية من خلال العدد التقريبي للتوافل الذي يصل إلى مائة مليوناً على الأقل، في حين يتراوح عدد الموائشي ما بين 100 إلى 500 بالنسبة لكل قلعة. ألا يتكلمون بأن العديد من الأسواق الحرة الموزعة على حدودنا، قد توافل بعض التوافل أثناء مرورها؟ هل سيتردد الأهالي في التصاد مئات الكيلومترات لو وجدوا عندنا نفس الأمان البهجة ونفس البضائع الموجودة عند الإسبان؟ إن طرح السؤال هو الطريق إلى حله؛ إذ يجب علينا أن نبدأ بمواجهة الممثل القشتالي (مليحة) تجاريا، وأن نشجع جيراننا المغاربة على اتباع طريق الشرق، ونبرهن لهم بأن الصناعة الفرنسية أفضل من صناعة العديد من البلدان الأوروبية الأخرى.

ويتكون الطعام الأساسي لأولاد ستوت من كسكس الشعير، كما يشكل الحظرون المطبوخ والكتيلة (جبن مصنوع من اللبن المظلي) طعاما إضافيا مرغوبا فيه. ويراب الطيب عبر خطه بالشوك الداخلي للخرشف (الحكة).

قد احتفظ محمد بن الطيب بذكريات سيلة من أولاد ستوت. وتؤكد الرواية القليلة على أنه كان صالبا في حقه عليهم. ففي أحد الأيام، قنس وسط مجموعة من الحصادين والمولومين الريفيين، الراجعين إلى ديارهم بالقبائل الموجودة بالريف. وكان ضمن هذه المجموعة رجل يدعى السباعي، أصله من أولاد السبع ببلقيم مراكش. وهو متزوج من امرأة شابة من أولاد زابر (قبيلة أولاد ستوت). وكان هذا الرجل راجعا إلى دياره الواقع قرب سوق الأحد، حيث كان صهرا وزوجته بانتظاره. وقد سبق لابن الطيب أن اشترى من سوق الجمعة الذي غادره، نطلين جديدين من النوع القنسي. وكان هذا الاقتناء سببا في إفراغ جيبه، إذ أدى ثمن النطلين لفرنكين وخمسين سنتيما، وهذا كل ما كان كسبه من جراء بيعة حجابا لهدوي عتيده، مدعيا بأنه بقي من أمراض الحيون. ولأنه كان مطمئنا بتواجده وسط الحصادين، فإنه لم يخف نطليه داخل قلنسوته، بل لبسها وتابع السير مع رفقه الذين كانت أرجلهم العارية والوسفة تتكاض بشكل مثير مع الجلد الأصفر الجميل للنطلين. ولم يكن السباعي هو الوحيد الذي لاحظ ألفة الدرويش غير المعهودة، إذ أن رجلا يلبس مثل هذين النطلين لا بد وأن يحمل معه نقودا، والمهم هو سلبه متاعه دون إثارة انتباه أي أحد؛ لذلك وجب استكراهه إلى ديار الزوجة والصهرا، وسيكون هذا الأخير مسرورا

بالوصول على بعض القنود القضية كسكافا له على قواطئه. وعندما اقرب الجميع من سوق الأحد، أظهر السباعي فجأة لطفه، وتوسل إلى الرحلة بأن يقبل المجيء عنده والاستراحة داخل خيمته الصوفية. وقبل محمد الدعوة، متريكا حيلة مضيقه. لكنه لم يكن لديه مال وكانت ملابسه في حالة رثة، فما الذي يمكن أن يقطعه هذا الرجل؟ هل سيقوم بقتله؟ إن هذا غير ممكن، إذ لا يقتل الإنسان بدون سبب، حتى ولو كان في المغرب..

وعليه، خاطب الدرويش السباعي قائلا: "سأرافقك إلى حيث تسكن". ولم يخطر بباله ما قد يحدث لعليه. إثر ذلك ودع مجموعة الحاصلين الذين تابعوا سيرهما ورافق مضيقه، معتقدا بأنه سيظهر بظلم جيد وسيضعك على المغربى الطماخ.

ومن حينه، فإن السباعي كان يتصور بدون شك، أن المقتنين أو الثلاث ساعة فركه التي بحوزة الدرويش ستطيه من الحصاد الشاق لمدة سنتين أو ثلاث سنوات. وعند وصولهما إلى الدور، تبادل السباعي وسهره نظرات ذات معنى، بخصوص التعامل مع هذا الغريب. لكن لسوء حظهما، فقد كان يتواجد بالخيمة خمسة رجال من أصدقاء المظلة، وصلوا في الليلة السابقة وكافوا يتأهبون للذهاب إلى سوق الأحد بعد تناول الغذاء. وأعلن الدرويش على الفور: "هذا أمر جيد، سأذهب لذا أيضا إلى السوق وسأخذ الطريق معا". وكان ينظر إلى مضيقه بتهكم؛ غير أن هذا الأخير لم يظهر انزعاجه وغير خطئه، حيث نصح الرحلة بمرافقة الرجال الخمسة الذين سيذهبهم صهره. وبعد تناول الطعام الذي كان مكونا من خبز قشعير والزبدة والصل، أخذ الجميع قشاي. وعند الساعة الرابعة بعد الظهر استعد المسافرون للرحيل بعد أن خفت حرارة الشمس. وودع الرحلة مضيقه السباعي بتكرار مصطنع قائلا بسخرية: "يا عزيزي، كفاك الله وملا منزلك بالأطفال... وأهلك... ومنحك السمادة..". وتظاهر السباعي بالفتور بفعل هذه الدهوات المتتالية، وأعلن بأنه غير رايه وأن بإمكانه مرافقة الجماعة. وإثر ذلك، أمسك بيد الدرويش، وهي علامة على رويط الصداقة لدى المغاربة.

ولما ابتعدوا عن الدور بحوالي كيلومترين أو ثلاثة، تظاهر السباعي بالمخرج وطلب من صهره بأن يتابع السير مع الرجال الخمسة، ثم شرع يشتكي قائلا: "ألمنة على هذه الأحجار، لقد أمت رجلي. ولت يا عزيزي محمد إيق معي وسأتكلف بإرشادك، أما الآن فسأكون عليك من جانب وعلى عصاي من جانب آخر". ولم يكن بإمكان محمد الاعتماد عن الرجل الذي كان يمسك به بيد حديدية. أضاف إلى ذلك، أنه لم يكن يملك قلما ولحدا، بحيث سيكون الآخر هو من سيقع في الفخ. وتابع السير فترة من الزمن صامتين، ولم يعد يظهر أمامهما أحد. عندئذ توقف السباعي فجأة ولبان عن وجهه الحقيقي، صارخا في الدرويش:

- هل هناك نقود؟

- لا

- سأقتلك

- فعل ما تريد.

ولما غش السباعي بخفة دون أن يجد ولو مستقما ولحدا، لفلل وصرخ في وجهه قائلا: "أيها المغاربة الكلاب، تغفرون بلكم لممارسة شطارتكم في جهة أخرى. ها أخرج نطوك". ولم يكن محمد يتوقع هذا الأمر، فعاول المجادلة وإقناع اللص بأن رجليه أكبر من النطين؛ لكنه سينفلي سريعا عن محاولته أمام العصا المرفوعة فوق رأسه. هكذا، وضع السباعي المسروقات بقدموته وقفل راجعا إلى الدوار. وبعد أن سار عشرين خطوة، خاطب الدرويش قائلا: "أه، لقد نسيت، ها هي طريقك قتي ستوصلك إلى وجهتك". وكانت يده تشير إلى الوجهة غير الصحيحة، قتي أن يتبعها محمد طيما. وافترق الرجلان، وأخذ كل واحد اتجاهها مقلدا للآخر. وبعد ساعات من المشي المتعب فوق أرض حارقة، وصل محمد إلى دوار كبير. وتحت الخيمة قتي لقي بها القرحاب، فرح بلقاء أناس سبق له التعرف عليهم بمزوجا (كلمة)؛ وهم أقرباء للقائد الحاج حواء. وقد اضطروا لمغادرة قبيلتهم بعد نفي الجماعة لرئيسهم. وكان القائد يحث معهم، على أمل أن يرجعه تمرد ما بقبيلة إلى منطقته.

وبعد أيام، التقى الدرويش وأصدقائه في سوق الأحد، بالسباعي القوي وهو يتجول بالنطين المسروقين. واقترب منه القميون بفرض استردادهما إلا أن المجرم أكد بلغة لصيحة، بأنه هو مالك النطين وأن الرحلة كذاب وهذا خير تبرير للمثل العربي المتعلق بقبيلته والذي يقول:

لولا ستوت مولا بهوت      ﴿      الله لا يرحمها يوم تموت

وحسب أسطورة عربية قديمة، لها علاقة دون شك بنفاق هؤلاء الرحل وبتسمية قبيلتهم لولا ستوت قتي تعني أبناء المرأة الشريرة أو الغولة، فإنه في الزمن السحيق الذي لم تكن فيه هذه المنطقة الرحبية مأهولة بالسكان بعد، فإن أهالي المناطق المجاورة لاحظوا يوما تولد غولة يتبعها اثنين أو ثلاثة من أبنائها. وكانت تجوب المنطقة قتي منعتها اسمها وقتتهم للناس الذين تصادفهم في طريقها، كما تطعم أبنائها لحم الأنمييين.. ولم يعرف أي أحد من أين أتت، كما لم يظهر برفقتها أي ذكر، سواء كان غولا أو إسياء، وهو ما دفع إلى القول فيما بعد، بأن لولا ستوت

سوت لا لب لهم. وبعد أن نشرت الخراب حولها عدة سنوات، انقضت فجأة على ابن ذهبت؟ لا لب يعلم، لأنه لم يرها لب بعد ذلك. لكن أبنائها ظلوا بصحراء القلوت، ومنهم تاجر أولاد سوت الحافين، الذين يعتبرون غير خلف لغير خلف.

### معلومات عامة حول أولاد سوت

بانسكتاء الصبة سلون، ليست هناك منزل مبنية فوق كل تراب هذه القبيلة من الرجل. وتعتبر الأسكن التي يقيم فيها سوق الأحد وسوق الجمعة بشمال القبيلة، عالية ومنبسطة مثل راحة اليد، إذ لا وجود فيها لمسكن ولو من الطين والطين. القوي العسكرية: 4 آلاف فارس، مسلحين بهنادق إسرائيلية. عدد السكان المحتملين 10 ألف نسمة. المنطقة منخفضة ورملية، لكن توجد بها مع ذلك، بعض حقول الشعير. لتطعيم شبه منظم. الاستقلالية مطلقة.

### قبيلتنا بني زلنسن وبني محيو

( تحليل لكلمة محيو أو ماضي )

بعد أن غادر منطقة أولاد سوت الهندسة، توجه محمد إلى قبيلة بني زلنسن، وهناك طلب الأكل واللباس والغطاء من زواوية سيدي رمضان ببني منقوش. وكان بقرابوة حوالي عشرين طاقبا مجدين ومنهمكين في حفظ سيدي خليل، ذلك القبطي العربي المعروف بالقتضاب وخموض أسطوبه. وعلى مدى شهر، سيجعل القرويش من هذه القوية مركز " عملياته ". بعدها سيقضي شهرا عند بني عتيق وشهرا آخر عند بني ورعش وشهرين عند بني خالد، متقللا عبر الجبال والواديان. وهذه العجالة مستعجلة في سطلها، لأن القبيلة توجد كلها تقريبا وسط كتلة جبلية، تضامها في جمالها وخضرتها أجمل المناطق الزويفية التي سبق أن زلناها. وتعد شرقا وفي الشمال الشرقي ببلقيم وهران وشمالا بتريفة وفي الشمال الغربي بكبدلة وغربا بلولاد سوت وبني محيو وجنوبا بقبائل الدهرة. وهي تمتد على مسافة أربعين كيلومترا من كل الجهات. وتتفرع على أربعة أقسام وهي: بني خالد، بني منقوش، بني عتيق، بني ورعش ( أولاد المجموعة )، ( التسمية عربية أمازيغية ). وكان من العتسي أن تندمج قبيلة بني محيو الصغيرة جدا داخل جارتها الشرقية الكبيرة، حيث تضمن لها بشكل مطلق ماذ قرون.



وقبيلة بني زنانين مستقلة تقريبا، رغم المجهودات المتتالية للسلطان الذي يقوم بكل ما في وسعه لمظفر منها بما يشبه الولاء، لذلك فإن قبلاها هم أول من يثير الاضطرابات، حيث يتسبون في الحروب بهدف تضخم ثروتهم.

ولكي لا نفلت معزولة بجانب السكان العرب والأمزيغ المتحدون، فإنها كانت ملازمة، رغم الحصون الطبيعية التي تشكلها جبالها، بالانضمام إلى قب لأجداد الذي يشمل بني زنانين، بني محيو، تريفه، كبدانة، أولاد ستوت، بني بويحيى، المنجة، بني بوزيكو، لمهابة، بني يحيى، بني وكيل، الزكرة. وهناك مجموعتان متميزتان تفصلان هذا الكف الهائل، فمن جهة يوجد العرب ومن جهة أخرى يوجد أمازيغيو زنقة أو الزناتيون.

ويمثل العرب كل من تريفه، أجداد، لمهابة، المنجة، بني وكيل، أولاد ستوت وكلهم رحل يعيشون بالسهل وبالصحراء.

وبالنسبة لزنقة نجد بني زنانين، بني محيو، كبدانة، بني بويحيى، بني بوزيكو، الزكرة. وتقوم روابط تضامنية متينة بين قبائل كل مجموعة، وغالبا ما يتنازع العرب والأمزيغ فيما بينهم. حينها تحدث مجازر رهيبة وغزوات شرسة، يظل الفريق المهزوم على إثرها، منهوك لقوى مدة طويلة.

وتتملك قبيلة بني زنانين أراضي شاسعة وجميلة ترويتها المياه بكثرة وتتمو فيها الأشجار بوفرة وتحيط بها الجبال العالية الأظنة بالسكان. وتظهر كتلة قتل التي بدت من قبل وكأنها عارفة في رمال القارت، وقد اكتست سمها بالفتوح في فصل الشتاء. وتشكل هذه الجبال مساحة شاسعة محاطة بالسهول من كل جانب، ففي الشمال توجد الأراضي المنخفضة لتريفه وكبدانة، وبالعرب هناك الأفق الشاسع للقارت القاحل والجنوب توجد صحراء أجداد وبالشرق هناك الأراضي المتموجة إلى حد ما، على الحدود الفرنسية ( الجزائرية). وهي تشبه كتلة جبل الوسط الفرنسية وإن كانت أعلى منها، وذلك من خلال الركاب المتشبب للسلاسل الجبلية التي تمتد إلى السهول المحيطة بها. وتمتد السلسلة الرئيسية، المسماة من طرف الأهالي بجبل بني زنانين، من الشرق إلى الغرب، تاركة وراءها بالجنوب والشمال، تلالا منخفضة مبنية بالقرى. وعادة ما تأخذ هذه الجبال اثنائية أسماء الأقسام التي تتواجد بها؛ ومن أشهرها جبل تلوغلات ( جبل الغولان أو الفواكه غير الطازجة) ( التسمية عربية أمازيغية) بالشمال الغربي من بني عتيق.

وعلى القمم، نرى أشجار البلوط والفضق والسندليان والذلب والجوز؛ وفي الوديان وعلى جانب المنحدرات، توجد الحديد من أشجار الفواكه مثل شجر التين والبرتقال والخروب والوز والجوز والافزوف والرمضان والتي تحيط بها الكروم المتسلقة. وفي أسفل التلال والسهول، توجد

الحلقة وشجيرات التين الوحشي بكثرة. وتروى هذه المنطقة الجسيلة بمئات المنابع وبالحديد من الأنهار. ومن بين هذه المنابع نذكر :

- عين صفرو ذات المياه الفلورية والعذبة والصافية مثل البهار.

- عين الصفا وتوجد أسفل العين الأولى.

- عين بني عتيق .

- عين بني موسى.

أما الأنهار الرئيسية فهي:

- واد بني وريش المعروف باسم واد نلكما ( الوادي )، ( التسمية عربية أمازيغية)

ويجري من الجنوب نحو الشمال، عبرا وديانا خصبة، وهو رافد من روافد نهر ملوية الكبير.

- واد زكزل ( الأراسني الفرائشية )، ( التسمية عربية أمازيغية)، وهو يحمل مياهه

الصافية وسط مروج رائعة.

- واد بني وكتان ( واد أبناء العبيد )، ( التسمية عربية أمازيغية )؛ ويشكل عبر الفلقة بواد

زكزل، نهرا عاما، يعتبر أكبر رافد لملوية في الغرب.

- واد صفرو، يجري من الشمال نحو الجنوب ويخترق الدهرة جنوب مولاي إريس.

- واد بني خالد، وهو غير معروف تحت هذا الاسم، ويشتهر باسم واد عجرود ( السهل

غير الناضجة )، ( التسمية عربية ) وواد كيس<sup>64</sup>.

- إن ألسام القبيلة كبيرة وأهلة بالسكان وتتضمن عرقا قويا وشجاعا يصمد في وجه القبائل

العربية الناجية، ونستلني هنا بني محيو، وهم رجل يحشون تحت الغيوم، لأن موقع قبيلتهم يوجد

بالسهل، على عكس باقي الأهالي الذين تتحصن قراهم بالجبال. ويوجد بني وريش للنفاح عنهم

ألف رجل، نصفهم فارس والنصف الآخر مشاة. أما بني محيو، جيرانهم الرجل الذين يعتمدون

على الفرس كنية، فهم يعتمدون حركتي ألف فارس. ولا يتوفر بني عتيق إلا على المشاة الذين يبلغ

عددهم تقريبا 1200 رجل. غير أن الحصن المنيع لبني زناسن، يشكله كل من بني منقوش الذين

يعتمدون لوحدهم 5 آلاف من المشاة، وبني خالد بثلاثة آلاف فارس.

وقد شهدت القرى على ضفاف الأنهار وقرب منابع المياه، وحولها توجد بساتين الخضر

والفواكه الرائحة التي تسر للناظرين.

وسيلاحظ المرء التناقض الكبير مع القلوت البشح الذي تتوقف كتابان رماله عند سفح جبل

وريش..

<sup>64</sup> - يتل اسم واد كيس من أشهر هذه الأسماء.

ولأن ملوية كانت تشكل الحدود القديمة لموريطانيا الطنجية، فإن كل المنطقة قديمة، الواقعة بين زناسن، وجب أن تشكل جزءا من إفريقيا الفرنسية. وتسلل لماذا عوض ولا كيس الصغير، أثناء رسم الحدود النهائية، المجرى الهائل الذي كان يحترق منذ القدم، كخصل طيبي بين علمين مختلفين جدا وهما: المغرب الأقصى (أي للمغرب الحالي)، والمغرب الأوسط (أي جزائرا الحالية) "، ويحترف المغاربة فيما بينهم فقط، بأنه كان من حق فرنسا بعد اقتصارها بلملي، أن تطالب بكل المنطقة المستكة حتى ملوية. وقد أدركت من اعترافهم هذا، كيف أننا خدنا مرة أخرى من طرف الدبلوماسية العربية. قبل أن يرسل ابنه سيدي محمد لمحاربة الفرنسيين على الحدود الجزائرية، قال السلطان مولاي عبد الرحمن: " احفظ برسائي الطيبة وأحرق السينة، لكن كبح ما أمرك به في الرسائل السينة ولا تهر اهتماما لما هو موجود بالطيبة ". وسيتبقى الشاب معلومات أبيه بذلك، وكانت كل مراسلة تتضمن رسالتين، الواحدة ملوية والثانية سينة. في الأولى، كان السلطان ينادي قائده العسكري بالأبهاهم الفرنسيين وأن يكون متسامحا معهم في أقصى الحدود وأن يمنع كل انحراف على أرض المعركة ويوقع في أقرب وقت معاهدة سلام صادق ودائم.

لكن الآن الوجه الآخر للعملة، إذ تقول الرسالة الثانية ما يلي: " قم بحرق هؤلاء النصارى الكلاب، قتلهم أينما وجدتهم ولا تتسامح مع أي واحد منهم، فليس هناك سلم مع هؤلاء الكفار... " ويتاريخ 14 غشت 1844، هرب سيدي محمد من ميدان المعركة، بعد أن انهزم جيشه نهائيا، وقد ترك الأمير خيمته وأمتعته، وحتى مطلقته الشهيرة التي أثارت فيما بعد، إعجاب الفضوليين ببليس.

ولم يبق في صناعته سوى الرسائل الطيبة أما السينة فقد أحرقت عن آخرها منذ مدة. وقد قهر الفرنسيون بطيوبة السلطان الرفوعة. وسيغير هذا الأخير في نفس الوقت، بالتبرؤ مما فعله ابنه، قتل بأن الأمير لم يطع أوامره. وبأن بإمكان كل مطلع على رسالته التأكيد من ذلك. وسقط مواطنونا السذج والطيبيين في الفخ، إلى درجة الاعتذار تقريبا عن اقتصاراتهم. وتغلوا بطيبة خاطر، لعبد الرحمن المنور، عن أجمال الأراضي التي احتلها بقوة السلاح.

\* - ملحوظة المترجم: لهذا في حلقة إلى تأكيد النص الاستعماري الواضح الذي يتخلل كلام موليريس والذي يبرر الأطماع الفرنسية بمنطقة المغرب، بعد أن أصبحت فرنسا السيطرة على جزائرا (1848).

ويبرز على هذه المنطقة التي يمكن تشييدها بسويسرا صغيرة، عبر الحد الكبير من  
الزوايا والمساحات التي نجدها في كل مكان والتي تكون دوماً مليئة بالطلبة وبالمؤونة . وإليك  
أسماء بعض هذه الزوايا.

- زاوية سيدي الحاج محمد المصري، حيث ينشأ "ورد" درقاوة

- زاوية محبي الدين ( "ورد" الشيخ عبد القادر )

- زاوية سيدي رمضان ( "ورد" وزان، أي "ورد" مولاي الطيب)

- زاوية سيدي عبد القادر ( "ورد" هذا الولي)

- زاوية سيدي الحاج بنسعد

- زاوية سيدي علي الهكاي

- زاوية مولاي اندريس

وتوجد سبعة أسواق بالقبيلة وهي:

- سوق الأربعاء ببني وريش

- سوق الأحد بقرية بني موسى ، قسم بني عتيق

- سوق الثلاثاء بتازاغين، قسم بني عتيق

- سوق الاثنين ببني منقوش

- سوق الأربعاء ببني منقوش

- سوق الأربعاء بصفرو ( بني منقوش)

- سوق الاثنين ببني خالد.

ونساء القبيلة أنقفت ومن يذهبن إلى الأسواق مسافات طويلة ولا يغشين نظرات

الرجال. وتدعي بعض الأمسن الخبيثة بأن بعضهن يعانين من برود جنسي. ومن جهةهم، فإن  
الرجال يرتدون جلابة رمادية مفتوحة في نصفها الأسفل، مثل جلابة الكبدانيين. ويضمون  
البرنوس فوقها خلال فصل الشتاء. أما في فصل الصيف فغالباً ما يكتفون بالحافكة. وهم لا  
يكتفون أبداً عن أسلحتهم، وهي عبارة عن بنطق جيدة، تم شراؤها من الأسبانيين بمطالبة وعن  
خناجر من صنع تاهزوتي. ويتحدثون لهجة أمازيغية تسمى الزناتية، وهي متكولة ما بين وجدة  
ودبدو.

ونجد في الأسواق كل متفوجات المنطقة، من أبقار وأغنام وماز وحمير وبغال وجمال

ودجاج وفولكه وخضر وشعير وصوف وعسل. كما نجد مختلف المتفوجات الإسبانية والفرنسية  
كالفحم والبنزول والمكر والشاي والبنطق والخرطوشات والبلرود والقرصان والأتواب. وقد

يتعجب المرء من الكم الهائل للخروب المعروض للبيع، إذ أن الأهالي يشترون هذه الكمسولة الطويلة والمسطحة التي تتخذ أحيانا أشكالاً غريبة. وتقولند شجيرات الخروب بوفرة في كل القبيلة. لكن الروعة تتجلى بالخصوص في بسطين البرتقال التي تسيطر الوديان البهية لبني وريش. وتكثر أشجار البرتقال على طول ضفتي واد زكزل. كما أن قرية زكزل نفسها مليئة في وسطها بهذه الفاكهة اللطيفة وبهذه الأزهار الفاتحة التي يتغنى بها المنشدون لزناتيون. عندما يقومون في فصل الربيع بجولات غنية عبر المناطق الخفية بالقبيلة. ويعود هؤلاء المنشدون إلى بيوتهم محملين بكياس من هذه الفاكهة الذهبية التي تقفوا مقابل إرشادهم والتي ستباع إلى التجار المتجولين الذين سيعرضونها بقصبة العيون ووجدة ونومور وتلمسان.

إن الدرويش الشغوف بالبرتقال والفواكه الأخرى والطيولاء، وبالمختصر بكل ما هو صالح للأكل، سجد في منطقة بني زلنسن جنة حقيقية. وسيزورها مرتين، الأولى سنة 1888 والثانية سنة 1893، حيث إن نفوته الملبى التي تقام بها، بل إنه سينتخذ كل التدابير للاحتفال بعيد الأضحي في القرى المترفة هناك. لذلك نراه باستمرار، متجولا في أراضي القبيلة باحثا عن مكان الوجدة وعن الطعام الجيد.

وبزاوية تزاغين التي كان متحفا بها على الخصوص، لنواعي بطنية لا يتسع المقام لتحليلها هنا، كان الطلبة يحثرون الدرويش غير جدي وغير قادر مثلا على القيام بمهمة التدريس التي تشغل الوقت وتستدعي الاستقرار، والتي كان يقوم بها معلم متعصب ومشاكس، أسلم الروح لباريها. فقد كان الدرويش يهوب البك ويتغيب يومين أو ثلاثة أيام متتالية، ثم يعود من جولاته ملطحا بطول وبالفخر، ممزق الثياب بسبب الأشواك الموجودة بالمسلك الضيقة التي يهوى المرور منها، وسط الكتل الجبلية للمنطقة برمتها.

وفي إحدى الأمسيات، عند السمر، جلب معه إلى لزوية رجلا فقي به وسط الغابة، حيث كان نالها وسط الأشجار الكثيفة. وكان عمر الرجل أربعين سنة تقريبا، وقد تلقى تكوينا متينا بفلس وأجهد نفسه في التصوف مدة عشرين سنة، وما زال مقتنعا بأنه غير مؤهل لشغل كرسي أستاذ النحو بمسجد من المساجد الحديدية بالعاصمة الشريفة. وقاده قدره إلى بني زلنسن وهو خلوي الوفاض، حيث أكرمت ضيقته في كل المساجد التي ينلم بها والتي يغلارها صباها، بحثا عن عمل وطالبا فقط بأن يحظى بتعليم مبادئ القراءة للأطفال من ست سنوات. لكنه لم يجد شيئا، بسبب الحسد الحاد للمتخلفين الذين يمنونه بدون رحمة، من كسب نفوته بشرف. وقد دلم هذا الأمر منذ مغادرته تلمس. وعندما وجد الدرويش مستلقيا فوق العشب، اعتقد في البداية بأنه واحد من المتسولين الجوالين الذين يوجدون بكثرة بالمغرب. لكن، لما تلبعا الطريق سوية وتحققا

معاً، فدهش محمد من العلم الغزير الغريب وكتباً له يستقبل زاهر وينجاح باهر بزائوية مجدي رمضان، شريطة أن يصارع بقوة من أجل تلك المكافأة الثلاثة به، هذا مع العلم، بأن مدعي العلم من الشباب، سيتراجعون بسرعة أمام ثقوبه الذي لا يضاهي. واعتقم الدرويش ثيابه بالقول: ' عندما تحصل على كرسي النحو أنتهى ألا تتسلي؟ ' قال ذلك وهو مخبط في قرارة نفسه، ومخجل لجبال الأطعمة التي ستقدم لمصوبه من طرف العلاقات المسترفة بعلمه. خير أن الرجل الذي تعود على الصور، اكتفى بأن طلقاً رأسه، كعلامة على الموافقة، إذ من الذي يمكنه التنبؤ بالمستقبل؟

هكذا، تلبها سور كصديقين حميمين، سعيدين بالقلعتهما وبتعاقدتهما وببشرائهما إمكانيتهما المحدودة في الصراع من أجل اكتساح الزاوية معرفياً. وعند المساء، كان كل مطمح القرية الذين اغيروا بمجيء هذا المناسخ الخطير، حاضرين تحت قبة الزاوية. وقد أظفر الولد الجديد بالعديد من الأسئلة طوال الليل، لكنه خرج منتصراً بعد هذا الامتحان. وعند تلك اللحظة تقرر لعماده، إذ أن شيخ الزاوية نفسه، الذي تخوف من إشجاع هذا العالم البئيس على حسابه والذي كان قد هبأ ابن أخيه لشغل المنصب الشاغر، لكونه جاهلاً وبليداً، سيستدعي الغريب العلامة وسيطلب منه أن يغير القرية إلى جهة أخرى، يمكن أن تستفيد من معارفه الثمينة ! وهكذا انتصر المطمون ! هذه اللغة الحاسدة، العاقدة التي يطغى عليها الطمع والتكبر والتي ليس لديها من العلم إلا القليل الذي لا يكفيها كي تكون واعية بجهلها وبخطئها الجسيم. فقد أعلن هؤلاء المطمون فتصارعهم وأشاعوا في كل مكان، بأن محمداً الجوال قد تجرأ ليمس مشرباً أكثر عزاً وجهلاً منه. واستسلم الدرويش المسكين بدوره، حيث أصبحت وضعيته القليلة من هذا الفضل صعبة، لذا غادر الزاوية محتلها أثر مصوبه الذي لن يجد أبداً. وعين الشاب المتعلق sémillant لمنصب كرسي النحو، طمأ بأن أهليه كانت تلغص في ثقله لأطواء المنطقة وعلاقة القرابة التي تربطه بشيخ الزاوية. إن أهلي بني زنانن القرييين جدا من وجدة، لم يكونوا مستقلين تماماً. فقد نهجت السلطة المغزنية في أن ترضى عنهم قبلها، كانوا هم أنفسهم مرهقين من طرف أشخاص غامضين، يشار إليهم في البلد كله بلقب احتقاري وهو: " الضاربة " ( الضاربون بالقوا الأضبار ). ولأن هؤلاء المظبرين العاملين بالقبوليس المغزني كانوا يعتبرون بأن من مصلحتهم القتلون مع رؤساء الأهلي، فإنهم كانوا يشتركون معهم في استنزاف الضطاء الذين لا يستطيعون مقاومة الاستغلال. وما زال الناس يتفكرون فيمال ستي بولوار وستي المكي وستي الطاهر الكبدلي. فهؤلاء الضاربون الثلاثة، المكفون بمصلحة الامتيازات، كانوا معقنين ومعتزين ومهتزين في القبيلة برمتها.

إن الإدارة ما قبل التاريخية، أي إدارة الأقوي، هي السائدة في بلاد السبئية . ولقد هدم رؤساء شيوخ وليموا عذارين. ففي كل منطقة مستقلة بالمغرب، تتخالف العقائد الخفية وتكتسب زبناء Clients وتسن القوانين وتكون هي السائدة بدون منازع.

وعنه الفوضى المغربية المغربية التي تشكل موضوع قديمناش دائم للثوريين ليست في الحق سوى أوليغارشية مؤسسة ببلقان، صلت منذ قرون ، وما زال بإمكانها أن تعمل على تعظيم كل جهود ملوك مراكش للصغار roitelets . ورغم ذلك، إذا ما قررنا بأن لقوة الصلبة لهؤلاء السلاطين محدودة، فيجب أن نعترف بالمقابل، بأن سلطتهم الروحية تفوقها حجما. علينا ألا ننسى بأنهم حفنة لرسول (ص)، حيث تجري في عروقهم النماء المقدسة لمؤسس الإسلام العظيم. فمن نوجد هنا بكل تأكيد، أمام نهاية عريقة أفضل بألف مرة في نظر المسلمين، من كل الملوك العظام والأقوياء الذين يتفخر بهم العالم المسيحي.

وفي الفترة التي أقام فيها الدرويش عبد بني زانسن لأول مرة، كان لهذه القبيلة الشرف الذي لا تحسد عليه في القوتور على أربعة قبائل وهم: علي لأورباخ قائد بني خالد، ولد لأوجيل - لأوجيل ( ابن أوتيم )، ( القسمية عربية لأزيغية ) قائد بني منقرش، ولد الصبيب قائد بني حليل، ولد البشير أو مسعود، قائد بني وريش. وقد تلقوا برونوس التحيين من يد السلطان نفسه الذي خاطبهم قائلا: "اذهبوا ولا تفلتوا سلوك أولئك الفونة الذين يشكلون وصمة على جبين الإمبراطورية".

وقد ظلت المغامرة الماساوية لقائد بني زانسن السابق، حلقة بالأذهان على الدول. كان يدهي ولد البشير أو مسعود. وقبل تعيينه قائدا، قدم هو أيضا إلى فاس وقبل الأعتاب الشريفة وأصبح مهيب الجانب في بلاد، حيث حظي بالشهرة بفضل ثروته وكثرة مناصريه. وقد تمكن من القضاء على قتيل العناتين له ببني زانسن و بأنجد. هكذا أصبح رجل سلطة بكل معنى الكلمة، محاطا بقوة عائلة، مستعدا للتمرد على ملكه في كل لحظة ومغربا هذه المنطقة بفضل غزواته المتكررة، ناعنا عامل وجدة بالطفل الصغير. ولأن الأمالي ذلوا فرعا بهذا الطاغية الصغير Tyranneau ، فقد رفعوا شكيتهم إلى فاس، مطالبين بأن الوضع أصبح لا يطاق ولمسحين بأنه إذا لم تتم مساعدتهم، فليهم سونضمون إلى صف ولد البشير الرحيب. ولرسل السلطان جنوده لإيقاف اقتار حد حدهم، لكنهم تلقوا هزيمة نكراء وكان انحصارهم كليا. وعنتما شعر لقائد بنشوة الانتصار، طمع في تسليق القدرجات العليا وسمح لأتباعه بإضفاء لقب السلطان عليه. وقد بذل الإمبراطور لشريف كل ما في وسعه وكل ما يتوفر عليه من حيل، لجلب هذا الشخص المزعج إلى بلاطه. فبحث الرسائل والهدايا والبلاعات بدون جدوى، إذ أن ولد البشير ظل بجبله التي

تصيه من كل هجوم. ولغوا احتدى السلطان إلى أنبل مصيدة، لقد بحث إلى القلعة، مصيحه  
 الفاسدة وتلهل الأسان المكتوب كية بخط يده الشريفة. و " القليل " هو كراس صغير، وسعت  
 على صفحاته مربعات وجدول قبالية cabalistiques ، مرفوعة ببعض السور والآيات القرآنية،  
 والهدف منها هو دمه كل مكروه عن حاملها. وكان هذا هو أسى نيل على الطور المملوح من  
 طرف السلطان، للذكر الذي يمشي على حياته. ولأنه اعتقد بزوال كل عوامل الخطر، ارتكب  
 فقد الزناحي مجازفة تلبية دعوة سيده المغال. وما أن وصل إلى فاس حتى التقى إلى مركش  
 تحت حراسة مشددة، حيث كان ينتظره هو بنفسه فيه بقية حياته وأن يفترقه أبدا.

هكذا تم القضاء على هذا الرجل الطموح الذي كان يقوم سلطنة لأتريفة صغيرة يكون  
 هو لحكم فيها. وقد ظلت ذكراه في الشرق الزبلي راسخة، باحبارها وطنيا شهما، صارح إلى  
 آخر لحظة، عند العرق العربي المنطق. وأصبحت أسطوره، وهي أسطورة جميلة وبراقة،  
 منتشرة وسط الأهالي. وهو ما جطني أجد مصربة في التميز ضمنها بين الصحيح والغالطي. وقد  
 ساهمت شاعرية المنشدين الزناتيين في تسجد ذكرى رجل ، لم يكن في آخر المطاف، سوى قلنا  
 طاهيا وسفكا لدماء وتلها مناقا.

إن بني زناسن هم فلاحون ومربو مواشي، وهم يحارون أرضهم بأنفسهم ويذرعون  
 القمح والقمح. كما أنهم يكترون أو يملكون أرضي تمتد مساحاتها إلى أجداد أو ثرية، ويقودون  
 في فصل الربيع، متلوهم المكونة من الأغنام والماعز والجهاد، وسط هذه السهول الشاسعة  
 والمعروفة بوفرة مراعيها وتوجد الطرائد بكثرة داخل القبية، إذ ترحب الأرتاب البرية والحجل  
 والطيور العابرة في جنة الأحلام هذه Eldorado ، حيث لم يكن أحد يزعجها إلى عهد قريب؛  
 لكن لما رأى الأهالي بأن هذه الحيوانات تنابح بشكل جيد بالجزائر، بدؤوا بصطادونها ويأتون بها  
 إلى محفظتنا، حارمين بنات لوى والجرذان وقملاب وبنات عرس، والعديد من الحيوانات  
 الصغيرة كلكة للحوم والمستقرة في هذه المنطقة الجميلة، من وجهتها المعتكدة. ويتم دفن موتى  
 بني زناسن بشكل عام، في المساج، وهو المكان المقدس الذي يفضل على الأكنة الأخرى.  
 وتطلى القبور الحديثة العهد أو القديمة، بزراعي يجلس المؤمنون فوقها، ليلا ونهارا، للصلاة  
 والأكل والقوم. وإذا ما ملئت منهم قصيرا لهذه العادة القريية فإنهم يجيبونك قائلا: " لا يوجد  
 مجتمع أفضل من مجتمع الأموات فعليه ليس هناك لحدول ولا خيانة ولا أي شيء يثير الفشة.  
 إهم أشتقاء مخلصون ولطفاء غير مزعجين ". ومع ذلك ، يحدث ألا تقنع المساجد لجانين  
 الموتى، إنذاك يكون الأهالي مضطرين لتوفير مقبرة، عادة ما يكون موقعها قرب المسجد، أي  
 تحت ظلال شجيرات التين الوحشي المحيطة بكل المساجد. ولا تطلى القبور الموجودة بالمحرم



بأي احترام، إذ بقي الأممي اقتضاء حاجتهم وسط الصغار دون أن يكونوا على علم بأن المكان الذي يلوثنه يتضمن قبرا عا. وهذا التكنيس لتسليح يحصل بدون وعي من أصحابه، لأن التلوين يطل في العادة قبورا قديمة، يرقد بها أجداد منسيون. ولا توجد شواهد تخبر الأحياء بأن هناك يدعو ثلاثة أو أربعة أقدام تحت الأرض، يرقد جيل بأكمله إلى الأبد.

## القرى الرئيسية ببني زنن

### قسم بني ورعش

- أولاد علي الشهاب، 50 منزلا، على واد تالما، شمال هذا القسم  
- تالما ( الوادي)، ( التسمية أمازيغية)، 100 منزل، على قواد الذي يحمل نفس الاسم. وهي قرية أهلة بالشرفاء الذين يدعون بأنهم حدة فاطمة قزغراء لينة فرسول (ص). وتوجد حول هذه القرية الكبيرة، أربعة قرى صغيرة يسكنها أناس بسطاء، يعتبرون أنفسهم "خدما" لشرفاء تالما.

- سيدي سعيد، 10 منزل،

- سيدي الحاج السعيد، 100 منزل، على واد تالما

- واد البشير أو مسعود، 100 منزل، وتحتل موقعا مدينا وسط الجبال، ويقال بأن واد البشير المشهور شكل بها حادثة وشيد قصرة المعروف تحت إسم الدار البيضاء. وقد تفتت به قصيدة عربية، سألشر نصها الأصلي وترجمتها إذا ما لد الله في عري. ويوجد سوق الأربعاء بالجلوب الغربي من القرية.

### قسم بني عتيق

- تازاغين ( التلمسات)، (التسمية أمازيغية)، 300 منزل، جنوب سوق التلكاه.

- زكزل، ( الأراضي الغرابية )، ( التسمية أمازيغية)، 500 منزل، وتوجد بوادي رافع ملي، بأشجار البرتقال. وهناك يقطن أولاد الحاج السعيد، وهم شرفاء منحرون من مولاي أحمد الإبريسي.

- مولاي إدريس، 300 منزل. إن مثلت لزوايا والقرى المغربية، تحمل الاسم شبه المقدس للمؤسس العظيم لأسرة الأندلس؛ لا تحكي الأسطورة، أن إدريس الأول كان يحب تشييد المساجد أينما حل. وتوجد القرية التي تهمنا غير بعيدة عن منابع واد زكزل.

- بني موسى، 500 منزل، على المنحدر الجنوبي لجبل بني عتيق.
- أولاد الطيب، 50 منزلا، عند بداية سهل بني عتيق.
- العطش، 100 منزل، توجد بسهك جنوب شرق سوق الأحد. وهناك من يزعم بأن القرية تحمل هذا الاسم، لأن سكانها مهتمون في صنع المطاطيش ( مفردا عطوش وهو هودج يوضع على ظهر الجمال).
- سيدي بوهريّة، وهي زاوية فضة توجد بالطرف الشمالي لسحراء أنجاد. ويأتي أهالي بني زناسن وكل قبائل الرحل لزيارة قبر هذا الولي الصالح الذي لم تمكن من التوافر على أية معلومة تتعلق بسيرة حياته.

### قسم بني منقوش

- سيدي رمضان، 100 منزل، وهي زاوية شهيرة أسسها سيدي رمضان. وقد توفي خلفه المباشر سي المكي في السنة الماضية (1894)، وكان هو "مقدم" طائفة مولاي الطيب الوزاني. وتتوافر هذه الزاوية على أتباع كثيرين ببني زناسن وبني سلوس، عندنا ( بالجزائر ) . وقد خلف سي ملطاح بن السي المكي والده في الوظائف السامية لمقدم زاوية مولاي الطيب.
- مولاي إدريس تريفّة، 10 منازل. سكانها ورعون كثيرا . ويوجد بالجنوب سوق الأربعماء الذي يقع مثل القرية، على واد بني وكرلان.
- زاوية سيدي الأخضر، 10 منازل، أهلها من الشرفاء.
- زاوية سيدي علي البكاي، 100 منزل، وتتوافر هذه القرية على زاوية كبيرة مأهولة بأتباع زاوية سيدي محمد بني بوزيان، سيد مدينة القناسة بالدهرة . وكان سيدي علي البكاي مجذوبا شهيرا. ويحاط واد بني وكرلان من الجانبين بزوايا عديدة . ولربما ، لهذا السبب سمي بواد العيد، أي عيد الله.
- الكتلة، 200 منزلا، قرب منبع واد بني وكرلان. وهناك احتفل محمد بن الطيب سنة 1893، بعيد الأضحي.
- أيت عبد الكريم، 20 منزلا، غير بعيد عن منبع واد صفرو.
- مولاي إدريس الكتلة، 50 منزلا على واد صفرو. وهي زاوية كبيرة لمولاي إدريس. وترجع هذه التسمية إلى وجود نخلة كبيرة، بالغة القدم، يقال إن السلطان الإدريسي الشهير، قد حرسها هناك. وهو ما يجعل عمر هذه الشجرة المحترمة يناهز 1105 سنة !
- أولاد ميمون، 100 منزل، على واد صفرو.

- صفرو ( أصبح ثوبهم أسفراً ) ( التسمية عربية )، 500 منزل على واد صفرو - وحسب الأسطورة، فإن اسم هذه القرية الكبيرة يرجع إلى أسرى الحرب الذين كان أحد السلاطين قرناتيين يسجنهم داخل زنزقة لمدة طويلة، إلى أن يتأكد بنفسه من أن لون جلدهم أصبح كالزطران، آنذاك يطلق سراحهم ، لكن هؤلاء المسكين الذين بلغوا أقصى درجات الإهانة، يموتون بعد ذلك بقليل.

وصفرو عبارة عن مدينة صغيرة مليئة بالمساجد والقوليا، ويوجد بها عدد كبير من الطلبة، وما زال الدرويش يتذكر بنوع من الحنين، المأبذة الكبيرة التي أقيمت سنة 1888 بمناسبة عيد الضحى، آنذاك حمل معه ذكرى طيبة عن عاصمة بني زناسن.

- مولاي إدريس متاع صفرو، 10 منزل، على واد صفرو جنوب سوق الجمعة. وهي زاوية صغيرة مخصصة لمولاي إدريس.

### قسم بني خالد

- أهبال ( العمر )، ( التسمية أمازيغية )، 100 منزل، جنوب سوق الاثنين. وتوجد بها أشجار ومناجع مليئة عديدة.

- تاهجيرت ( الزرة )، ( التسمية أمازيغية )، 100 منزل؛

- أوقتي ( السهل )، ( التسمية أمازيغية )، 100 منزل؛

- زاوية ماضي الدين، ( المقصود بهذه التسمية، من بلغى القديسات الأخرى، وهو لقب الرسول ( ص )، 10 منزل، وكانت تسمى من قبل زاوية مولاي عبد القادر الجيلالي. وفي السنين الأخيرة، كان يدبر شؤونها " مقدم " يسمى ماضي الدين ( ماضي الدين ) ويشرف على " قورد " الخاص بزاوية هذا الولي الصالح. وقد عرف هذا الشخص بزعمه الكبير وأصبح مشهورا بالمنطقة، إلى درجة أن الزاوية تشتهرت باسمه. وقد توفي سنة 1892 وترك أبناء عشرين، تولوا الإشراف على الزاوية من بعده. وتقع هذه الأخيرة عند سفح الجبل، وجهتها الشمال، وتحيط بها مساتين الفواكه الرائحة، كما أنها غير بعيدة عن منبع واد كيم.

\* - ملحوظة المترجم: لا ندرى من أين استمد المؤلف مبرور هذه التسمية. ونعتقد بأن الأمر يتعلق بمضي الدين وليس بمضي الدين.

- زاوية الهيري، 10 منزل، جنوب بني زالن. ويقام بها " ورد" درافو. وقد كان مؤسسا سيدي الحاج محمد الهيري كريما إلى درجة أنه كان يهب دوما للمسكين الذين يطلبون الصدقة، فطما من اللحم دون عظم ( عبرة)، ومن هنا جاء اسم الزاوية. كما أن حفته العائين يتميزون بكرمهم الكبير. وهناك أكثر من 100 قرية صغيرة موزعة على القبلة. قنوى العسكرية: 11200 رجل. نصفهم فرسان والنصف الآخر من المشاة. حدد المكان المحتمل: 56 ألف نسمة. المنطقة جبلية. التجمعات القروية منتشرة بكثرة. وهناك العديد من المساجد والزوايا، كما يتميز الأعالي بالتمصص المطوط.

### قبيلة مفراوة

#### ( أرض الإثلاف ) ، ( التسمية عربية )

سهر محمد بن الطيب بجنوب أريف، عبر أولاد سقوت، بني بويحي، لمطالصة، مفراوة ، بني بشير، ثاركا وراية قبيلة بني زالن ومحمدا كهدف، حرب إقليم جبلة. وحين أن يغادر نهايتها هذا الإقليم المتوسطي الغريب، حرص بشدة على معرفة كل القبائل المتواجدة فيه. هكذا، استمر في تجواله مدفوعا بمصوره المصيب، الذي يجعل منه أحد أروع المكتشفين في هذا القرن ( التاسع عشر).

لقد اجتاز دون توقف المناطق الريانية المعروفة لديه، وفي الطريق كان يلتقي أحيانا بأصدقاء قدامى، يطالبونه دون جدوى، بالبقاء معهم. لكنه كشخص دائم التجوال، كان يقبل ضيافة يوم، بكل فيه جيذا ويقام بشكل أفضل، وفي الصباح، وبعد أن يلفس الفيل عن ملابسه، يتابع سيره، بعد أن يكون قد خاطب مضيقه بالمباركة التالية: " القعدة سجن والسجن قبر".

ولغيرا وصل إلى مفراوة، وهي قبيلة صغيرة تشكل أقصى نقطة في الجنوب الرياني. وتوجد مفراوة ، المحاطة من كل جانب بأراضي جبلة باستثناء الشمال حيث ترتبط بالقبيلة كزناية، في موقع يحميها من الهجمات المستمرة لجيوشها الأقوياء. وهي تشكل المنحدرات الشمالية للسلسلة الكبيرة من الجبال الجنوبية بأريف. وتسمح لها سلطتها الصغيرة التي لا تتعدى عشر كيلومترات من كل الجهات ، بأن تكون متغلغلة بالقسم الريانية الأخيرة التي تطل منطقتها من بعيد، جهة الجنوب، على مدينة فلس الكبرى.

وعلى ما يجري وقد مغرولة في الوديان العميقة، حيث يشق بصعوبة ممرا في الأرض غير المستوية. وفي كل مكان، تتراعى للتأخر خضرة بالغة. فالتجار القلوط الضخمة تظل شجيرات جميلة، نجد من بينها على الخصوص، شجيرات الصنوبر ذات الرائحة الزكية. وعلى طول النهر، تشكل أشجار الصنوبر والحمور، قمة من الأوراق الكثيفة فوق المجرى الصغير الماء الصافي الذي يمر بين الصخور، رغم وفولها حاجزا أمامه. وتقولى القرى الكبيرة والصغيرة، حيث يوجد بعضها داخل الغابة. أما البعض الآخر الذي يشكل الأغنية، فيوجد على سفان النهر.

إن أعالي هذه المنطقة الجبلية منزليون، فهم لا يرحلون ديارهم ويكرهون جدرانهم، حرب جبلة، الذين يخشون غدرهم. وهم أمزيغ لها من جد، يتحدثون تلمزيغ الحرقية ولا يلمسون كلمة واحدة من اللغة العربية، ويرتدون جلبية رملية، يوضونها في فصل الصيف فقط بالحذاء، لأن المناخ بارد في قمم جبالهم. ويحترق الشجر زراعتهم الرئيسية؛ وفي بعض الأجزاء غير المعرولة، تلبث الحقة التي لا تستعمل إلا نادرا.

غير أن البرد والطعام الرديء وهباب بساتين الفلكية والخصر، ستمجك برحيل الدرويش الذي لم يستقر سوى مدة قصيرة بهذه القبيلة التي تتضمن قسمين وهما: أنرار ( الجبل ) ( القسمية أمزيغية ) وإيمانين ( المتكلمون )، ( القسمية أمزيغية كذلك ).

ويوجد كل قسم 1500 رجل مسلحين بالبنادق، أي ما مجموعه 3 آلاف من المشاة. أما عدد السكان المحتمل بالنسبة لكل القبيلة فهو 15 ألف نسمة. ويشمل هذه القبيلة، يجتمع حشد من القبائل والمشتريين، بسوق الاثنين حيث تمرض كل المتزوجات بأثمان مناسبة.

### قبيلة بني بشير

إن هذه القبيلة الواقعة كلفة فوق جبال الصنهاجية للريف، لا تتعدى مساحتها عشرين كيلومترا، طولاً وعرضاً. وتحد شمالاً بمشوية وزرقت، وشرقا وجنوبا بقبائل جبلة وغريا بتاغزوت وبني بونصر وبني خفوس وبني سداث.

والمنطقة كلها عبارة عن غابة شامخة تتواجد فيها بكتلة، حوالي مئتين قرية صغيرة محاطة بالخضرة من كل الجوانب. إن أشجار الدردار والقلوط والفلين المجاورة لأشجار الفواكه كالجوز واللوز والشمش، كان بإمكانها أن تجعل من قبيلة بني بشير، إحدى أغنى المناطق بالريف لو أن أهلها أصبوا التصرف بثروتهم الغابية، لكن لا شيء يتم استغلاله هناك.

للأهل يكتفون بجني ثمراته الأشجار، دون معرفة بفائدة الفلين ودون أن يفكروا أبدا في بيع خشب الدردار أو البلوط لصالح الأسلحة بتأخرات. فالإعمال والتفريط هما الكلمتان اللتان تخطران دائما، عندما نتحدث عن هذا البلد الرائع الذي يسمى المغرب.

ونظرا لوجودهم بجوار جبلة، فقد كانوا يستعملون العربية فيما بينهم خارج المنزل، أما بداخله، فإن النساء والأطفال لا يتكلمون ولا يفهمون سوى تمازيغت. ونساء القبيلة مقتربات، فهن يصلن كل الأنسة، من جلابة وحليف. وهذا لا يمنعهن من القيام بالمصدا وجلب الحطب والماء والاعتناء بالماعز. وما يميزهن هو سلوكهن الذي لا تشوبه شائبة. ورغم أن الرجال هم أكل اشتغال من زوجاتهم، إلا أنهم يقومون ببعض الأعمال مع تلك. فهم يحرثون ويلكثون الأرض التي يصحب لغيرها بالمحراث ويقومون بالمشقة في كل مكان قريبا، لأن المنطقة مليئة بالمنابع التي تساهم مياهها المنعشة في التثاق الحياة بكل أشكالها. وتحيط القرى الصغيرة بصغيرين صغيرين متبكين من هذه المنابع وتجرى مياهها من الجنوب إلى الشمال. ويتعلق الأمر بواد بني بشير الذي يعبر في جزئه الجنوبي غابة رائعة من الدردار، وواد الزاوية، سمي كذلك لأنه يتنقل من منطقة قريبة من زاوية تاسيلنت ( الدردار )، وهي قرية من 100 منزل.

ولم يستقر محمد بن الطيب كثيرا عند بني بشير. فقد كان يحصل الشتاء على الأبواب، ولأن الرحالة الناذق قصير كان يخشى من أن تعاصره اللجج فوق القسم الباردة للقبيلة، فله رجل عند نهاية الخريف وتوجه صوب جبلة، بعد أن تؤكد من أن بني بشير تضم ثلاثة أسام وهي: تاسيلنت ( الدردار ) ( القسمية أمازيغية )، بني بكار ( القسمية عربية )، ليت يحيى ( القسمية عربية أمازيغية ). ويهند كل قسم 1500 رجل، أي ما مجموعه 4500 من المشاة بالنسبة للقبيلة برمتها. وتعتبر الهندية الطويلة المصنوعة بتأخرات، بمثابة السلاح الفاري الوحيد المعروف هناك. عدد السكان المحتمل 22500 نسمة. القطيع محدود وسط القبيلة. المنطقة جبلية وتوجد بها الحديد من المعادن التي تجوبها البغال.

إن نترك الدرويش يتعد عن الريف، قبل أن تلقى نظرة أخيرة على هذا الإقليم الصغير الذي كان إلى الأمن القريب، بشكل آخر جزء مجهول على الساحل المتوسطي والذي ملأ مستقلا، كما كان منذ مئات القرون، متوحشا باستمرار ومحتزا بحريته اللامحدودة التي تجعل أهليه مقتنعين بأنهم بمنأى عن التكتلات والغزوات الخارجية. لكن هل نظم ما الذي يخبوه المستقبل لهذا الإقليم؟

يبدو في الوقت الراهن، أن الريفيين سعداء جدا بحياتهم التي يقضونها في جهل وفوضى كاملين. فهم لا يحسون بسلطانهم المتيقنة. ولولاك الذين منحت لهم الفرصة من بين الريفيين، لرؤية

مبتكراتنا الحديثة كالسكك الحديدية والقطارات، لم يعمروها أي اهتمام، وهم يشبهون في  
لامبالأته، رد فعل مقوس السائق تجاه الدراجة الهوائية. فما يلزمهم، هي الحياة التي يقضونها  
وسط الطبيعة الرقعة والهدوء الساكن للآليات، الذي لا يزججه سوى النفس الخلاق، الأكث من  
أصايق اللاتيني، أثناء مرور العواصف الكبرى.

وإذا كان قدر المكون سيحكم على بلد الحريات هذا، بأن يخضع لسيطرة الأجنبي، فإن  
ما نقصناه هو أن يحكم من طرف فرنسا، لأن وطننا الدائم، للتعريف مع رعاياه المسلمين، دأب على  
معاملتهم بشكل جيد، الفصل بكل تأكيد، مما هو عليه حال رعاياه المسلمين الآخرين المخلصين  
للأمم الأوروبية الأخرى\*.

---

\* - ملحوظة المترجم: مرة أخرى يتضح بجلالة العهد الاستعماري لهذا السجل الإثنوغرافي الذي يظل شديدا  
ومشوقا مع ذلك.

## خاتمة

والآن، أتمنى أن تقرأوا هذا الكتاب، كهنا كنتم ، فراء أو أهداء، أو طسقاء، علماء كبار أو أبناء علماء، لا تنتظروا على تركيبها ولا تحليلها لمعنى هذا. فإذا لم يكن قد أُرجمكم كغيره، وإذا كان قد أضلّك إلى مفارقتكم شيئا ما، فسلكون مريتا، لأنني سأعرف بأنّ ماله لن يكون هو الإحراق. ويمكن تفسير هذا الجزء من صلي بالرجوع إلى كلمتي العلون وهما: المغرب المجهول وإلى 32 صفحة من التمهيد إضافة إلى المقدمة.

وحتى يتم إسكات القند السمين اللينة أو المحدود الأقف، فإني أرى نفسي ملزما بتقديم توضيح وجيز. طبعاً هناك ثلاث فرضيات ستكون لكم منذ قراءة الأسطر الأولى من هذا الكتاب وهي كالتالي: إما أن الكتاب قد خدع من طرف كل الرحلة المسلمين وإما أنه هو نفسه مفادع وإما أنه قال الحق وليس شيئاً غير الحق ، وفي هذه الحالة، فقد كشف لنا عالماً مجهولاً.

ألم هذه الشكوك، ما هو المعيار الذي يمكن إتباعه للحكم على القيمة العلمية للكتاب وعلى صدق المكتشفين وعلى حسن نية كاتب هذه السطور؟

إني لا أرى سوى معياراً واحداً، وهو معيار حاسم، فإليك بيانه: انتموا هذا الكتاب ولو قلوا أي رأيي ألتزم به، متعلماً كان أو جاهلاً، والردوا عليه الجزء المتعلق بحياته وبالمنطقة التي يعرفها وسيكون جوابه ورد لفظه بمثابة إجابة لي أو إثبات لما قلته. وكم من مرة كنت بنفسى بهذه التجربة ! فلي لؤفة وهران وبهاينة وداخل الإقليم، كنت كلما انتهت بالرياضين، إلا ونبوت منهم وتحدثت لهم طويلاً عن بلدهم، مقدما البراهين على أنني أعرفه مثلهم تقريباً. وكان ذبولهم يترجم مباشرة بوجل من المعلومات الجديدة والأسرار الثمينة التي أستفيد منها قدر الإمكان. وكان العديد من أسئلتهم المتواجدين معي صنفه، شاهدين أحياناً على هذا التحري الأصل والمواصل وعلى الدهشة العميقة للأمازيغيين الذين سيشرعون في الكلام دون توقف، بعد ربع ساعة من الحديث معهم، ملعين على البقاء بجاني ومنساقين وراء القنمة للطفيلة التي يجلبها لهم القحدث عن موطنهم بعيد وعن العادات والتقاليد التي اقتضوها في أرض المهجر الغريبة عنهم. وقد كانت كلمة سحرية واحدة، تفتح لي القلوب، وتخرج من بين شفاء هؤلاء الرجال البسطاء، أسراراً ظلت مكتومة بعناية من قبل، إنه الاسم المسجد للرسول (ص)، هذا الاسم المقدس الذي لا يذكره المسلم بشكل محلي. وكانت أعظمي باستهزاء عظيم، هو ذكر الرسول (ص) بأنهم واستحضار أحاديثه السنية، بهدف البرهنة على أن من ينطق بها، يتوفر على الإيمان الصادق.



لها أيتها القوة العظيمة، بفضلك توصلت إلى النتائج المثمرة لهذا العمل وشعرت بالغبطة والدفعة أمام المصداق الهائل الذي لاقته لترويجها والذي أهدى شارل الأولي إلى تلك التي لا أستطيع ذكر اسمها دون تكبر، إلى أبنا جيمس، إلى فرنسا العظيمة والكريمة دائما. لكنني سأكون تكبرا للجميل، إذا لم أذكر الرجل الذي أرسلته إلى عملية الإبيسة، والذي كان بمثابة الكنز الذي لا يخرى بشأن والمنتج الفرنسي الذي نهلت منه، والذئب الهائل الذي كبتت منه عالم لم يكن معروفا. وهذا المشوّل الغريب، هذا التفكير العظيم التي قد تقدم إليه الصلة إشفاقا على منظره البئيس، ما زال موجودا في المغرب. وقد توصلت منه بتاريخ 17 أكتوبر 1895 بالرسالة التالية:

« المصدّد وحده،

إلى حضرة سيدي مولاي راس. طوبك سلام الله تعالى وبركاته، أما بعد، فإن سألت هذا فما لنا بغير وعافية ولكن السؤال منا إليكم والملائكة معظم في ساعات الخير نحو ثلاثة أشهر، والآن ترقى في بلد الدار البيضاء ولابد أن تخبر أصحابك بما كان والسلام. وكتب في 20 من صفر الخير، عام 1313. محمد بن الطيب والله اعلم.

وبتاريخ 20 صفر 1313 يوافق 11 غشت 1895، ولم توضع الرسالة بالبريد إلا في 09 أكتوبر! وذلك بالصورة (موغادور) وليس بالدار البيضاء، كما تشهد على ذلك الطوابع البريدية بالملاف. ويمكننا أن نفرض أن الدرويش أتته في مكان ما داخل مقاطعة الدار البيضاء، قد أودع رسالته وهو بهم بقتول وسط المغرب، إلى أخ له في الملة كان مدعوا للسفر إلى الصورة (موغادور) لقضاء أغراضه. وهذا الأخ الذي لم يتمكن ربما من السفر، أعطى الرسالة إلى شخص آخر وهكذا دواليك، إلى أن وضعتها يد مجهولة بصندوق البريد بالصويرة بعد مرور شهرين على كتابتها!

وكيفما كان الحال، فإن الدرويش كان بتاريخ 11 غشت الماضي، يتمتع بصحة جيدة. وأنا متيقن بأنه يتجول الآن (10 نوفمبر) في قلب المغرب ذاته، هناك حيث لم يسبق لأي أوروبي أن وضع قدميه. فأني حصاد رائع سيطلب لي، لو تمكن من مغفرة هذه الإمبراطورية الغريبة! لقد ترك لي هذا المكتشف الجريء قبل رحيله، وديعتين ثميتين وهما: عصاه التي استخدمها في السفر وزوج من المال. وكانت لديه بدون شك عصا أخرى بدولة. أما بخصوص اللطين، فيما أنهما كانا جديدين تقريبا، فله فضل عدم تعرضهما لأطماع المغاربة وتلك

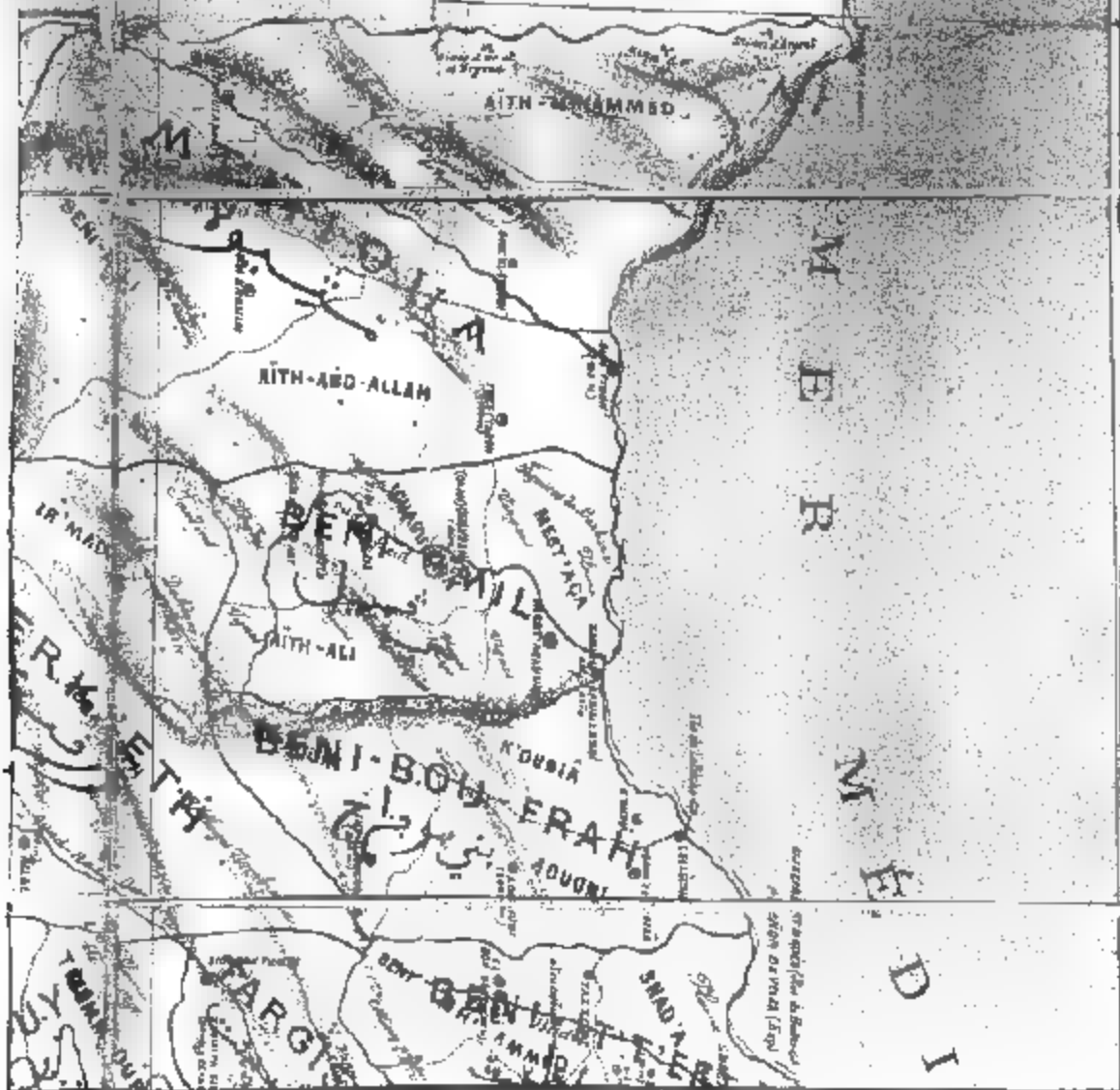
بهما عينا عدي والذهب حالي القديم ونفوق ظهوره جلالة مولانا، وهو موقوف بأنه سيجد ونبيته  
 الصغيرة بالمزول كما تركها. فما للمسكين، لقد كانت تلك هي كل ثروته !  
 لنا الجملة الأخيرة من رسالته والتي اعترفت لغزا بالنسبة للجميع، فلها واسعة بالنسبة  
 لي. فهي تقول: « ولا بد أن تغير أصدقاءك بما كان ». ومضى ذلك، لم ينشر مؤلفك " المغرب  
 المجهول " وبشر أصدقاءك بذلك. والأصدقاء الذين يتقدم طعنا هم الفرنسيون، لأن هذا الرحالة  
 الساذج، كان يعتقد بأنني أعرف كل واحد من أبناء وطني وأن كل حدة الفقيهين المحترمين بأنفسهم  
 Fiers Gaulois ، هم أصدقاء الأعراء والمحميين جدا بدون استثناء.  
 وما لنا كنت بتنفيذ وصيتك يا عزيزي الدرويش المسكين. لقد أنهيت كتاب " اكتشاف  
 الريف، ولم يبق أمامي سوى أن أكتب وأنا محتاج.  
 تنتهي الجزء المتعلق بمنطقة الريف.

# ملحق

## الخرايط

NORD

Province des Beni

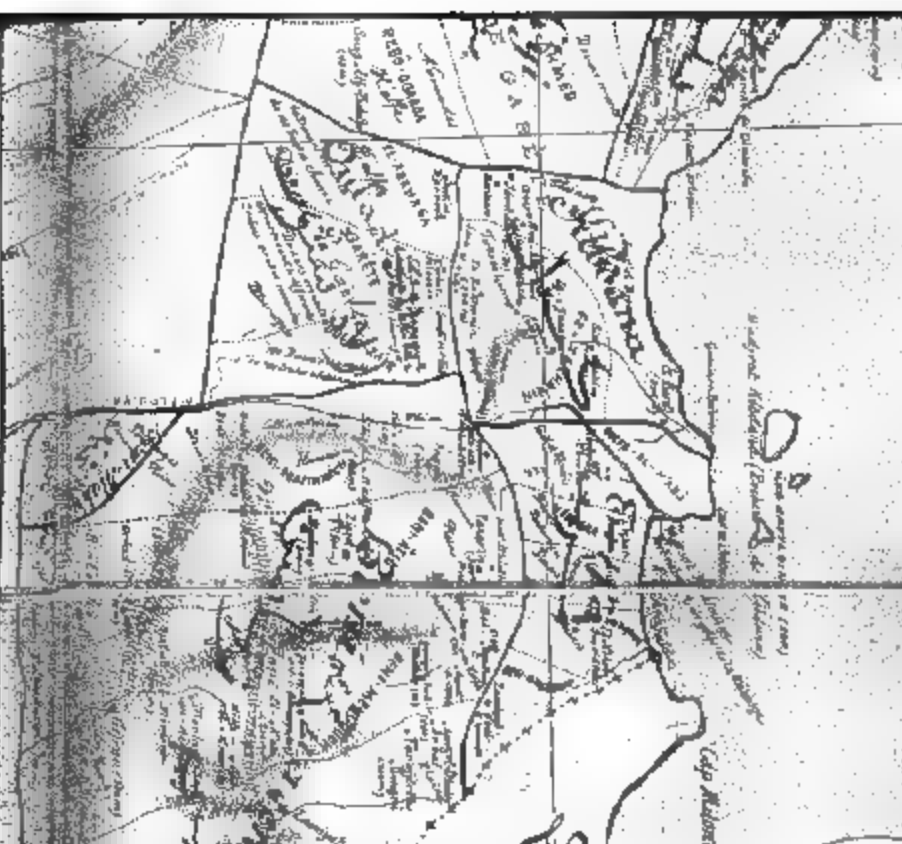








Méditerranée



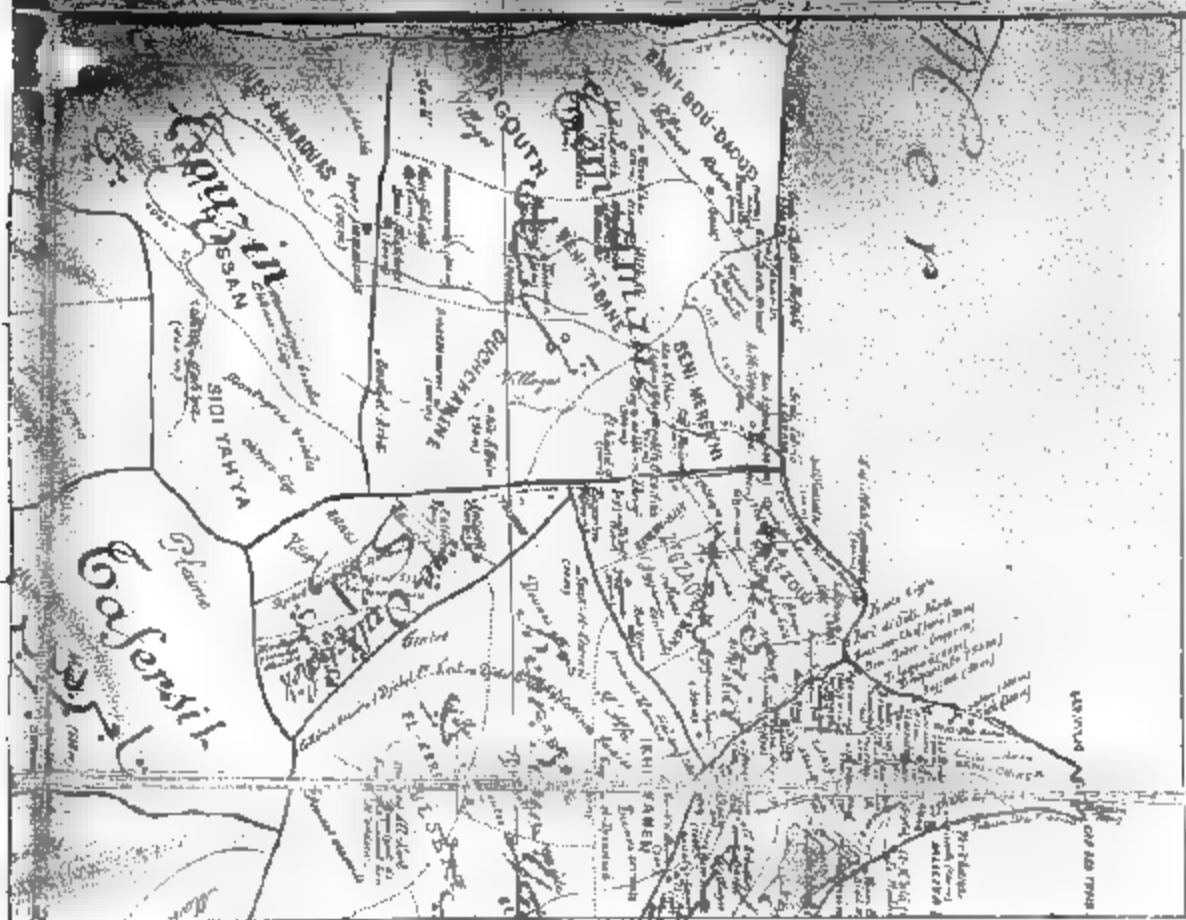
LE MAROC INCONNU (preparé)  
**CARTE DU RIF ORIENTAL**  
PAR AUGUSTE MOULIÉRAS

ÉCHELLE DE :

500,000

Maroc  
D'Orient





Province des  
Debalas

*Stemmya*

*Merrill*

ATH-DX01

9101 - SEN - NOVA

EL-2000

— 200 —

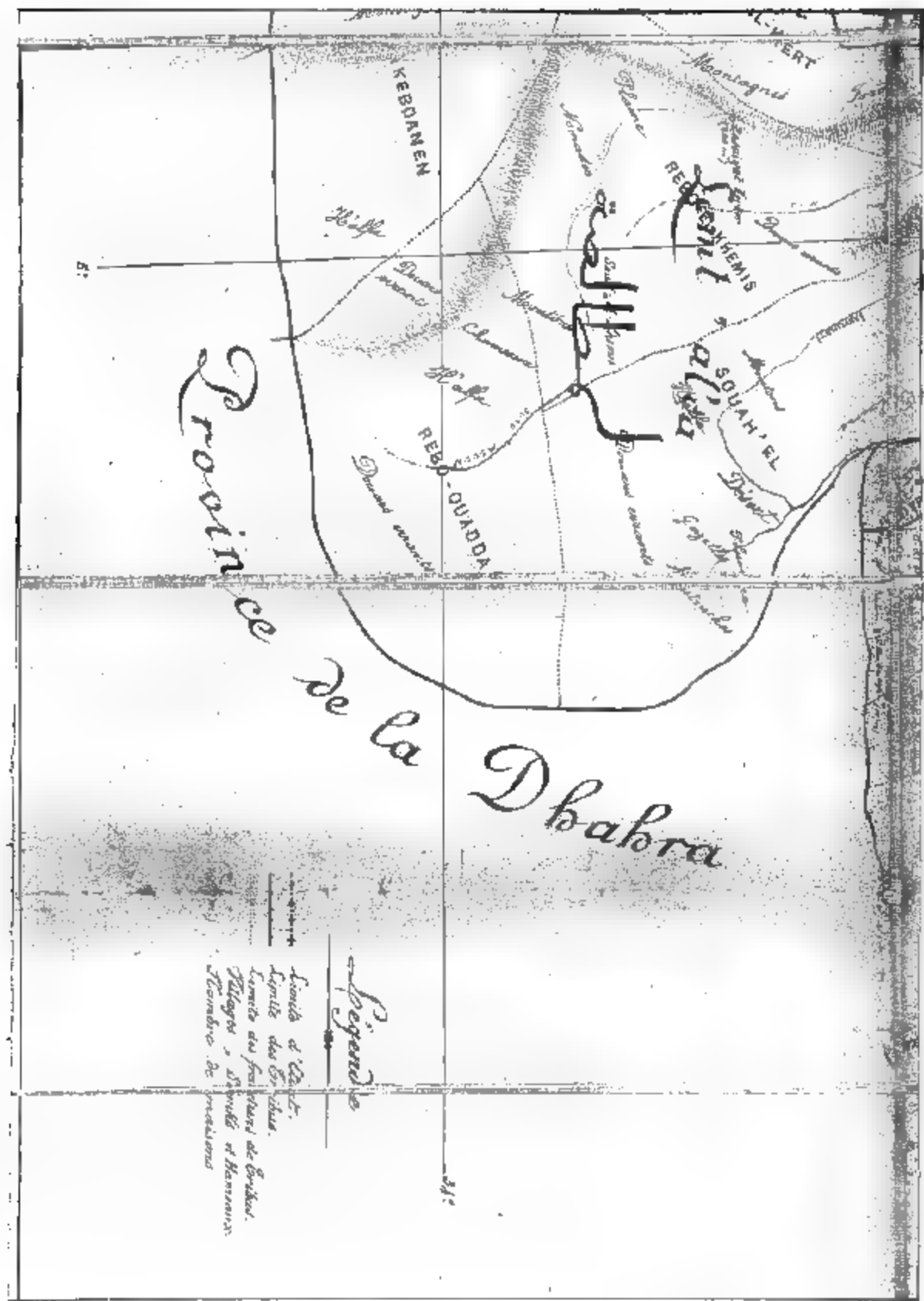
| Monday | Tuesday | Wednesday | Thursday | Friday | Saturday | Sunday |
|--------|---------|-----------|----------|--------|----------|--------|
| 1      | 2       | 3         | 4        | 5      | 6        | 7      |
| 8      | 9       | 10        | 11       | 12     | 13       | 14     |
| 15     | 16      | 17        | 18       | 19     | 20       | 21     |
| 22     | 23      | 24        | 25       | 26     | 27       | 28     |
| 29     | 30      | 31        |          |        |          |        |

செய்து

# Province de la Dhahra

## Légende

- Frontière de l'Etat.
- Frontière des Tribus.
- Frontière des Français de l'Algérie.
- Villages, Djezirs et Hammanes.
- Frontière de l'Algérie.



## الفهرس

- 5 ..... - مقدمة المترجم .....
- 14 ..... - تمهيد: لماذا وكيف أجهزت هذا الكتاب؟ .....

## المغرب المجهول

- 28 ..... - مقدمة: ثلثات عامة حول المغرب .....
- 29 ..... - إقليم المغرب .....
- 30 ..... - الاسم الحقيقي للمغرب .....
- 31 ..... - الأعراق .....
- 31 ..... - الأمازيغ .....
- 33 ..... - العرب .....
- 35 ..... - القزاق واليهود .....
- 36 ..... - ثروات وسكان المغرب .....
- 39 ..... - الدور الموهول لفرنسا في الشمال الغربي لإفريقيا .....

## المغرب المجهول : اكتشاف الريف

- 43 ..... - توطئة .....
- 49 ..... - كيفية تدوين الكلمات العربية والأمازيغية والنطق بها .....
- 51 ..... - ملاحظات .....

## المغرب المجهول

### اكتشاف الريف : قبائل الريف

- 54 ..... - قبيلة تاغزوت .....
- 61 ..... - قبيلة بني بونصر .....
- 63 ..... - قبيلة بني خنوس .....
- 64 ..... - قبيلة بني سيدات .....

|     |                                   |
|-----|-----------------------------------|
| 70  | - قبيلة متونة.....                |
| 89  | - قبيلة بني جميل.....             |
| 87  | - قبيلتا زرقا وثار جيس.....       |
| 91  | - قبيلة بني بولراح.....           |
| 93  | - قبيلة بني بعلت.....             |
| 96  | - قبيلة بقورة.....                |
| 100 | - قبيلة بني وديانل.....           |
| 109 | - قبيلة تمسحل.....                |
| 120 | - قبيلتا بني توزين وثاريسيت.....  |
| 125 | - قبيلة كزالية.....               |
| 128 | - قبيلة لمطلمصة.....              |
| 131 | - قبيلة بني عريث.....             |
| 134 | - قبيلة بني مزغوي.....            |
| 135 | - قبيلة بني وثلث.....             |
| 137 | - قبيلة بني سعيد.....             |
| 144 | - قبيلة بويحيى.....               |
| 148 | - قبيلة قحبة.....                 |
| 176 | - قبيلة كبدانة.....               |
| 181 | - قبيلة تريفة.....                |
| 185 | - قبيلة أولاد ستوت.....           |
| 191 | - قبيلتا بني زلمان وبني معيو..... |
| 203 | - قبيلة مغراوة.....               |
| 204 | - قبيلة بني بشير.....             |
| 207 | - غاتمة.....                      |
| 210 | - منحقي.....                      |
| 219 | - الفهرس.....                     |

## إصدارات المترجم

### 1- الأعمال الفردية

- موسولوجيا التقليد والحداثة المجتمع المغربي (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2001.
- مسائل درس الفلسفي بالمغرب (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2002.
- محمد عبد الكريم الخطيب، الفقه الوطني (تأليف)، منشورات توفيق ز. أريف، الرباط، 2003.
- في الترجمة الفلسفية السياسية والأخلاقية (مجموعة نصوص مترجمة)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2004.
- هانجر وثقافة (نصوص مترجمة لاهل بلان)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2005.
- حوار الفلسفة والسياسة، مطبعة النجاح الجديد، البيضاء، 2006.
- أسئلة الفلسفة المغربية (تأليف)، منشورات الزمن، الرباط، 2000.

### 2- الأعمال المشتركة:

- سارة كوشان/ روجي لاورت، منخل إلى لفظة جاك دريدا (ترجمة) دار إفريقيا / الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 1991، ط 2، 1994.
- دريدا، شاتلي كوشان، درس الفلسفة (ترجمة)، المنطوية بقلان، سلا، 1998.
- جرمين تيلون، الحريم ولقاء العم، تاريخ النساء في المجتمعات المتوسط (ترجمة) دار الساقي، لندن/ لاورت، 2000.
- سيملا البلدان الثانية، بين التمييز والتكيد الذات (مجموعة نصوص مترجمة)، مطبعة لاورت، الرباط، 2000.
- مقبول ماري غاريلو، خطابات الحداثة (ترجمة)، منشورات ما بعد الحداثة، فلان، 2001.
- إسمون جلييس، أسئلة الكتابة (ترجمة) منشورات ما بعد الحداثة، فلان، 2003.
- لودنس كورنو، أكل فارغ، الخطاب الديالكتيكي، أسئلته ورعايته (ترجمة)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2003.
- منخل إلى لفظة ليمبول كوشان (نصوص مترجمة)، منشورات اختلاف، الرباط، 2003.
- قلوب جونغير، نمر لهم صدى للكتابات (ترجمة) منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2005.
- لفر كتابات (ترجمة) صل جسامي لوداز، برونو وآخرون)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2005.

- ميشال هلو، فلسفة العمل، أعضاء واتصالات، (ترجمة)، منشورات ما بعد الحديثة، فلس، 2005.
- نحو كرامة جديدة لتاريخ الفلسفة، مطبعة النجاح الجديد، البيضاء، 2006.

### 3- الأعمال الجماعية:

- تدريس الفلسفة بالتكويين وتجديد السلك التربوي (تأليف)، سليمان إخوان، طنجة، 2001 (منشورات مجلة وليلي، مكناس).
- الكتابة الموسولوجية عند عبد الحليم طيبي (تأليف)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهرزل، فلس، دار ما بعد الحديثة، فلس، 2002.
- الفلسفة والمدنية، (تأليف)، منشورات وليلي، مكناس، مطبعة سليمان إخوان، طنجة، 2003.
- القانون في المنظومة التنموية بالمغرب، وضعيات ورموزات (تأليف) منشورات وليلي، مطبعة سليمان إخوان، طنجة، 2003.
- نحو كرامة المواطن الوطني للتربية والتكوين، (تأليف)، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، 2004.
- أسئلة الولجب والوجود الإنساني (تأليف)، منشورات وليلي، مطبعة سليمان مكناس، 2005.





اثنا وعشرون سنة من الاكتشاف في  
هذه الربوع المجهولة من 1872 إلى 1893

روايات مهمة لرحالة مسلمين. تتعلق  
بالأرض والسكان والعادات والتقاليد  
والأعراف والمنتجات الفلاحية والصناعية  
والتجارية والثروات المعدنية والغابوية والرعوية  
وساكنة البلد والقوى العسكرية والإدارة  
واللغات والأعراف.